

التنظيمات العسكرية والفن الحربي عند المماليك

(٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)

من

محمد راجح نصر الله

أطروحة

مقدمة كجزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الوسيط

قسم التاريخ

كلية الآداب

٢٠١٦



التنظيمات العسكرية والفن الحربي عند المماليك

(٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)

Military Organizations and the Art of War at the Time of the Mamelouks

(648-923H/ 1250-1517AD)

من

محمد راجح نصر الله

أطروحة

مقدمة كجزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الوسيط

قسم التاريخ

كلية الآداب

إشراف

أ.د. حسان حلاق

أستاذ التاريخ – كلية الآداب

جامعة بيروت العربية

مشرفاً رئيساً

أ.د. سوزي حمود

أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي

كلية الآداب – الجامعة اللبنانية

مشرفاً مشاركاً

٢٠١٦



لجنة الحكم على مناقشة محمد راجح نصر الله

تصدق أن هذه هي النسخة الموافق عليها للأطروحة أدناه

التنظيمات العسكرية والفن الحربي عند المماليك

(٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)

لجنة الحكم

أ.د. حسان حلاق

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الآداب - جامعة بيروت العربية مشرفاً رئيساً

د. نشأت الخطيب

أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي - كلية الآداب - الجامعة اللبنانية عضواً خارجياً

د. علي حلاق

أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي - كلية الآداب - الجامعة اللبنانية عضواً خارجياً

د. سوزي حمود

أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي - كلية الآداب - الجامعة اللبنانية عضواً ومشرفاً مشاركاً

د. داوود قندولي

أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي - كلية الآداب - الجامعة اللبنانية عضواً خارجياً

كلمة شكر

أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة في كليتي الآداب (قسم التاريخ) في الجامعة اللبنانية وجامعة بيروت العربية على إرشاداتهم وملاحظاتهم القيمة التي ساهمت في إغناء هذه الأطروحة وإخراجها بالصيغة المطلوبة على هذا الشكل.

والأساتذة هم:

- **أ.د. حسان حلاق:** أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر – كلية الآداب – جامعة بيروت العربية. مشرفاً رئيساً
- **أ.د. سوزي حمود:** أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي – كلية الآداب – الجامعة اللبنانية. عضواً ومشرفاً مشاركاً
- **د. نشأت الخطيب:** أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي – كلية الآداب – الجامعة اللبنانية. عضواً خارجياً
- **د. علي حلاق:** أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي – كلية الآداب – الجامعة اللبنانية. عضواً خارجياً
- **د. داوود قندولي:** أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي – كلية الآداب – الجامعة اللبنانية. عضواً خارجياً

ولكل من ذكرت كامل الاحترام وخالص الوفاء.

مقدمة

أولاً: أهمية الموضوع:

قامت دولة المماليك في مصر سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، كدولة ذات طابع عسكري بامتياز، وهي نتاج معركة المنصورة التي كانت قد نشبت بين الفرنجة والأيوبيين، إذ من خلالها سطع نجم المماليك العسكري الذين كانوا يقاتلون في صفوف الجيش الأيوبي، وأثبتوا جدارتهم في ساحات الحروب ضد الأخطار الكبرى التي هددت بلاد العرب والمسلمين من جانب المغول هذا من جهة، والفرنجة والغرب الأوروبي من جهة أخرى. ولا زالت معركة عين جالوت وتحرير أنطاكيا وطرابلس وعكا تتحدث عن سجل حافل بالانتصارات التي حققها المماليك في تلك الحقبة من تاريخهم والتي تعد من الصفحات المشرقة والمشرِّفة في التاريخ الإسلامي.

استطاع المماليك بفضل تنظيمهم العسكري الدقيق وشراستهم في ميادين القتال من التصدي لعامل الوهن والضعف الذي أصاب الأمة، وعجزها عن حماية إنجازاتها ومكتسباتها، هذا بالرغم من الطموح السياسي الذين أخفوه المماليك بعد ظهورهم على مسرح الأحداث في مصر وبلاد الشام، ويرجع إليهم الفضل في إنقاذ هذه المنطقة من أخطار الهجمات التي تعرضت لها على أيدي الفرنج والمغول.

ومما لاشك فيه إن دراسة التنظيمات العسكرية والفن الحربي عند المماليك في تلك الفترة الزمنية من التاريخ الإسلامي (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، وكيف استطاع هذا الجيش أن يحقق تلك الانتصارات الباهرة على جحافل المغول، والقضاء على التهديد الإفرنجي، كلها تساؤلات دفعتني إلى أن أولي هذا الموضوع أهمية خاصة في الدراسة والبحث، كونه من الموضوعات المهمة والشيقة التي تحفز الباحث وتثير فضوله العلمي للتعرف على الحالة والظروف التي نشأت فيها تلك الدولة، وكيف تكون لديها هذا الجيش الذي من خلاله استطاعت أن تؤسس كيانها وتقضي على أعدائها، وأن يضمن بقائها نحو أكثر من قرنين ونصف من الزمن.

إن الكثير من الدراسات المتعلقة بالتاريخ الإسلامي كانت قد ركزت في معظمها على إعطاء الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية أكثر منه من الجانب العسكري. لذلك فقد كان اختياري لموضوع التنظيمات العسكرية والفن الحربي عند المماليك، مرده لأسباب علمية ذات صلة بكيفية تكوين هذا الجيش وتطوره، ومن ثم التعرف على هيكليته العسكرية والوظائفية بالإضافة إلى تدريباته وأسلحته وأساليبه القتالية التي يعود إليها الفضل في الانتصارات التي حققها في ميادين القتال.

لم يبحث هذا الموضوع بشكل وافٍ ومستقل، خاصة وأنه يطال فترة الحكم المملوكي من تاريخ نشأته حتى نهايته، فكان لابد والحالة هذه من الاطلاع على معظم المصادر المتوفرة عن تلك الحقبة التاريخية للخروج منها بدراسة متواضعة تفي الموضوع حقه. وتساهم في إغناء الدراسة وإثراء المكتبة الجامعية والعربية في آن معاً.

ثانياً: إشكالية الدراسة:

إن إشكالية الأطروحة تعد النقطة الأساس للإنطلاق في عملية طرح التساؤلات والإجابة عليها، والتي من خلالها تتحدد الأهداف المنشودة، وأهم هذه التساؤلات كما يلي:

١- إن موضوع التنظيمات العسكرية والفن الحربي عند المماليك هي لتحليل تلك التنظيمات ودورها في تحقيق الانتصار على المغول في معركة عين جالوت، وعلى الفرنج في بلاد الشام، وليس من باب الوصف والعرض فقط.

٢- السرعة الفائقة التي قامت فيها دولة المماليك، قياساً بالإنجازات العسكرية التي حققتها في مواجهة أخطر عدويين (الفرنج والمغول).

٣- إن إتقان الجيش المملوكي في استخدامه لكافة أنواع الأسلحة، والتي كانت سبباً في انتصاره في معظم حروبه التي خاضها، بينما عدم استخدامه لسلاح المدفعية رغم امتلاكه لها في مواجهة العثمانيين أدت إلى هزيمته في مرج دابق سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) وفي الريدانية سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م).

هناك بعض الدراسات التي كانت قد تناولت موضوع التنظيمات العسكرية المملوكية، إلا أنها دراسات شملت التاريخ المملوكي في شتى المجالات، ولم تخصص له دراسة عسكرية تنظيمية بحتة، وعلى سبيل المثال، المغول والمماليك في عهد دولة بني قلاوون، للدكتور أحمد عبد الكريم سليمان، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، للدكتور أحمد مختار العبادي. وتاريخ المماليك في مصر والشام للدكتور محمد سهيل الطقوش.

ثالثاً: منهج الدراسة:

للوصول إلى الغاية المرجوة فقد اعتمدت على منهج البحث التاريخي، القائم على الوصف والنقد والتحليل، استخراج النصوص من مصادرها، والتدقيق بها، وربط الحقائق ببعضها البعض، ومقاربة الموضوعات لأن الدراسة العلمية تقتضي من البداية التعرف على المصادر والمراجع التي

يستقي منها الباحث المعلومات الوافية وتبيان هذه المصادر وأهميتها، حيث أن التعرض إلى المـصادر يمثل الوسيلة الوحيدة لدراسة التنظيمات العسكرية والفن الحربي عند المماليك.

رابعاً: فصول الدراسة:

إن موضوع الأطروحة عسكري بامتياز، فقد ارتأيت تقسيم الأطروحة إلـى مقدمـة وتمهيـد، وثمانية فصول، بالإضافة إلى الخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع.

- **ففي المقدمة أهمية الدراسة وسبب اختيارها، إضافة إلى الإشكالية، والمنهجية العلمية.**
- **الفصل الأول: العناصر المكونة للجيش المملوكي.**
- **الفصل الثاني: الهيكلية العامة للجيش المملوكي.**
- **الفصل الثالث: الانضباط والقضاء والمراسم والرايات وآلية الترقية في الجيش المملوكي.**
- **الفصل الرابع: التربية والتدريب العسكري.**
- **الفصل الخامس: سياسة الجيش المملوكي في إدارة العمليات وإعداد الخطط العسكرية.**
- **الفصل السادس: أسلحة الجيش المملوكي وصنوفها.**
- **الفصل السابع: الجهاز الإداري للجيش المملوكي.**
- **الفصل الثامن: أهم المعارك التي خاضها الجيش المملوكي.**

وأنهيت الأطروحة بخاتمة واستنتاجات، وملاحق وخـرائط، وفهـارس للأعـلام والأمـاكن والمصطلحات، ومصادر ومراجع للدراسة، وفهرس للموضوعات.

نقد عام للمصادر

اتسم العصر المملوكي في مصر وبلاد الشام بغزارة الكتابات التاريخية فقد ظهر فيه عدد كبير من المؤرخين الذين اختصوا في التاريخ والجغرافيا والخطط والتراجم والموسوعات وغير ذلك من الفنون، وتعتبر تلك المصادر هي الوسيلة الوحيدة والأهم لدراسة التنظيمات العسكرية والفن الحربي عند المماليك التي هي محور الأطروحة وبالرغم من وفرة هذه المؤلفات ومادتها وتنوع موضوعاتها لم يتم تأليفها في زمن واحد.

إن معظم هذه المصادر كان قد وضعها مؤلفون عاشوا في العصر المملوكي الثاني أي في القرن التاسع الهجري، حيث اعتبر بعضهم أن عصر المماليك البحرية كان رمزاً للازدهار والتفوق الحربي، في حين رأى آخرون أن العصر الثاني هو عصر الفساد والإضمحلال.

هناك مجموعة كبيرة من المصادر التي اعتمدت عليها في هذه الأطروحة هو ما كتبه:

١- المقريزي: أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس الحسيني العبيدي تقي الدين المولود سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م، والمتوفى سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م. الذي تقلد العديد من الوظائف كان آخرها الحسبة في القاهرة، ويعتبر المقريزي من أشهر المؤرخين المسلمين وله مؤلفات تاريخية كثيرة وقد تميزت كتاباته بالدقة في إيراد الحقائق والاعتماد على الوثائق، كما أنه لم يقتصر على تدوين الأحداث السياسية، بل تعداها إلى الأوضاع الاجتماعية التي كان يعاني منها المجتمع المصري، فإنه بذلك أعطانا صورة فريدة وصادقة لمشاكل العصر.

نشأ المقريزي في كنف جده لأمه ويعرف بابن الصائغ، وكان من علماء الحنفية لهذا تأثر الحفيد بالجد فكان حنفياً حتى غدا شاباً فتحول آنذاك إلى المذهب الشافعي.

يمكن تصنيف إنتاج المقريزي إلى قسمين: المؤلفات الكبيرة والرسائل الصغيرة وقد أوقف مؤلفاته الكبيرة إما على موضوع من مواضيع التاريخ الإسلامي العام، أو على تاريخ مصر الإسلامية السياسي والعمراني عبر عدة مداخل أولها منذ الفتح الإسلامي وحتى قيام الحكم الفاطمي، وثانيهما تاريخ الخلافة الفاطمية حتى سقوطها، وثالثها منذ نهاية العصر الفاطمي وحتى أيامه في العصر المملوكي.

أما الرسائل الصغيرة، فقد عالج فيها المقريزي عدداً من المواضيع المهمة وارتبط معظمها بمشاكل العصر المملوكي، وأهم هذه الرسائل هي:

- **الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك.**
- **شذور العقود في ذكر النقود.**

- **إغاثة الأمة بكشف الغمة.**

- **البيان والإعراب فيمن نزل أرض مصر من الأعراب.**

إن أهم مصنفات المقريزي الكبيرة كتابه "**السلوك لمعرفة دول الملوك**". وهو من المصادر الأساسية التي لا يستغنى عنها في التاريخ المملوكي، ولحسن الحظ تم نشره كاملاً بإثني عشر مجلداً كبيراً.

دوّن المقريزي في كتابه "**السلوك لمعرفة دول الملوك**" حوادث كل عام في فصل مستقل، وختم الحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها في شيء من الاختصار. وأحياناً يفتتح السنة بذكر الوظائف الكبرى ومتوليها من الموظفين، ويجري ذلك عادة إذا جاء بدء السنة موافقاً لقيام سلطان جديد.

وكذلك كتابه الذي وصفه حول خطط القاهرة بعنوان "**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**" المعروف بالخطط المقريزية، وهو مصدر أساسي في التاريخ العمراني لهذه المدينة ولأصولها الإسلامية، علماً أن المقريزي شرع قبل وفاته بتصنيف كتاب على غرار تاريخ دمشق لابن عساكر، أراد أن يؤرخ به لمصر والواردين إليها، وأراد أن يأتي كتابه هذا بثمانين مجلداً مثل كتاب بن عساكر، غير أنه توفي قبل أن يتاح له إكمال مشروعه الكبير، وقد قيل أنه كتب منه ستة عشر مجلداً قبل أن يتوفى.

٢- ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الأصل، المصري المولد، القاهري الدار والنشأة (٧٧٣-٨٥٣هـ/ ١٣٧٢-١٤٤٩م)، كان من كبار مؤرخي هذا العصر عني بالدرجة الأولى بدراسة الحديث ورجاله ودرس الفقه واللغة والحساب ونال قسطاً وافياً من علوم عصره.

كان ابن حجر غزير الإنتاج وكان الحديث ورجاله ميدان عمله الأساسي، ومع الحديث كتب بالتاريخ والتراجم، وكان كتابه "**الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**" من الكتب التي استعنت بها في مجال الدراسة. وتولى ابن حجر عدداً من المناصب العليا وكانت له صلات شخصية ببعض السلاطين، كما كان من أصحاب الرحلة في تتبع الأخبار داخل مصر وخارجها، وفي الشام والحجاز واليمن.

٣- ابن تغري بردي: أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، تميزت موسوعته التاريخية الكبيرة "**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**" بأن جعل لكل عهد من عهود الملوك والسلاطين فصلاً قائماً بذاته، وذكر السنين وحوادثها تباعاً حتى إذا توفي السلطان أتى على أخباره كلها، ثم أعقب ذلك بترتيب سنوات عهد السلطان وما وقع فيها من الأحداث، فإنه بذلك مخالفاً لطريقة المقريزي وترتيبه.

ابن تغري بردي هو من أصل مملوكي، عاش بعد المقريزي بثلاثين عاماً تقريباً. كان والده أتابكاً للعساكر في مصر، ثم كافلاً للمملكة الشامية، وقد أتاح هذا له فرصة الاطلاع على كثير من تفاصيل أخبار عصره السياسية والإدارية والعمرانية، وكان قد أدى دوراً هاماً في تدوين الأحداث التي وقعت للسلاطين الذين عاصرهم.

يعتبر ابن تغري بردي مؤرخاً حاد الذكاء، يوثق به كثيراً، واتصف بميزة خاصة هي استمراره بعد المقريزي في تتمة تاريخه. ويتمتع كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ولاسيما تلك الحقبة التي عاصرها المؤلف بأهمية بالغة بين علماء التاريخ في العالم الإسلامي حيث تناولها تناول المؤرخ المعاصر للأحداث القريب منها اللصيق بحكامها.

٤- ابن أياس: زين العابدين محمد بن أحمد الحنفي المتوفى (٩٣٠هـ/١٥٢٣م) فقد قسم كتابه "**بدائع الزهور في وقائع الدهور**" إلى عهود مستقلة كما فعل ابن تغري بردي، وأورد السنن كما فعل المقريزي لكنه لم يجعل للوفيات ترتيباً زمنياً منفصلاً. ويعد كتابه من الكتب المهمة التي أغنت هذا البحث الذي تطلب العودة إليه مراراً لمعلوماته القيمة.

٥- ومن المصادر المهمة التي استفدت منها أيضاً كتاب "**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**" **للقلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي الفزاوي** المتوفى (٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، والذي تكمن أهميته أن القلقشندي شغل مناصب في الدولة المملوكية مكنته من الاطلاع على الدواوين، حيث الأمور المتعلقة بنظام الدولة والذي يشمل التنظيمات العسكرية، وكان من بين المعلومات التي تمت الاستفادة منها هو ما يتعلق بالأمور الإدارية والفنية، مثل البريد وديوان الإقطاع ومخازن السلاح والوظائف العسكرية. وعني القلقشندي أيضاً بوصف أقاليم مصر ونيابات الشام واهتم بشرح النظام الإداري والسياسي في هذه الجهات وعرض للقواعد التي ينبغي أن يسير عليها كاتب الإنشاء في الدواوين، وقد اتصف القلقشندي بالدقة في نقل الوثائق التي يعتقد في صحتها من المخطوطات التي تقع تحت يده.

٦- كما استعنت بكتاب "**تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء" للمؤرخ الطرسوسي مرضي بك علي** المتوفى سنة (٥٨٩هـ/١١٩٣م)، وتكمن أهمية هذا المصدر في موضوعاته والتي تتضح من عنوان الكتاب نفسه عن كيفية التصنيع العسكري والحربي، سواء في الأسلحة الجماعية أو الفردية وأنواع الصناعات وأماكن تصنيعها.

٧- ولكتابي **المنصوري**: ركن الدين بيبرس المنصوري الناصري الخطائي الدوادار المصري المتوفى سنة (٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، "**التحفة المملوكية في الدولة التركية**" الذي يتحدث عن تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة ما بين (٦٤٨-٧١١هـ/ ١٢٥٠-١٣١١م)، والكتاب الثاني "**مختار**

الأخبار"، قد أمد الأطروحة بالمعلومات الهامة نظراً لأن المؤلف نفسه شغل مناصب عدة في الدولة المملوكية، وكان أخرها نائب السلطنة في مصر.

٨- أما كتاب **الظاهري**: غرس الدين خليل بن شاهين المتوفى (٨٧٣هـ/١٤٦٨م) "**زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**"، فإنه حوى الوظائف الحربية والإدارية في دولة المماليك الثانية والتي تقلب في مناصبها حتى قبيل وفاته بالقاهرة.

٩- وكان **بن شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي** سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) قد عاصر قيام دولة المماليك، وقد صنف في تاريخ الحروب الصليبية كتاب "**الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**"، وهو واسع الشهرة، وضع للروضتين ذيلاً ترجم به لرجال القرنين السادس والسابع الهجريين.

١٠- الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك: المتوفى (٧٦٤هـ/١٣٦٣م)، من أشهر العلماء الذين أنجبتهم صفد، ويعتبر كتابه "**الوافي بالوفيات**" من كتب التراجم المهمة، ويحوي على عدد وافر من شخصيات العصر المملوكي، وبالنظر لكثرة رحلات المؤلف ولتسلمه لعدد من المناصب العالية فقد وقف على عدد من الوثائق الرسمية وأودع ما جاء بها في كتابه.

١١- وكذلك **السخاوي شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر** المتوفى (٩٠٢هـ/١٤٩٦م) من أشهر المؤرخين في أواخر العصر المملوكي وأغزرهم إنتاجاً، وقد صنف كتابه "**الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**" وهو من كتب التراجم الواسعة وبالتالي أغزرها مادة، ويكمل هذا الكتاب مواد كتاب "**الدرر الكامنة**" وهو بما حواه من تفاصيل يعد مصدراً أساسياً لكل باحث في تاريخ العصر المملوكي.

١٢- وهناك أيضاً موسوعة "**نهاية الأرب في فنون الأدب**" "**للنويري: شهاب الدين**" **أحمد عبد الوهاب بن محمد** المتوفى سنة (٧٣٣هـ/١٣٣٢م) وهو لا يتجاوز الخمسين من عمره. نال النويري ثقافة واسعة ويروى عنه أنه عمل في الوراقة حيث كان ينسخ الكتب بخط يده ويبيعها، حتى أنه نسخ صحيح البخاري ثماني مرات، وكان خطه من الجودة والإتقان، ونال شهرة واسعة من خلال تصنيف كتابه "**نهاية الأرب في فنون الأدب**"، وجاء كتابه في ثلاثة وثلاثين مجلداً لم تنشر أجزاء تاريخ المماليك كاملة بعد، إنما ما نشر حتى الآن يحوي معلومات قيمة عن المغول.

١٣- امتاز العصر المملوكي بكثرة المصنفات التي نشرت حول العلوم العسكرية، وقد برز العديد من المؤلفين لتلك العلوم على رأسهم **ابن لاجين الطرابلسي: "محمد بن لاجين بن عبد الله الحسامي الطرابلسي المعروف بالرماح**" المتوفى سنة (٧٣٨هـ/١٣٣٨م)، الذي ألف العديد من الكتب العسكرية منها "**بغية القاصدين بالعمل في الميادين**"، "**بنود الرماح في بنود الأحداث**"، "**وغاية المقصود في العلم والعمل بالبنود والأعلام**"، و"**الفروسية برسم الجهاد**" **وما أعد الله للمجاهدين من العباد**.

ويعتبر ابن لاجين الطرابلسي في مقدمة من كتبوا في الفروسية والأسلحة والفن الحربي كما يعد موسوعة حوت جميع العلوم العسكرية، فهو إن تكلم عن أي سلاح تكلم عن أوصافه ومميزاته وأنواعه والمواد التي يصنع منها، حتى أنه لا يترك للقارئ أو الباحث أي تساؤل يختص بأنواع السلاح في عصره، ومخطوط "**الفروسية برسم الجهاد وما أعده الله للمجاهدين من العباد**"، من تحقيق عارف أحمد عبد الغني، كنت قد استفدت منه كثيراً من النواحي العسكرية وخصوصاً الأسلحة الفردية التي يستعملها الفارس وهو على ظهر حصانه.

١٤- أما **الناصري محمد بن منكلي**: المتوفى سنة (٧٨٤هـ/١٣٨٢م) فقد عاصر معظم سلاطين المماليك البحرية، وتألق نجمه وذاع صيته وسيرته في زمن السلطان المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون وأولاده، وكان قد خدم أيضاً مع الملك الأشرف شعبان نقيباً للجيوش.

ولابن منكلي كتاباً يسمى "**الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب**" وهو يتضمن تسعة وثلاثين باباً، وله مؤلف آخر اسمه "**الأدلة الرسمية في التعابي الحربية**".

أجاد ابن منكلي في وصف الأسلحة، وفي وصف مسرح العمليات وحدد له المعالم وكذلك حدد الخصائص القتالية في المدن والشوارع والقتال الليلي، وعدد الطرق والأساليب والحيل والأسلحة التي تستخدم في تلك الحالات المختلفة، وإن دل على شيء فإنه يدل على رجل متمكن في اختصاصه وسعة اطلاعه وخبرته الأكيدة في الحروب والتدريبات المختلفة. ولقد استفدت منه كثيراً لجهة العلوم العسكرية.

١٥- أما **الزردكاش**: **ابن ارنبغا** المتوفى سنة (٨٦٧هـ/١٤٦٣م)، فهو من سلالة عسكرية ورث عن أبويه حب القتال والفروسية وتربى في بيئة حربية تمجد القتال وتفتخر بالشجاعة والإقدام، ألف كتاباً واحداً أسماه "**الأنيق في المناجيق**" أهداه إلى السلطان الظاهر برقوق، يتضمن هذا الكتاب معلومات حول هذا السلاح وكيفية صنعه والمواد الداخلة في صنعه، وهو من الأسلحة الجماعية الذي يتطلب أكثر من شخص لإدارته والعمل عليه، ويشرح الزردكاش عن المقذوفات التي يمكن استخدامها بواسطة المناجيق منها قدور النفط والمخرم والصنوبر والمختفي والدبقي. وقد ذكر الزردكاش عن تطور هذا السلاح وتاريخه مبتدأً من المناجيق البدائية إلى المناجيق المحمولة على العجلة التي تجرها الثيران، ثم المكاحل فالمدافع، وقد أفادني هذا المصدر كثيراً لما فيه من المعلومات القيمة التي أسهمت في إغناء الدراسة التي أعدها.

١٦- ومن كتب المكتبة الحديثة التي استفدت منها أيضاً "**الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري" لمحمود نديم أحمد فهيم**، وكتابي "**المغول والمماليك" للدكتور سيد الباز العريني، "والجيش المصري الإسلامي من عين جالوت إلى رشيد" للدكتور عبد الرحمن زكي،**

"والسلاطين في المشرق العربي" للدكتور عصام شبارو، "والخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقـاهرة ومدنها وبلادها القديمة" للدكتور علي مبارك، "ومعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكيـة والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية" للأستاذ الدكتور حسان حلاق وعبـاس صـباغ، "والدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري)" للدكتور أنطـوان ضـومط، "وتحفـة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين" للدكتور عبد الله الشرقاوي، "والبحرية فـي مـصر الإسلامية وآثارها الباقية" للدكتور سعاد ماهر، وغيرها من المراجع والكتب التي أسهمت في إخـراج هذه الأطروحة، بالإضافة إلى بعض المراجع الأجنبية والمعربة التي تحدثت عن دولة المماليك.

تـمـهـيــد

قيام دولة المماليك في ظل الاحتلال الإفرنجي والخطر المغولي

جاءت انتصارات الجيش الإسلامي على الحملة الصليبية السابعة في وقت فقدت فيـه مـصر سلطانها الصالح أيوب سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، ونظراً لغياب من سيخلفه في الحكم استطاعت أن تنهض امرأة من حريم الصالح أيوب، قديرة بعملها واثقة بقيادتها وصفها بعض المؤرخين بأنها امـرأة قويـة البأس صعبة المراس[١]. حيث استطاعت أن تقوم بدور بارز في الإمساك بزمام أمور الدولة على أكمل وجه الأمر الذي سيخَلِد اسمها في التاريخ الإسلامي كإمرأة هي شجر الدر التي كانت قد أنجبت للصالح أيوب ولداً اسمه خليل توفى طفلاً، وكان لقبه الملك المنصور[٢].

حرصت شجر الدر على إخفاء خبر وفاة الصالح أيوب كي لا تتأثر الروح المعنويـة للجـيش الإسلامي الذي كان يواجه الفرنج في دمياط، ولم يكن على علم بتلك الوفاة سوى الأمير فخـر الـدين يوسف بن صدر الدين شيخ الشيوخ قائد الجيش الأيوبي في مصر، وقد أوهمت شجر الدر عبر إشاعة كانت قد أطلقتها حول مرض شديد كان قد ألم بالسلطان وهو بحال العلاج، فقد ظلت الأدوية والأطعمة تدخل على السلطان في مواعيدها، وكذلك بقيت الأسمطة كعادتها دون أي تغيير فـي أوقاتهـا، كمـا صدرت المنشورات والأوامر الحكومية بتوقيع السلطان المتوفى في حين إذا سأل سائل عنه ردت شجر الدر بأنه مريض ما يصل إليه أحد[٣].

وعلى جناح السرعة عملت شجر الدر في إرسال أقطاي زعيم المماليك البحرية إلى حصن كيفـا بأعالي العراق لاستدعاء توران شاه ابن الصالح أيوب الذي كان نائباً عنه في ذلك الحصن. وفـي ظـل هكذا ظروف كانت قاسية في حينها على المصريين الذين كانوا يواجهون زحف الفرنج من دمياط نحـو المنصورة. وقد التحموا بالجيش الأيوبي في موقعه منية أبي عبد الله[٤] الواقعة شمال المنـصورة حيـث استشهد فيها الأمير فخر الدين قائد الجيش الأيوبي، يذكر أنه لما توفي السلطان أيوب نُدب إلى الملك لكنه امتنع بالرغم من وصوله إلى رتبة رفيعة جداً جعلته مقرباً من الملك نجم الدين أيوب[٥].

---

(1) ابن أياس، محمد بن أحمد بن أياس الحنفي (ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققه وكتب له المقدمة محمد مصطفى، دار النشر فرانز شتاينر- فيسبادن، طبعة أولى، ١٩٧٥، ج١، ق١، ص ٢٨٦.

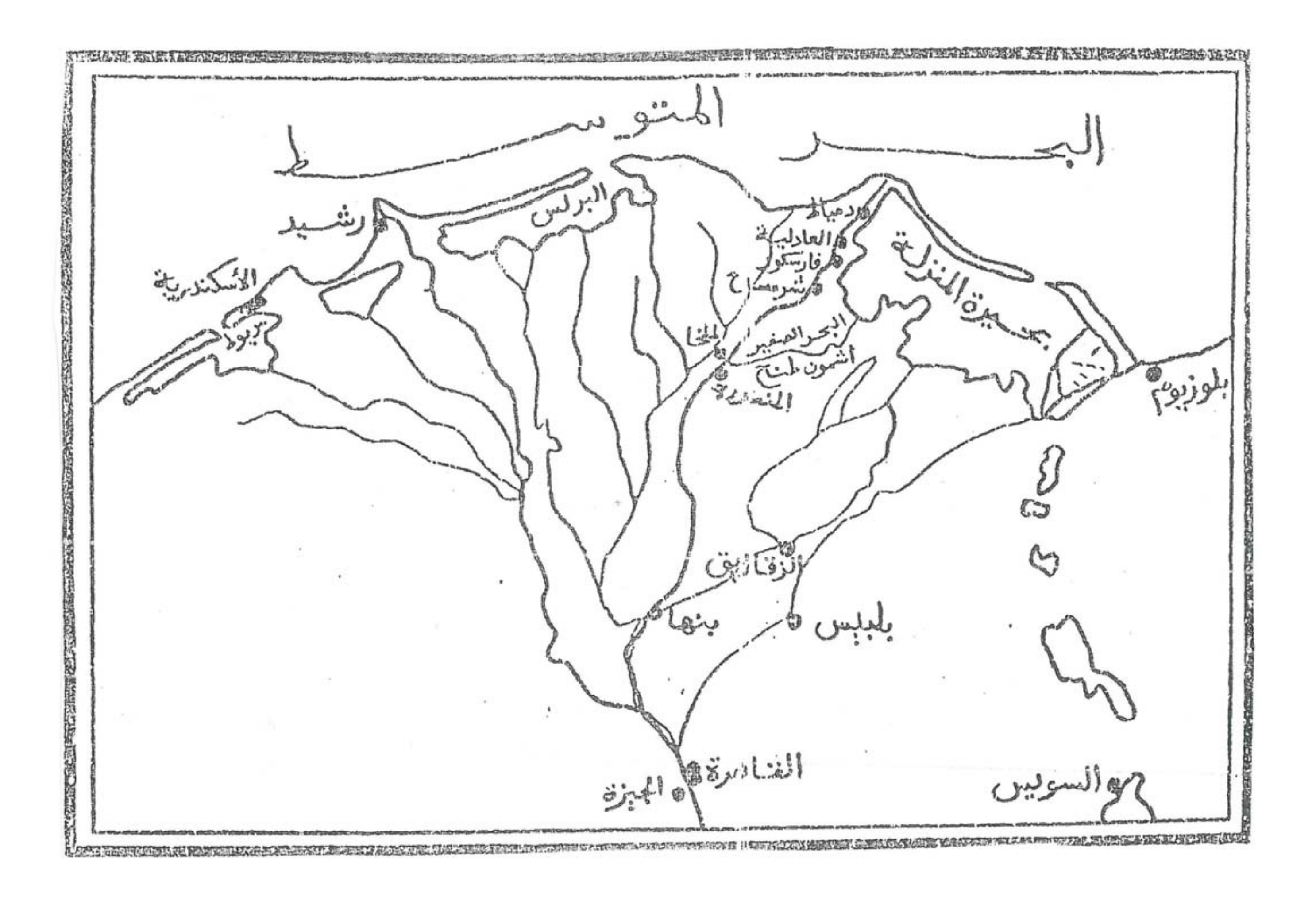
(2) المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس الحسيني العبيدي تقي الدين (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، طبعة أولى، بيروت، ١٩٩٧م، ج١، ص ٤٠٤.

(3) المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص ٤٤٥. ابن أياس، المصدر السابق، ج١، ق١، ص ٢٧٩.

(4) منية أبي عبد الله، قرية لا تزال موجودة على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط وهي تعرف باسم بيت الخولي عبد الله إحدى قرى مركز فارسكور بمدينة الدقهلية. ابن تغري بردي، يوسف بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن جمال الدين (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ج٦، ص ٣٦٥.

(5) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج٦، ص ٣٦٣.

خارطة توضح مسار الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع[1]



(1) العبادي، أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، دون تاريخ، ص ٣١١.

هزم الصليبيون في موقعة المنصورة التي أخذت تتطور أحداثها سريعاً عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، ذلك أن الجيش الأيوبي كان قد استغل فرصة محاصرة الصليبيين في زحفهم من دمياط إلى المنصورة وأخذ يعمل على تنظيم صفوفه واستعادة قواه، وتألفت القوة الأساسية في هذا الجيش من المماليك البحرية بقيادة ركن الدين بيبرس البندقداري الذي اقتحم المنصورة على رأس قواده ليقوم بحركة التفاف بارعة ضد لويس التاسع وجنوده، ولتظهر مواهب المماليك العسكرية في ميدان المعركة وعلو كعبهم في القتال والمواجهة[١].

شعر الصليبيون بضعف قواتهم بعد أن استمر المسلمون في مقاومتهم ومطاردتهم وأدرك الملك لويس التاسع أنه لم يعد يقوى على مواجهة المسلمين فانسحب بقواته إلى دمياط القاعدة الأساسية لجيشه التي انطلق منها ليجد نفسه بأنه ملاحق من قبل المماليك، إذ لم يتركوا الفرصة للصليبيين بالانسحاب إلى دمياط فتعقبوهم واستطاعوا أن ينزلوا بهم هزيمة منكرة عند فارسكور، حيث سقط ما يقارب إثنا عشر ألفاً من الصليبيين ما بين قتيل وأسير، وكان من بين الأسرى لويس التاسع نفسه الذي اقتيد إلى المنصورة حيث اعتقل في دار ابن لقمان[٢].

عاد توران شاه من حصن كيفا واستلم مقاليد الحكم من شجر الدر زوجة أبيه الذي كان يكن لها العداء، بعد أن كانت تدير السلطة بعد وفاة أبيه، كما أنه نقض عهده لأقطاي بعد أن وعده بإحدى الولايات عندما بشره بالسلطنة[٣]، وقد اتهم شجر الدر بتبديد ثروة أبيه ومنحها أقطاعات وأموال كثيرة إلى المماليك البحرية الذين أخذوا يناصبونه العداء وتوعدوا بقتله بعد أن شاهده بعضهم ذات ليلة وهو يضرب شموع المائدة بالسيف ويقول "هكذا أفعل بالبحرية"، ويسمى كل واحد منهم باسمه، علماً بأن المماليك لم يألفوا هذه المعاملة السيئة من أبيه، حتى أن شجر الدر كانت قد تآمرت هي الأخرى على قتل توران شاه فقالت لهم "إن قتلتوا توران شاه فعليّ رضاكم بالمال". وهكذا انتهى الأمر بقتل توران شاه حيث قال قبل موته "خذوا ملككم ودعوني أرجع حصن كيفا"[٤].

بعد القضاء على توران شاه وقع الخيار على شجر الدر لتولي السلطنة لعل هذا الخيار يضع حداً لمطالب الأمراء الأيوبيين في السلطنة في القاهرة، وقبل أن تدير شجر الدر السلطة على أنها

---

(1) فهيم، محمود نديم أحمد، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، أكاديمية ناصر العسكرية العليا، القاهرة ١٩٨٣، ص ١٤.

(2) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ق١، ص ٢٨١. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٤٦٢.

(3) المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص ٤٥٧. ابن أياس، المصدر نفسه، ج١، ق١، ص ٢٨٣.

(4) ابن أياس، المصدر نفسه، ج١، ق١، ص ٢٨٤.

زوجة الصالح أيوب وأم ولده خليل، حرصت على أن لا تلقب نفسها بلقب السلطانة وحسب، بل كذلك "شجر الدر عصمة الدين أم خليل الصالحية"[1].

وهكذا فإن قيام شجر الدر في السلطنة كان بمثابة البداية العملية والحقيقية لدولة المماليك لأنها كانت بحكم أصلها أقرب إلى المماليك منها إلى الأيوبيين، بحيث يمكن القول بأن دولة المماليك قامـت فعلياً سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، على يد امرأة ذكية أرمنية أو تركية الأصل[2].

رافقت تلك البداية لشجر الدر ثورة لأبناء البيت الأيوبي في كل مكان، وكانت أول عمل فكرت به السلطانة الجديدة هو بإنهاء ذيول الحملة الصليبية بإقرار مبادئ الاتفاقية التي سبق عقدها بين توران شاه ولويس التاسع، لذا عقدت شجر الدر معاهدة جديدة بدلاً من المعاهدة السابقة فلم يلبـث المفـاوض المصري حسام الدين أبو علي الهذباني[3] مندوب شجر الدر أن شرع في التفاوض مع الملـك لـويس التاسع على تسليم دمياط أو إخلاء سبيله ومن معه من كبار الأسرى لقاء فدية قدرها ثمانماية ألف دينار يدفع نصفهم قبل الرحيل ويدفع النصف الآخر بعد وصوله إلى عكا، إلا أن الاتفاقية كانت قد تغيـرت بعد مقتل توران شاه مقابل خمسماية ألف دينار على أن يسلم دمياط للمسلمين ويرحل عنها إلى عكا[4].

تم السماح للويس التاسع بالرحيل إلى عكا ومعه بقية جيشه عقب قيام الدولة الجديدة في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وحلف الأمراء للسلطانة الجديدة يمين الولاء والتبعية، فأصبحت الأمور كافـة في يدها وصدرت المراسيم والمنشورات بإسمها، وضربت السكة بإسمها أيضاً والتـي كـان اسـمها المستقر عليه "المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين"[5]. وهكذا فقد انتهت الحملة الصليبية السابعة التي رافقت أحداثها نهاية الدولة الأيوبية والفترة الممهدة لها لقيام دولة المماليك البحرية.

كان من الطبيعي أن يقف الملوك والأمراء الأيوبيين في بلاد الشام، موقف العداء للنظام الجديد في مصر. والواقع أن الأمراء الأيوبيين ظلوا يعتقدون أنهم أصحاب الحق الشرعي في حكـم مـصر وبلاد الشام، وشاركهم في ذلك بعض الأمراء المماليك في بلاد الشام، ومنهم المماليك القيمرية[6] فـي

---

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٤٥٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص ٣٧٣. ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ق١، ص ٢٨٦ و ٢٩٣.

(2) ابن أياس، المصدر نفسه، ج١، ق١، ص ٢٨٦ وص ٢٩٣. المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص ٤٥٩.

(3) ابن أياس، المصدر نفسه، ج١، ق١، ص ٢٨٦.

(4) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٦٨-٣٦٩.

(5) ابن أياس، المصدر السابق، ج١، ق١، ص ٢٨٩. المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ٤٥٩. ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج٦، ص ٣٧٤.

(6) القيمرية: نسبة إلى قيمرة، وهي قلعة بين الموصل وخلاط، وكان سكا ا زمن ياقوت الحمدي من الأكراد، ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ج٤، ص ٤٢٤.

دمشق حيث امتنع الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة بدمشق عن الاعتراف بسلطنة شجر الدر، وقد كان توران شاه هو الذي عينه في هذا المنصب وهو في طريقه من كيفا إلى مصر، فكتبوا إلى الملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب يعلمونه بموقفهم الرافض لحكم المماليك في مصر، ويستدعونه للقدوم إليهم ليسلموه دمشق[(1)].

اغتنم الناصر يوسف الفرصة للانتقام من المماليك الذين أيدوا عمه توران شاه واغتصبوا السلطة من سادتهم بني أيوب أصحابها الشرعيين، فزحف بجيوشه نحو دمشق بعد استجابته لدعوة المماليك القيمرية ودخلها دون قتال سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م[(2)].

انقسمت مصر والشام إلى قوتين متنازعتين الأولى بأيدي المماليك والثانية بأيدي الأيوبيين. كما أن الخليفة المستعصم بالله العباسي في بغداد لم يقر قيام امرأة في حكم المسلمين فأرسل إلى أهل مصر يعنفهم على اختيار امرأة تحكمهم وقال لهم عبارته المشهورة "إذا كان الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً"[(3)].

ولتجاوز تلك الأزمة في تولي امرأة حكم المسلمين فقد تم الاتفاق في القاهرة على أن تتزوج شجر الدر من أتابك العسكر عز الدين أيبك على أن يترك له وظيفة السلطنة، وقد أشرك معه فيها أميراً أيوبياً في السادسة من عمره وهو الأشرف موسى[(4)]، ورغم ذلك خشي المماليك على نظامهم الجديد من منافسة الأيوبيين واضطربت أوضاعهم وقرروا الخروج من القاهرة للتصدي للأيوبيين وإبعاد الملك الناصر يوسف عن دمشق إلا أنهم أحجموا عن ذلك عندما بلغهم انضمام كافة أمراء نيابات الشام إلى الصف الأيوبي واستعداد الناصر يوسف للزحف نحو مصر.

أقدم الناصر يوسف على التماس مساعدة الملك لويس التاسع في عكا ضد المماليك في مصر، ولما علم أيبك بذلك وخشي من حدوث تقارب بين الأيوبيين في بلاد الشام والفرنجة في عكا أرسل إنذاراً إلى الملك لويس التاسع بأنه سوف يقدم على قتل الأسرى لديه منذ أيام الحملة على دمياط، وأبدى في الوقت نفسه استعداده لتعديل معاهدة دمياط والتنازل له عن نصف الفدية المقررة مقابل عدم تحالفه مع الناصر يوسف، غير أن الملك لم يشأ أن يلتزم بشيء نحو أي من الطرفين. ولما يئس

---

(1) النويري: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، طبعة أولى، القاهرة، ٢٠٠٢م، ج٢٩، ص ٣٦٨.

(2) العيني: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥، ج١، ص ٣٣.

(3) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ق١، ص ٢٨٧. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٤٦٤.

(4) السبكي: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة ثانية، ١٩٩٢، ج١، ص ٣٤١. المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص ٤٧٥.

الناصر من استمالة الملك لويس التاسع، زحف بجيشه نحو مصر، ونسي زعماء المماليـك البحريـة خلافاتهم الداخلية وتكتلوا وراء أيبك لصد الزحف الأيوبي الذي هدد مستقبلهم جميعاً[(١)].

التقى الجيشان المملوكي والأيوبي سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م بأرض السانح قريباً من العباسية بين مدينتي بلبيس والصالحية في مصر، انتصر فيها الملك الناصر في بداية المعركة علـى الـرغم مـن استبسال المعز أيبك ومماليكه وصمودهم في القتال. إلا أن فرقة من جيش الناصر يوسف وهم المماليك العزيزية – نسبة إلى العزيز محمد والد الناصر يوسف -[(٢)]، تخلت عن مواقعها فـي غمـرة القتـال وانحازت بدافع العصبية المملوكية إلى الجيش المملوكي[(٣)]. فما كان من الناصر يوسف إلا أن تراجـع ولاذ بالفرار إلى بلاد الشام، في حين عاد المماليك ظافرين ومعهم الأسرى إلى القاهرة[(٤)].

استغل الملك لويس التاسع هذا الصراع فأخذ يراسل أيبك بأنه إن لم تتم تسوية الأسرى فسوف يتحالف مع الناصر يوسف، وقد نجح يوحنا فالنسيين مبعوث الملك لويس التاسع في إطـلاق سـراح الفرسان الذين وقعوا أسرى في غزة سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م وكان من بينهم مقدم الاسبتارية[(٥)]، ثم أفرج عن ثلاثة آلاف أسير ممن أسروا في سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م مقابل إطلاق سراح ثلاثة آلاف أسير مسلم وقعوا في أيدي الفرنجة.

أراد أيبك أن يوطد علاقته بالملك لويس التاسع وذلك لتفادي وقوع تحالف محتمل بين لـويس والملك الناصر الأيوبي، وقد جرت مفاوضات بين الطـرفين تمخـضت عـن عقـد معاهـدة سـنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م اتفق فيها الطرفان على أن يستولي أيبك على غزة والملك لويس التاسع علـى يافـا وأن يتم الاتصال بينهما ليقوم الجيشان المملوكي والفرنجي بهجوم مشترك على الإمارات الأيوبية. ولما علم الناصر بذلك قام بإرسال قوة من أربعة آلاف مقاتل عسكرت عند تل العجول قرب غزة وسيطرت عليها وارتدت إلى يافا لاستعادتها من يد الملك لويس التاسع[(٦)].

---

(1) قندولي: داود، الدور العسكري للقادة الخمسة الكبار من سلاطين دولة المماليك الأولى في مواجهة الفرنجة والمغول، أطروحة دكتوراه، جامعة بيروت العربية، بيروت ٢٠١١، ص ٢٨-٢٩.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٤٧٥.

(3) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج١، ص ٤٠.

(4) العيني، المصدر نفسه، ج١، ص ٤٢-٤٣.

(5) الاسبتارية إحدى الطوائف الدينية العسكرية التي أنشأها الفرنجة في الشرق اعتباراً من عام ١٠٧٠م، وكانت هذه الطائفة تدين مباشرة للبابا بالطاعة. وقد اتخذ الفرسان الاسبتارية شارة تميزهم عن سائر الطوائف بأن جعلوا صليباً أبيضاً على سترا م التي يرتدو ا فوق أرديتهم العسكرية، وقد ارتبط فرسان الاسبتارية بأعمال الخير، ليتحولوا فيما بعد إلى طائفة عسكرية من الفرسان. طقوش: محمد سهيل، تاريخ الحروب الصليبية، حروب الفرنجة في المشرق (٤٨٩-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م)، دار النفائس، بيروت، طبعة أولى، ٢٠١١، ص ٢٤٠-٢٤١.

(6) المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ٤٧٥. ابن تغري بردى، المصدر السابق، ج٧، ص ١٠.

وفي خضم الصراع المملوكي الأيوبي على السلطة، وفي ظل تسابق طرفي القتال للتحالف أو لكسب ود وصداقة المحتل الإفرنجي عدو الاثنين معاً، شاءت الظـروف أن تتعـرض فيهـا الـبلاد الإسلامية من شرقها إلى غربها للخطر الجديد والزاحف من الشرق ألا وهو خطر المغول، الأمر الذي فرض نفسه على جميع القوى الإسلامية في المنطقة وحتى الإفرنجية منها. وأمام هذا الواقع كان على النزاع المملوكي الأيوبي أن يتوقف في هذه الآونة وأن تتضافر الجهود سوية لمواجهة هذا الخطر الذي يسير بخطى واثقة ويمارس سياسة الأرض المحروقة لترويع من يواجهه خلال مسيرته التوسعية.

وعلى ضوء ما استجد من خطورة أصبحت تلوح في الأفق، فقد أرسل الأشرف موسى رسولاً من قبله إلى الملك الناصر يوسف صاحب دمشق يأمره فيه بمصالحة المعز أيبك وأن يتفقوا معاً علـى حرب التتار[١].

ولم تلبث أن تمخضت هذه الجهود إلى عقد معاهدة بين الطرفين سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م وتقرر الصلح بين الملك المعز أيبك وبين الملك الناصر صاحب دمشق بسفارة نجم الـدين البـادرائي. وتـم الاتفاق في هذه المعاهدة على أن يكون للمصريين إلى الأردن وللناصر ما وراء ذلك، وأن يدخل فيهـا للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله، وأن يطلق المعز جميع من أسره من أصـحاب الملـك الناصر يوسف، وحلف كل منهما على ذلك وكتبت به العهود وعاد الملك المعز وعسكره إلـى قلعـة الجبل[٢]. وبذلك يكون المماليك قد نجحوا في العقبة الأولى والأساسية التي اعترضت سـلطانهم فـي مصر.

بعد هذا الاتفاق عمل أيبك على تثبت قواعد حكمه في مصر لكن ليس بالنتيجـة التـي كـان يرجوها لأن عبث المماليك بالنظام والقانون لم يلبث أن أدى إلى إثارة الكراهية لحكمهم حيث اتخـذت هذه الكراهية ثورة جامحة قام بها العرب مطالبين أنهم أحق بالملك من المماليك، وقد كفى أننا خـدمنا بني أيوب وهم خوارج على البلاد. وقد رفض الأعراب أن يخضعوا لحكم المماليك الـذين هـم مـن الرقيق.

اعتمد أيبك على المماليك البحرية في مكافحة خطر الأيوبيين، ثم القـضاء علـى الأعـراب الأمراء الذين تضاعف نفوذهم في الدولة، بحيث أصبح من الصعب إخـضاعهم أو الاطمئنـان إلـى زعيمهم أقطاي، ولم يلبث المماليك البحرية أن تمادوا في التعنت حتى غدت القاهرة ومصر الوسـطى قليلة الأمان وينزل بالناس في البر بلاء لا يوصف ما بين قتل ونهب وسلب بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر ما ازدادوا من الفساد وما فعله البحرية[٣].

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج٢٨، ص ٣٦٩.
(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٤٧٩.
(3) المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص ٤٧١.

عمل السلطان أيبك في أول أمره إلى ملاطفة المماليك البحرية وزعيمهم أقطاي ريثما يأمن جانب الأيوبيين والأعراب، وبعد أن تخلص من هذين الأخيرين أخذ في التهديد للتخلص من أقطاي فدبر مقتله وقطع رأسه وألقاه من قلعة الجبل، فاجتمع زعماؤهم أي المماليك البحرية بيبرس البندقداري وقلاوون الألفي وسنقر الأشقر وغيرهم[1]، وقرروا الفرار إلى بلاد الشام حيث حرضوا من جديد الناصر يوسف وغيره من أمراء بني أيوب على مهاجمة مصر وقد ظل أيبك متأهباً ثلاث سنوات يترصدهم لصد أي محاولة هجوم مفاجئ من الشام على أطراف دولته في فلسطين ومصر، كما عاد مرة أخرى إلى التلويح بالتبعية للخلافة العباسية، ومن ثم جدد الهدنة القديمة مع الصليبيين وعقد تحالفاً إزدواجياً مع بدر الدين لؤلؤ أمير حلب على أن يتزوج أيبك من ابنة الأمير، ولكن مشروع هذا الزواج سرعان ما أثار شعور الغيرة لدى شجر الدر التي ساءها جحود أيبك بعد أن تنازلت له عن السلطنة وساعدته في الوصول إليها، فلم تتردد في تدبير مقتله (٦٥٥هـ/١٢٥٧م)[2] ولتلحق به أيضاً بعد ثلاثة أيام من افتضاح أمر جريمتها بحقه.

أحدث مقتلهما فراغاً كبيراً في منصب السلطنة داخل البلاد، الأمر الذي يؤدي إلى أزمة في تولي الحكم خاصة وأن الأوضاع بين المماليك والأيوبيين لم تكن على ما يرام بالإضافة إلى أن العوامل والأخطار الخارجية المحدقة بالمنطقة كانت تنذر بضرورة اتخاذ إجراءات سريعة لحسم مسألة السلطة والوقوف على الخطر القادم من الشرق، فالمماليك لم يتغير نظامهم مطلقاً إلى المبدأ الوراثي في الحكم لأن السيادة في عرفهم يجب أن تكون للأقوى ولكن كانوا يلجأون غالباً عقب وفاة السلطان أو مقتله إلى اختيار ابنه محله مؤقتاً حتى يتم الاتفاق بين كبار الأمراء على من يلي السلطنة، وعندئذ يسهل إقالة الابن والتخلص منه بالنفي أو العزل[3].

وهكذا تولى المنصور نور الدين علي بن أيبك منصب السلطنة وهو في الخامسة عشر من عمره في حين عين الأمير سيف الدين قطز أقدم مماليك والده نائباً له، وتطورت الأحداث الخارجية تطوراً خطيراً بسبب تهديد المغول لقلب العالم الإسلامي، مما عجل بوضع نهاية لعهد المنصور علي بن أيبك وقيام نائبه قطز في منصب السلطنة مما يؤكد على مبدأ العصبية[4] عند المماليك والسلطنة

---

(1) المقريزي: المواعظ بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، طبعة أولى، بيروت ١٩٩٧، ج٢، ص ٢٤٥. ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ق١، ص ٢٩١. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٤٨٣.

(2) ابن أياس، المصدر نفسه، ج١، ق١، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(3) الشيال، جمال الدين، تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، الإسكندرية ١٩٦٧م، ج٢، ص ١٥٨-١٥٩.

(4) ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون بن محمد أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ١٩٨٤م، ج١، ص ١٧٤.

للأقوى، وأن دولتهم دولة عسكرية بنيت أساساً على الحروب، وبذلك قامت دولة سـلاطين المماليـك البحرية وإن كانت هذه الدولة لا يمكن أن تقوم إلا بتولي أيبك نفسه(١).

بقيام دولة المماليك شاءت الأقدار أن يتعرض الشرق الإسلامي في القرن الـسابع الهجـري/ الثالث عشر الميلادي لزحف الجيوش المغولية التي اندفعت نحوه من شمالي أسيا كالسيل الجارف إلى البلاد الإسلامية هادفين إلى الكسب المادي مما كانوا يعانونه من فقر في مـوطنهم الأول. ولـم يكـن المغول إلا مجموعة من القبائل الرحل نشأت في الهضبة المعروفة باسم منغوليا شمالي صحراء جوبي، وقد نبغ من بينهم شخص يدعى تيموجين الذي كان قد تسلم الحكم سنة ٥٧٢هــ/١١٧٦م. واسـتطاع بذكائه أن يوحد أهالي أقاليم أسيا الشرقية شمالي بلاد الصين، تحت لوائه ويتربع على العرش بعـد أن اختارته القبائل المغولية إمبراطوراً عليها، وبعد أن تم له ذلك اتخذ اسم جنكيز خان أي فـاتح العـالم، واتخذ مدينة قراقورم عاصمة لملكه(٢).

بعد أن تربع جنكيز خان على عرش المغول وضع نصب عينيه التوسع فـي الجنـوب علـى حساب الصين الشمالية، وفعلاً فقد هزم "واي وانج" إمبراطور الصين واستولى على عاصمته بكين سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م(٣)، ثم كر على أعدائه في الغرب فقهر "كشلو خان" زعيم الخطى وكانت أملاكه تقع في إقليم ما وراء النهر على حدود البلاد الإسلامية، واستولى على بلاده حتى أصبحت مملكته الواسعة تجاور أملاك الدولة الخوارزمية(٤).

وكانت حادثة القافلة التي أرسلها جنكيز خان إلى غربي أسيا للإتجار في الأسواق الخوارزمية، ولما وصلت القافلة إلى مدينة "اوترار"،وهي ضمن أملاك الدولة الخوارزمية، أجهز "ينال خان" حـاكم المدينة عليها وقتل جميع أفرادها وسلب البضاعة(٥).

لم يكن في وسع جنكيز خان أن يتجاهل هذه الحادثة، فطلب من السلطان "خوارزمشاه" تسليمه حاكم أوترار، لكن السلطان رفض طلبه، فجهز جنكيز خان جيشا جراراً بلغ مائتي ألف مقاتـل لغـزو الدولة الخوارزمية، وسيطر خلال أقل من عام على إقليم ما وراء النهر بين نهر جيحون في الجنـوب

(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ٢٠.

(2) الجويني، علاء الدين عطا ملك بن اء الدين محمد (المتوفى نحو ٦٨٣هـ/١٢٨٤م): تاريخ فاتح العالم، نقله إلى العربية محمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر، حلب ١٩٨٥م، ج١، ص ٧١.

(3) حمود: سوزي، الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠١٠م، ص ٨٥.

(4) إقليم خوارزم يقع في ا رى الأسفل لنهر جيحون، ويكون دلتا خصبة، ومن أجل ذلك كان لهذا الإقليم أهميته منذ القدم في تطور المدينة والحضارة في أسيا الوسطى، حمدي: حافظ، الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٩م، ص ١١٤.

(5) النسوي، محمد بن أحمد بن علي بن محمد شهاب الدين المنشئ (ت٦٤٧هـ/١٢٤٩م)، سيرة جلال الدين منكبرتي، تحقيق حافظ حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ٨٥. الجويني، تاريخ قاهر العالم، ج١، ص ٩٨.

ونهر سيحون في الشمال سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، وهرب خوارزمشاه أثناء ذلك إلى خراسـان تاركـاً بلاده لقمة سائغة في فم المغول الذين سيطروا على العاصمة خوارزم سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م[1].

ويعتبر سقوط خوارزم من أشهر ما وقع من معارك بين المسلمين والمغول في ذلـك الوقـت، ولما دخل المغول العاصمة قتلوا جميع سكانها باستثناء الصناع وأصحاب الحرف حيث نقلـوهم إلـى بلادهم، كما سبوا النساء والأطفال، ونهبوا محتويات المدينة، ثم أغرقوها بعد أن حطموا الـسد الـذي يمنع ماء جيحون عنها.

توفي جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ ـ/١٢٢٧م، قبـل أن يـتم مـشروعه[2]، وظلـت أوضـاع الإمبراطورية مضطربة، وغير مستقرة بعد وفاته إلى أن انتخب ابنه "أوكتـاي" خانـاً أعظـم سـنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، فأخذ على عاتقه إتمام ما بدأه والده في التوسع نحو الغرب لإخضاع ما تبقـى مـن العالم الإسلامي. وتقدم المغول إلى أذربيجان واستولوا على مراغة وتبريز عاصمة الإقليم، ثم أجهزوا على المدن الواحدة تلو الأخرى. كما استولوا على ديار بكر، ودخلوا إربل وخربوها، ومنذ سنة ٦٢٩-٦٣٩هـ/١٢٣١-١٢٤١م، سيطروا على أذربيجان وآران وحاني وقارس[3] وما حدث مـن ظهـور المغول في أعالي الفرات آثار الذعر والخوف في بلاد الشام، وصار من المتوقع إقدامهم علـى غـزو العراق وإقليم الجزيرة وأسيا الصغرى توطئة للزحف نحو بلاد الشام ومصر.

(1) الجويني، المصدر نفسه، ج١، ص ١٣١-١٣٥.

(2) حمدي، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٦٢.

(3) الباز العريني، السيد الباز، المغول، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٦م، ص ١٨٥.

الفصل الأول

العناصر المكونة للجيش المملوكي

مقدمة

المبحث الأول: الترك

١- المماليك القرانصة

٢- المماليك الجلبان

٣- المماليك السلطانية

٤- أجناد الحلقة

المبحث الثاني: الشراكسة

المبحث الثالث: الأكراد

المبحث الرابع: المغول

المبحث الخامس: العرب

١- العربان

٢- فئة المواطنون

٣- علماء الدين

أ- الحث على الجهاد

ب- التوعية والتوجيه المعنوي

ج- دور المشايخ في بث روح الجهاد

استنتاجات

الفصل الأول
العناصر المكونة للجيش المملوكي

مقدمة:

كان الجيش المملوكي خليطاً من أقوام وأجناس مختلفـة، أتـراك وشراكـسة وأكـراد وروم وعرب[(١)]. في حين أن الجيش المغولي كانت تركيبته البشرية من حيث الفئـات المغوليـة والتركيـة والأرمنية أقل بكثير من خليط الجيش المملوكي[(٢)]، مما يعني أنه أكثر تماسكاً والتحاماً.

ركز الجيش المملوكي على العقيدة الإسلامية، وقد اعتنى بتربية العـسكري المملـوكي منـذ صغره، تربية إسلامية وعسكرية[(٣)]، مكنته فيما بعد من أن يدخل المعارك بكل شجاعة وإقـدام ودون خوف بحيث أنه يلقي بنفسه في أتون المعارك حباً للموت، فإن قتل فهو من الشهداء وإن عاش فهو من السعداء[(٤)]، بالإضافة إلى ذلك فقد اعتنى هذا الجيش أيضاً بالناحيـة الحربيـة والتـدريبات المتعـددة والمختلفة.

تعاقب على الحكم المملوكي فئتان كبيرتان، هما المماليك البحرية، وأغلبها من الأتراك وحدثت خلال حكمها أهم المعارك العسكرية ضد المغول والصليبيين. أما المماليـك البرجيـة وأغلبهـا مـن الشراكسة فقد حدثت في عهدها هزيمة المماليك في مرج دابق أولاً والريدانية ثانية ليختتم فـي هـاتين المعركتين نهاية حكم المماليك.

---

(1) القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق ١٩٨٧، ج٤، ص ٤٧٢. زكي: عبد الرحمن، الجيش المصري الإسلامي من عين جالوت إلى رشيد، مطبعة الكيلاني، ١٩٧٠، ص ١١.

(2) ابن الصقاعي: فضل الله ابن أبي الفخر (ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، تالي كتاب وفيات الأعيان، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٧٠، ص ٨٥. العريني، المغول، ص ٢٥٩.

(3) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الأشبيلي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧١م، ج٥، ص ٣٧١.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٩، ص ٧٥.

المبحث الأول: الترك:

جاؤوا من بلاد القبجاق[1] واختلطوا مع المغول حين احتلوا بلادهم، وخضعوا لهم، وقد اشترى الأيوبيون هذه الفئة وأدخلوها في تعداد جيشهم ثم ما لبث هؤلاء الترك فيما بعد أن شكلوا دولـة قويـة عرفت باسمهم وبذلك استلم المماليك الحكم والجيش فكان أول السلاطين أيبك التركماني، ومـن بعـده سيف الدين قطز وبيبرس البندقداري اللذان قادا أشرس المعارك.

سكن الترك سهوب تركستان في ما وراء جيحون لهم لغتهم الخاصة، بشرتهم بيضاء لهم عيون زرقاء، ووجوههم مدورة وذات قامة طويلة[2] وهمة عالية، وشجاعة نادرة وإيمـان قـوي وفروسـية تدربوا عليها، وأتقنوا خصائصها وشروطها، فكانوا في الرمي حاذقين، وفي ركوب الخيـل نـشيطين، وفي المناورة أصحاب خفة وحركة، وفي فنون القتال مهرة[3]. لقد اتخذوا القتال ديناً لهم، واستوى فيهم من انضم إليهم من الأقوام الأخرى كالشركسي والرومي والكردي مع اختلاف أنـسابهم وبلـدانهم[4]، ولهم صبر على الحروب والثبات في القتال، وقوة احتمال على الجوع والعطش والبرد[5]، واشـتهروا كذلك بالود واللين والوفاء مع القسوة والشدة[6].

لقد انتشر الترك وتفرقوا إلى عدة قبائل منهم التتر ومنهم المغول، ومنهم الـذين نـسبوا إلـى اوغوزخان، وقد تشابهت في بعض الأحيان لغتهم واتفقت أحياناً أخرى عقائدهم[7]. وقد انقـسم التـرك طبقاً لوظائفهم ودخولهم في الخدمة وسنهم وانتمائهم إلى الفئات التالية:

---

(1) القبجاق أو القفجاق أو القبشاق، إقليم في حوض نهر الفولغا في الجنوب الشرقي من بلاد روسيا السابقة، وشمال البحر الأسود والقوقاز، وسكانها من أصل تركي اشتهروا بالبداوة والفروسية، وتعتبر بلادهم مركزاً مهماً لتجارة الرقيق الأبيض من الترك، طقوش: محمد سهيل، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٧م، ص ٢١.

(2) Lane – Poole: A History of Egypt in the Middle Ages; frank gass company Ltd. Fourth edition, 1968, Vol 9, P. 262-263.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٥٦. لوبون: غوستاف، حضارة العرب، نقله إلى العربية عماد زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٤، ١٩٦٤، ص ٢١٧.

(4) الباز العريني، المماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٧، ص ٢٤٦.

(5) الباز العريني، المرجع نفسه، ص ٢٤٦-٢٤٧.

(6) شيخ الربوة، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري المعروف بشيخ الربوة (٧٢٧هـ/١٣٢٧م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية بمدينة بطرسبورغ ، ١٨٦٥، ص ٢٧١. العريني، المماليك، ص ٢٤٧-٢٤٨.

(7) العزاوي: عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، مطبعة بغداد، ١٩٣٥، ج١، ص ٦٨-٦٩.

١- المماليك القرانصة[١]**:**

هم الذين دخلوا في خدمة السلطان، وسبقوا غيرهم من المماليك، وهم المقربون إلى الديوان الشريف. وكانوا يتباهون على غيرهم بأنهم أقدم المماليك هجرة وانتساباً إلى الدولة والجيش، وهم المرشحون للإمارة والذين يعاملون بمنزلة أمراء الخمسوات[٢]. وكان لهم دور كبير في معركة عين جالوت، وكانت الأكثرية منهم في بدء تأسيس الجيش وتطويره. وقد كان لهم من الشدة والعزم في القتال، ولكنهم فيما بعد وفي المعارك التي تلت تراخوا عن مهمتهم الأساسية واشتغلوا بالفتن والدسائس في إشارة إلى القلاقل والشغب، حتى أن بعض المؤرخين يعزون انهزام الدولة المملوكية في أواخر حياتها إلى "انقراضهم" بخاصة في معركة – مرج دابق[٣].

كان هؤلاء المماليك القرانصة يتقاضون مكافآت ورواتب نقدية عند خروجهم بحملة خارج البلاد وذلك لاسترضائهم، ودفعهم أن يقاتلوا مع الفئات الأخرى، فلم يقاتلوا عن حب للأرض والوطن الذين هم بالأصل ليسوا من أهله أو دفاعاً عن عقيدة كانوا قد اكتسبوها عقب شرائهم واستخدامهم، إنما كانت المصالح الشخصية والمنفعة الذاتية هي التي تدفعهم للقتال[٤] إلا أنهم ظلوا أوفياء أكثر من غيرهم، وأقدر على القتال والمجابهة.

٢- المماليك الجلبان[٥]**:**

هم الذين جاؤوا إلى البلاد وهم كبار السن عن طريق الشراء كغيرهم من المماليك[٦]، ثم دخلوا الجيش وهم على عاداتهم القديمة التي ألفوها من قبل وكان من الصعوبة أن يتربوا تربية المماليك الصغار. فلم يتقنوا التدريب العسكري، ولم يؤسسوا على تربية عقائدية، فنشأت فيهم الفوضى وانتشر

(1) مصطلح أطلق في العهد المملوكي للدلالة على المماليك القدامى الذين بقوا في خدمة السلطان الحاكم، ويقابلهم المماليك الجلبان الذين تم شراؤهم في عهد السلطان الحاكم. حلاق: حسان وعباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٩م، ص ٢١١.

(2) الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت٨٧٣هـ/١٤٦٨م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى به وصححه بولس راويستا، طبع بمدينة باريس بالمطبعة الجمهورية، ١٨٩٤، ص ١١٥.
زكي، الجيش المصري الإسلامي من عين جالوت إلى رشيد، ص ١١.

(3) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققه وكتب له المقدمة والفهارس محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، مصر، ١٩٨٢، ج٣، ص ٢٦٠ و٢٧٨ و٢٨٠.

(4) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣، ص ٢١٩ و٢٢٠ و٢٣٦.

(5) مصطلح أطلق في العهد المملوكي للدلالة على المماليك الذين يشتريهم السلطان في عهده. حلاق، المرجع السابق، ص ٢١١.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٢، ص ١٨٧.
المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٣٠٦.

الفساد، وسرت فيهم العادات السيئة وكثر السلب والنهب. وظلم الناس وتفشى رفض الأوامر تجاه الرؤساء واختل الانضباط[1].

إن مثل هذه العادات والصفات تؤدي إلى تفكك الجيش وانعدام التعاون والتقاعس في القتال، والاستهتار بالمهمات القتالية والابتعاد عن المسؤولية والتأثير السيئ على غيرهم من فئات الجيش، فقد توصلوا إلى فرض رأيهم على قادتهم إذ تراهم بعد الانتصار في معركة ما يضغطون على السلطان لكي يصرف لهم مبالغ كبيرة من المال لقاء انتصاراتهم، فإن لم يفعل ذلك قاموا بقتل قاداتهم وزملائهم من الفئات الأخرى من المماليك[٢].

لقاء هذه الضغوط كان السلطان يضطر أن يستجيب لطلباتهم ويمنحهم ما يريدون، وفي بعض الأحيان كانت الضغوط ترغمه على خلع نفسه، كما كانوا يتجاوزون حدودهم فيعتدون على قاداتهم، ويحاصرون رؤسائهم في مقر عملهم وفي بيوتهم وينهبون دورهم بعد مقتلهم أو بعد هروبهم[٣].

تزايد عدد المماليك الجلبان في الدولة المملوكية وسيطروا على فئات المماليك الأخرى، وقد زاد فسادهم وكانوا مصدر قلق للدولة[٤]. وهؤلاء كانوا من مختلف الجنسيات، وقد حاربهم الملك الأشرف وقضى على أكثرهم لما لمسه منهم من تخريب وفوضى فتفرقوا، فمنهم من دخل في المماليك السلطانية، ومنهم من دخل في مماليك الأمراء. وقد أكثر من استخدامهم الأمير يلبغا العمري، وقد أثاروا الخلافات وعمقوها وتمكنوا من الدولة وكانوا فيما بعد سبباً في انهيارها[5]. وهناك عسكر من الطبقة الخامسة وهم قسم من مماليك الجلبان وكانوا دون المماليك من بني جنسهم، إذ كان يفرض عليهم الأتاوات وقسم من أموالهم ورواتبهم تذهب لصالح الجلبان[٦].

---

(1) ابن أياس، المصدر السابق، ج٣، ص ٣٦٣. المقريزي، المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٠٦.

(2) ابن أياس، المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٦١.

(3) القرماني: أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت١٠١٩هـ/١٦١٠م)، أخبار الدول وآثار الأول، مطبعة دار السداد، بغداد، ١٨٦٥م، ص ٢١. ابن أياس، المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٢٣ و٣٦٣ و٣٧٢.

Lane – Poole, Suppl, Vol 11, P. 329.

(4) ابن أياس، المصدر السابق، ج٥، ص ٣١.

(5) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٥، ص ١٧.

(6) الإسحاقي: محمد عبد المعطي أبي الفتح عبد الغني ابن علي (١٠٣٢هـ/١٦٢٢م)، أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، المطبعة الأزهرية المصرية، مصر، ١٨٩٣م، ص ١٤٤. ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٤، ص ٣٦٩.

٣- المماليك السلطانية[1]:

هم الفئة الخاصة بالسلطان التي كانت قد جلبت إلى البلاد عن طريق الشراء، ولها مقـام هـام عند السلطان، ثم انقسمت هذه الفئة إلى أقسام عديدة منذ أيام الـسلطان برسـباي منهـا، الطاهريـة، الناصرية، الحاكمية، الأشرفية، نسبة إلى الذي تنتسب إليه هذه الأقسام والفروع[٢]، ولكل قسم تنظيمـه الذي يختلف عن الآخر، وتبلغ ذروة سيطرتها وعزها في أيام السلطان الذي قرب إليه هذه الفئة. أمـا بعد موته أما أن تحافظ تلك الفئة على كيانها أو تنضم إلى فئة أخرى لسلطان آخـر. ولكنـه وعلـى الأغلب تبقى هذه الفئات من المماليك متكتلة ومجتمعة يرقى إليها الشك من قبل السلطان الصاعد[٣].

لقد اختلفت أعداد المماليك السلطانية من زمن إلى زمن ومن سلطان إلى سلطان. ففـي أيـام السلطان الظاهر بيبرس البندقداري بلغ عددهم (١٦,٠٠٠) وفي عهـد الناصـر قـلاوون (١٢,٠٠٠) مملوك، وفي ولاية الملك الأشرف خليل بن قلاوون (٤,٠٠٠) [٤]. وقد أصابهم ما أصاب غيرهم فيمـا بعد من الضعف والانحلال والفساد والفوضى.

بالرغم من أن المماليك السلطانية كانوا فرقة واحدة إلا أنها كانت مؤلفة من عدة فئـات هـي: الخاصكية والمشتروات والسيفية والقرانيص.

فالخاصكية وهم المماليك الذين كانوا يلازمون السلطان فـي خلواتـه، ويقومـون بالمهمـات الشريفة. أما المشتروات فهم المماليك المنسبون إلى السلطان المستقر. والسيفية كانوا علـى نـوعين: مماليك منسوبون إلى السلاطين السابقين وسيفية منسوبون إلى الأمراء وقد نقلوا إلى الديوان الشريف[5].

والمماليك السلطانية كما هو واضح من هذا التقسيم، فرق غير متجانـسة متعـددة الأصـول والانتماءات أهدافها متباينة. فترتيبها من حيث علاقتها بالسلطان هرمـي. فالخاصـكية أقـربهم إلـى السلطان، يليهم المشتروات أو الأجلاب، ثم القرانيص الذين غالباً ما نكل بهم السلاطين، ثم السيفية التي عاشت من دون أمل أو هدف.

---

(1) مصطلح أطلق في العهد المملوكي للدلالة على أعظم الأجناد وأرفعهم شأناً وأرفعهم قدراً وأوفرهم إقطاعاً، ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة، وهم المماليك الذين يشتريهم السلطان، أو من يبقيهم من مماليك السلاطين السابقين، حلاق، المرجع السابق، ص ٢١١.

(2) ابن أياس، المصدر نفسه، ج٤، ص ٣٦٩-٣٧٠.

(3) Gaudefroy – Demombyne: La Syrie à l'epoque des mamlouks, librairie orientaliste, Paris, 1923. Vol 3, P. 32.

(4) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١١٦. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١، ص ١٧٨.

(5) الظاهري، المصدر نفسه، ص ١١٥-١١٦.

هذا التباين في تشكيل المماليك السلطانية، فرض على كل سلطان جديد استقدام جماعة من المماليك الصغار والعمل على تربيتهم(١).

٤- أجناد الحلقة(٢):

هم الذين كانوا ينتمون إلى فئات وطبقات مختلفة من المماليك وغير المماليك، وهم السواد الأعظم، والأغلبية في الجيش بحيث أنها تشكل العمود الفقري فيه. وهم الذين كانوا يشكلون تنظيمات القوات من زمرة إلى لواء، ومن أمير خمسة إلى أمير مئة ومقدم ألف. وكل فئة لهم رأس باش(٣). ثم ازداد عدد أجناد الحلقة بمن انضم إلى الجيش المملوكي من التتار والوافدية(٤). واعتبر أيضاً من أجناد الحلقة بعض أرباب الحرف والصنائع على أثر تدهور النظام الإقطاعي المملوكي الذي انعكس سلباً على الجيش حيث عمل الكثير من أفرده إلى بيع إقطاعاتهم إلى أهالي البلاد ويلتحقوا بأجناد الحلقة، وكذلك مماليك الأمراء الذين انحلت إقطاعات أساتذتهم، ومثال على ذلك مماليك الأمير بكتاش الفخري أضيفوا إلى الحلقة بعد انقطاع خبزه أي إقطاع أستاذهم. واعتبر أيضاً من أجناد الحلقة العربان والأكراد والتركمان بحيث تركز عملهم في حماية أطراف الدولة والاشتراك بفرسانهم في الحرب عندما كانت تدعو الحاجة إلى ذلك(٥).

وقد اتضح أن أجناد الحلقة تألفوا من بعض السيفية والقرانيص وأولاد السلاطين بالإضافة إلى العرب والأكراد والتركمان، وكانوا يأتمرون بأمر السلطان القائم دون أن يكونوا ملكاً له(٦). وكانوا يقسمون من حيث العمل الذي يؤدونه إلى أربعة أقسام: البحرية وهم حرس السلطان في القلعة، وكانوا

---

(1) ضومط، أنطوان: الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري)، دار الحداثة، طبعة أولى، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٣.

(2) مصطلح كان شائعاً في عهد المماليك يدل على قوة الجيش المملوكي، وهم ممن احترف الجندية من مماليك السلاطين السابقين، ويرأس الأربعين منهم مقدم يقودهم إذا خرجوا للسفر أو الحرب، ويحصلون على مرتبا م من ديوان الجيش. حلاق، معجم الجامع، ص ١٥.

(3) باش: أي رئيس أو قائد أو زعيم تضاف للأسماء فتغير الرئاسة والقيادة مثل: أوزباشي = (رئيس عشره)، أوزباشي = (رئيس مئة) بين باشي = (رئيس ألف) وهي مصطلح أطلق في العهد العثماني على رئيس الجنود في الفرقة العسكرية شرط أن يكون أكبر أفراد الفرقة سناً. حلاق، المعجم الجامع، ص ٣٣.

(4) الوافدية: لما كثرت وقائع التتار في بلاد المشرق والشمال وبلاد القبجاق وأسروا كثيراً منهم وباعوهم، تنقلوا في الأقطار، وقد اشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية، ومنهم من ملك ديار مصر، وأولهم المعز أيبك، ثم كان لقطز معهم الواقعة المشهورة على عين جالوت، وهزم التتار وأسر منهم خلقاً كثيراً، وصاروا بمصر والشام، ثم كثرت الوافدية في أيام الملك الظاهر بيبرس وملؤوا مصر والشام. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٣٨٥.

(5) العريني، المماليك، ص ١٦١.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٦. بولياك، أ.ن: الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، نقله إلى العربية عاطف كرم، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، مطابع نصار، بيروت، ١٩٤٩، ص ١٧.

ينامون في الدهاليز المحيطة في القلعة. والشريفية هم الذين يرسلهم السلطان في سفارته[١]. ومماليك الغيبة الذين كان يعينهم السلطان في مراكز محددة إبان غيابه، والباقي فرق تخدم في بيوت الأمراء[٢].

نظمت أجناد الحلقة في الحرب والسلم، إذ جعل على كل أربعين جندي منهم مقدم، وهذا المقدم لم يكن له أية سلطة عليهم إلا إبان الحرب، وعندما كان يدعى أجناد الحلقة إلى الحرب كان ينضوي كل ألف منهم تحت أمرة أمير مئة[٣]. وكان لكل مابة جندي منهم أيام السلم نقيب أو باش يأتمرون بأمره[٤].

أما أعداد أجناد الحلقة في الجيش المملوكي قد بلغت في مصر (٢٤,٠٠٠) ألفاً، وفي الشام (٢٦,٠٠٠) جندي[٥]، إلا أن هذه الأعداد لم تكن ثابتة وذلك تبعاً للظروف الاقتصادية والسياسية في الدولة[٦].

المبحث الثاني: الشراكسة:

تعود أصولهم إلى بلاد القوقاس[٧]، وهي بلاد جبلية شاهقة الارتفاع تطل على البحار الدافئة كالأسود والبلطيق والخزر[٨]. تقع إلى شمالها الأراضي الروسية وإلى جنوبها الأراضي التركية، تميز سكانها بالقسوة التي طبعتهم فيها قسوة الطبيعة الباردة. أتى الشراكسة إلى مصر عن طريق الرق كغيرهم من المماليك، وقد امتازوا ببشرتهم البيضاء وقامتهم الممشوقة وعيونهم الزرقاء وشعورهم الشقراء، فكان يدرب الشركسي على ركوب الخيل منذ صغره ويلعب التمارين المجهدة، ويصطاد الحيوانات الوحشية، لا يولي دبره في القتال أبداً، يبقى يقاتل حتى يقتل أو ينتصر، والعار كل العار أن يهرب أو أن يستسلم أو يتهاون في القتال[٩]،، يحب الموت ويبذل روحه، ولا يحسب للعدو حساباً، فهذا

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٦.

(2) ضومط، الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري)، ص ٥٨.

(3) القلقشندي، المصدر السابق، ج٤، ص ١٦. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٣٧٦.

(4) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٥، ص ٤٢٨. بولياك، الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ص ١٩.

(5) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١١٦. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص ١٧٨. زكي، الجيش المصري الإسلامي من عين جالوت إلى رشيد، ص ١١.

(6) بولياك، المرجع السابق، ص ٢٨.

(7) القوقاس: أو القوقاز أو القفقاز، تقع في القارة الآسيوية عند الحدود بين كل من قارتي آسيا وأوروبا وهي بلاد جبلية مرتفعة. الصلابي، علي محمد محمد، المغول (التتار) بين الانتشار والانكسار، الأندلس الجديدة، مصر، طبعة أولى، ٢٠٠٩م، ج١، ص ٤٠٠.

(8) طرخان: إبراهيم علي، مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، مصر، ١٩٦٠، ص ٨.

(9) المفتي: شوكت، أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاس، مكتبة الأندلس، القدس، طبعة أولى، ١٩٦٢، ص ١٢-١٣ وص ١٥ و٧١.

أرسلان بك أمير صاخة ينادي بأعلى صوته عندما أقدم على القتال "يا إلهي أعرف بـأنني عـاجلاً أم آجلاً سوف أموت"[١].

المبحث الثالث: الأكراد:

هم الذين استعان بهم الناصر صلاح الدين الأيوبي في حروبه مع الصليبيين واشترك بقايـاهم في معركة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) أيضاً، كما استعان بهم بيبرس البندقداري ضد الفئـة الأيوبية، وكانت مساكنهم في البلاد الساحلية من فلسطين وبخاصة يافا، كما يوجد من التركمان أيـضاً طوائف عديدة في الجيش المملوكي، منها البازاتية والأراكية وغيرها[٢].

المبحث الرابع: المغول:

هاجروا من بلادهم التي أصبحت مسرحاً للعمليات ومرتعاً للجنود، والمغول أنفـسهم دخلـوا الجيش المملوكي[٣]. وقد كان عددهم ضئيل في معركة عين جالوت، ثم ازداد حجمهم فيمـا بعـد، إذ انضم إلى جيش الملك الظاهر بيبرس ثلاث آلاف فارس حاربوا في صفوفه، وتولوا وظـائف قياديـة وإدارية، فمنهم من تولى السقاية، ومنهم من تولى طبلخاناه[٤]، ومنهم من تـولى أميـر عـشرة إلـى عشرين، ومنهم من تولى الإمارة، ومنهم من استلم السلحدارية[5] والجمدارية[٦]. ثم انضم مائة وثلاثـة عشر فارساً، وعشرة آلاف ما بين رجل وامرأة[٧]، وأسلم كثير منهم حتى أن الملك قازان دخل الإسلام وكان لإسلامه شيء من القوة أضيف إلى الجيش المملوكي[٨]. وكان هؤلاء قـد سـكنوا فـي الـ وق

---

(1) سكوغ: أمين، مدخل إلى تاريخ الشراكسة، دار دمشق، بيروت، طبعة أولى، ١٩٨٤، ص ٧١.

(2) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١٠٥.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٢١٢.

(4) طبلخاناه: أو أمير طبلخاناه، مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف، صاحبها يلي أمير مائة مقدم ألف في الدرجة، وسمي أمير طبلخاناه لأحقيته في دق الطبول على أبوابه كما يفعل السلاطين وأمراء المئين، ويطلق على أمير طبلخاناه أيضاً أمير أربعين بمعنى أن يكون في خدمته أربعون مملوكاً. حلاق، المرجع السابق، ص ٢٤.

(5) السلحدارية: مصطلح كان يطلق في العهد العثماني على قائد فرقة من الجنود الفرسان أنشئت أيام السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢م) مهمتها حراسة السلطان. حلاق، المرجع السابق، ص ١١٨.

(6) الجمدارية: من "جامه" بمعنى اللباس و"دار" أي المسؤول، وفي الاصطلاح شاعت في العهد المملوكي للدلالة على المسؤول عن لباس السلطان. كما يجدل المصطلح أيضاً على فرقة من الحرس السلطاني في عهد المماليك. حلاق، المرجع السابق، ص ٦٧.

(7) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج٨، ص ٦٠. تسيترشتين: ك.ف، تاريخ سلاطين المماليك في أعوام ٦٩٠-٧٤١هـ، بريل ليدن، ١٩١٩، ص ٣٨.

(8) ابن الوردي: زين الدين عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦، ج٢، ص ٣٤٤. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٢٣٣.

والحسينية وأطلق عليهم اسم الوافدية، إلا أن هذه الفئة من المغول كانت دون المماليك الذين جاؤوا عن طريق الرق الذين نشأت بينهم روابط كانوا يعتزون بها[1].

المبحث الخامس: العرب:

هم الذين عاشوا في الأراضي العربية في مصر والشام واشتركوا في معركة عين جالوت بكل فئاتهم، لم يكن لهم دور يذكر في العصر المملوكي، إذ كانوا يعتبرون طبقة دون طبقة المماليك. فقد اهتموا بالزراعة والتجارة والأعمال الحرفية والإدارية في حين أن المماليك اختصوا بالقيادة والسياسة والجيش. وقد عمل الملك الناصر على أن يستبدل العرب بالمماليك وما أن شرع في هذا الأمر من ترقيتهم إلى رتبة (الأمير الكبير) أو إدخالهم في صفوف الجيش وتسليمهم وظائف قيادية حتى توقف كل شيء بوفاته، ثم أتى من بعده ابن أخيه الأشرف شعبان بن حسين فسار على طريقة الملك الناصر، وتوقفت تلك الأعمال والأفكار أيضاً بموته، إلا أن العرب برزوا كجنود أوفياء وانضباطيين ولديهم حب للنظام وفهم لأمور الجيش سيما أنهم الفاتحين الأوائل لمصر. وتولى عدد منهم رتبة أمير مقدم بالإضافة إلى بعض الوظائف الإدارية[2]، ومن أبرز الفئات العربية التي اشتركت في معركة عين جالوت هي:

١- العربان:

ظهر منهم أيام الدولة الأيوبية مانع بن حديثة وغنام بن الطاهر اللذان كانا في أيام الملك محمد إبن العادل، وبقيت سلالتهم من بعدهم في عصر الدولة المملوكية، وكان أشهرهم زامل بن علي بن حديثة وأخوه أبا بكر بن علي وعيسى بن مهنا وأولاده الذين كانت لهم حظوة عند السلاطين. وكان آل مهنا[3] هم الذين قادوا الأعراب في البادية، إذ يعين السلطان أميراً كبيراً عليهم يسومهم ويقودهم، كما يعين لكل قبيلة أميراً في الشام ومصر[4].

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٥٤٤، وج ٢، ص ١٤١. مبارك: علي، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومد ا وبلادها القديمة والشهيرة، مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٦٩، ج١، ص ٨٤ و٨٩ و١٣٤.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١١، ص ٣٣٠.

(3) آل مهنا: عشيرة من عشائر العرب في بادية الشام وما قامت به من أدوار وما كان لها من صدى سواء على صعيد العلاقات العربية العربية أو العربية البيزنطية، مهنا الأول المتوفى حوالي (٦٦٠هـ/١٢٦٢م) ومهنا بن عيسى (الثاني) المتوفى (٧٣٥هـ/١٣٣٥م). ومهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع أمير آل فضل من بني طيئ كان يلقب سلطان العرب، أمير بادية الشام، وهذه القبيلة ساندت المماليك ضد المغول، وقد كافأه المماليك بعدد من الإقطاعات الثرية في سوريا. ابن بطوطة: شمس الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة (تحفة أنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية (سلسلة التراث)، الرباط ١٩٩٧م، ج١، ص ١٣٨.

(4) Gaudefroy; Suppl, P. 184.

القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢١١ و٢١٤، ج٧، ص ٢٠٥.

لقد اشترك في معركة عين جالوت أمير العرب الكبير مهنا بن مانع بن حديثة، ثم عين الظاهر بيبرس فيما بعد عيسى بن مهنا أميراً وكلفه بالمحافظة على الطرقات ووفر له الإقطاعات، وأعطاه ما أعطى الأمراء، وظلوا يتعاقبون في الإمارة حتى أواخر الدولة المملوكية[1]. كما اشترك من أخـوة آل مهنا وكان أميرهم أحمد بن حجي في أربعة آلاف فارس. وقد اشتهر هـؤلاء بالفروسـية والـشجاعة وباقتنائهم الجياد العربية الأصيلة، والأسلحة الجديدة، والثياب الحمـراء الأطلـسية والخـوذ القويـة، والرماح الخطية، والسيوف القاطعة[2].

٢- السكان:

كان المواطنون غالباً ما يشاركون في الدفاع عن البلاد وإذا ما تعرضت لخطـر الاحـتلال، وكانوا يجدون في المماليك قوة عسكرية أنقذتهم من هلاك محقق وتدمير وشيك من قبل الجيش المغولي الذي توجه إلى الشام ومصر بغية احتلالهما وإخضاعهما لسيطرته، ولم يشأ المواطنون إلا الاشـتراك مع هذا الجيش الذي نذر نفسه للدفاع عن أرض مصر مشاركة فعالة في معركة عين جالوت، فـالتحق بالجيش عدد كبير من المصريين، ثم ما لبث أن انضم إليه عدد كبير أيضاً من المـواطنين فـي أرض الشام على طريق التحرك إلى هذه المعركة، وقد تشكلت منهم بعد المعركة فرقة كانت تدخل الحـروب مع المماليك وتقاتل معهم وقد تنامت هذه القوات الشعبية وازداد حجمها[3]. وقد أطلـق علـى بعـض المواطنين فيما بعد اسم "الزعر" أو "العوام"[4]، ومن هذه التسميات يتبين استهزاء واسـتهتار المماليـك بفئة المواطنين الذين يعملون في قطاعات مختلفة من المهن والأعمال الحـرة. وقـد ظلـت أعمـالهم مقتصرة على الصناعات التي تحتاجها القوات المسلحة، ولاشك أن الدور الرئيسي ظل مقتصراً علـى المماليك بالرغم من ضم المغول والأكراد والتركمان والعرب في وحـدات القتـال[5]. إلا أن هـؤلاء المواطنون كانوا يعبرون عن سخطهم للفروق والطبقية بالقتل والنهب والسلب[6].

---

(1) اليونيني: قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، عناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢، ج٤، ص ٢٣١.

(2) القلقشندي، المصدر السابق، ج٤، ص ٢١٦.

(3) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١٠٥-١٠٦.

(4) السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان بن محمد (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت)، ج٦، ص ٢٣، ج٧، ص ٢٨٤.

(5) سليم، محمود رزق: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب ودار الحمامي للطباعة، مصر، ١٩٦٥م، ج٢، ص ٢٧١.

(6) الصيرفي: الخطيب الجوهري علي بن داود (ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٧٠م، ج١، ص ٢٠٣ و٢٠٩.

٣- علماء الدين:

كان لهم دور كبير ونفوذ قوي في دولة المماليك، كما كان لهم سابقاً الدور نفسه والنفوذ في الدولة الأيوبية. فلقد جمع صلاح الدين الأيوبي المشيخة في شخص واحد، كما جمع الطرق الصوفية بشخص واحد يتولاها من خيار العلماء علماً ومعرفة، وسار المماليك على المنوال نفسه، إذ ولوا عليها محمد شمس الدين البكري وذريته من بعده[1]. أما عن أبرز مهامهم فكانت ما يلي:

أ- الحث على الجهاد أو التحريض على القتال:

كان لعلماء الدين دور كبير في نفوس الجند والقائد والخليفة نفسه[٢]، وكان الشيخ الخطيب أصيل الدين الصوفي يحض المقاتلين ويشجعهم ورفع من معنوياتهم قبل معركة عين جالوت وأثناءها وبعدها. وقد حضر مع الملك المظفر قطز إلى دمشق وخطب في جامع بني أمية الكبير ثم عاد إلى مصر[٣].

ب- التوعية والتوجيه المعنوي:

وذلك عن طريق احتكاكهم المباشر مع الشعب في الزوايا والمدارس والمساجد، والتوجيه سلاح أقوى من أي سلاح آخر[٤] وكانت حلقاتهم تضم مئات المتعلمين في القرآن والحديث واللغة والتاريخ والفقه وبخاصة فيما يتعلق بأمور الجهاد والأحكام الناظمة وتقديم الروح والمادة عن حب وتسليم[5].

ج- دور علماء الدين في بث روح الجهاد:

تمتع المشايخ بنفوذ قوي حيث قضوا في الناس وفي سائر الولايات، وعهد إليهم النظر في الأوقاف والمدارس والمستشفيات، كالقاضي شمس الدين بن خالكان الأربلي الذي تسلم نيابة دمشق سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م. وكان كالحاكم المطلق يتصرف كيف يشاء[٦]. وكذلك الشيخ ابن تيمية الذي ظهر تأثيره على السلطان والأمراء والقادة العسكريين والشيخ أحمد البدوي الذي كان له نفوذ كبير وتأثير

(1) زيدان: جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، مطبعة الهلال، طبعة ٤، ١٩٣٥م، ج١، ص ٢٢٠.

(2) زيادة: نقولا، دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت ونيويورك، ١٩٦٦م، ص ٢٠٠.

(3) الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٢، ص ٥.

(4) حمزة: عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، مطبعة أحمد علي مخيمر، طبعة ثانية، مصر، ١٩٦٨م، ص ٦٨.

(5) كرد علي: محمد عبد الرزاق، الإسلام والحضارة العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، طبعة ثانية، ١٩٥٠، ج٢، ص ٢٩٢.

(6) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص ١٦٤.

على السلاطين، فكان الظاهر بيبرس أحد الذين يقبلون يديه وقدميـه، ويطلبـون رضـاه[1]. وكـانوا يصحبون السلطان في حربه وسلمه، وفي حله وترحاله كالشيخ خضر بن أبي بكر الكردي الذي كـان مرافقاً ومصاحباً للسلطان الظاهر بيبرس إذ كان يرفع من معنوياته ويبشره بفتح قريب وينبأه عن نتائج معاركه في حصار أرسوف وحصن الأكراد[٢]، والشيخ سليمان بن أبي العز الملقب صدر الدين الحنفي الذي كان يرافق بيبرس أيضاً في حروبه وفتوحاته وله منزلة عالية ومكانة رفيعة عنده، كما أن هـذا السلطان أخذ برأي العلماء لجمع المال للتحضير للحرب وأشهدهم على ذلك[٣].

كثيرون هم المشايخ الذين عايشوا تلك الفترة الزمنية قبل وبعد معركة عين جالوت، وقد كـان لهم أثر كبير في الثقافة الدينية والتربية والحياة الاجتماعية وكذلك في الأمور العسكرية، الأمـر الـذي جعل الشباب والكهول يتسابقون إلى الموت لنيل الشهادة. وقد تفرق المشايخ حينها إلى أربعة مـذاهب، الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي[٤]، فكان لكل مذهب مؤيدوه وأنصاره، حتى غدت الدولة المملوكية قبس من دين وعنوان لثقافة دينية واسعة، ومن أشهر رجال الدين في ذلك العصر علاء الدين المنجـا وعماد الدين الحرستاني وشهاب الدين أبي شامة ومحي الدين النووي، وابن كثير وابن قدامـة وبهـاء الدين المظفر وابن تيمية وغيرهم[5].

---

(1) ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت٨٠٦هـ/١٤٠٤م)، تاريخ ابن الفرات، مطبعة حداد، البصرة ١٩٦٧م، الجزء السابع من منشورات الجامعة الأميركية والمطبعة الأميركية، بيروت ١٩٣٨-١٩٤٢، ج٧، ص ١٠٢-١٠٣.

(2) ابن الفرات، المصدر نفسه، ج٧، ص ١١٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٧٦.

(3) كرد علي، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٩٢.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٢٢.

(5) حمزة، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، ص ١٥٤.

استنتاجات:

أمام هذا الخليط وتلك الأقوام المتعددة الأجناس والأعراق، تكـون للمماليـك كيـان سياسـي وعسكري فرض نفسه بحكم وجوده في رحم الدولة الأيوبية، الذي كان بموتها ولادته وظهـوره إلـى العلن بنزعة عسكرية بحتة هيمن على مقاليد الحكم والسلطة بالقوة.

بالرغم من هذه الفسيفساء العرقية التي عاشت في ظل وحكم الدولة المملوكية، إلا أنها اتحـدت تحت عامل الدين الذي كان جامعها الأول، والمصير المشترك حينما أوشك الخطر المغولي أن يطـال جميع مكوناتها. ومما اتضح لنا أن دولة المماليك هي دولة ذات مجتمع عسكري تحيا بالحروب، وربما كان ذلك عائداً إلى فطرة فطرت عليها، أو بيئة خشنة كان قد ترعرت بها، بعكس بيئة الأقوام المقيمـة التي كانت قبل مجيئه إلى مصر، إذ كانت تتميز بالحياة المدنية والعسكرية في آن معاً، من هنا نرى أن جهده انصب بالدرجة الأولى على الحياة العسكرية وسخر لها جميع المقومات الاقتـصادية والماليـة، وأهمل مجالات الحياة الأخرى.

بالرغم من هذا التعدد الكبير الذي عاش في كنف الدولة المملوكية وحضنها، إلا أنه بقي يعاني من العصبية والتفرقة التي مارسها المماليك بحق المجتمع المصري ككل لجهـة احتكـاره للمناصـب القيادية سواء أكانت سياسية أو عسكرية لأنفسهم دون سواهم، في حين اقتصرت أعمال بقيـة النـاس على الزراعة والتجارة، وكافة أعمال المهن الحرة.



الفصل الثاني
الهيكلية العامة للجيش المملوكي

مقدمة

المبحث الأول: الوظائف والرتب العسكرية

١- القيادات والمؤسسات

٢- أمير السلاح

٣- أمير مجلس

٤- أمير دوادار الكبير

٥- أمير أخور الكبير

٦- أمر رأس نوبة

٧- أمير حاجب الحجاب

٨- أمير خازندار الكبير

٩- أمير جاندار

المبحث الثاني: تشكيلات الجيش المملوكي وحجمه

١- السلطان

٢- مقدم ألف وأمير مئة

٣- التجريدة

٤- أمير ثمانين فارساً وأمير خمسين

٥- أمير أربعين

٦- أمراء العشرينات والعشراوات

٧- أمير خمسة

المبحث الثالث: حجم الجيش المركزي

١- جيوش الأقاليم

٢- الجيوش الاحتياطية أو المساعدة

٣- حجم الجيش المملوكي في عين جالوت (نموذجاً)

المبحث الرابع: الوظائف والرتب العسكرية

١- القسم العسكري

أ- ديوان الجيش

ب- نقيب الجيش

ج- طبلخاناه

٢- القسم الخدماتي

أ- الاستادار "الاستدار"

ب- المهمندار

ج- الجاشنكير

د- الأوجاقي

هـ- المشرف

استنتاجات

الفصل الثاني

الهيكلية العامة للجيش المملوكي

مقدمة:

التخطيط والتنظيم الإداري مطلب أساسي لإنجاح أي عمل، كما أنه يشكل أحد أهم الركائز الأساسية للوصول إلى الغاية المنشودة، وبدونه تطغى العشوائية والارتجالية، وانطلاقاً من هذا الواقع فقد جهد المماليك إلى تنظيم جيشهم تنظيماً دقيقاً مستفيدين من خبرتهم العسكرية العالية، بحيث أنهم عملوا على تحديد مهامه وتفصيل وظائفه وفقاً لحجمه وحجم باقي القوات المسلحة الملحقة به أو المساعدة له. وككل الجيوش اعتمد المماليك التسلسل الهرمي في بناء الجيش وقاموا في تحديد الوظائف والرتب العسكرية كافة والواجبات المترتبة على القادة والمرؤوسين، فضلاً عن توصيف الوظائف العسكرية وآلية عملها.

المبحث الأول: الوظائف والرتب العسكرية:

هي وظائف القيادة والتشكيلات والوظائف الاختصاصية والإدارية التي تمارس ضمن بنية الجيش التنظيمية، حيث يتولاها قادة الجيش من مختلف الرتب وتتسلسل من قائد تشكيل إلى قائد زمرة، ومن أمير مئة ومقدم ألف إلى أمير خمسة.

١- القيادات والمؤسسات:

الأمير الكبير (الأتابك)[١] هو أمير الأمراء، وهي وظيفة لا تعلوها وظيفة أخرى، وهو القائد الأعلى والعام للجيش والقوات المسلحة، ويطلق عليه أيضاً أتابك العساكر[٢]. أو الأمير الكبير في زمن الملك الناصر[٣].

(1) الأتابك: كلمة تركية مؤلفة من كلمتين "أتا" بمعنى الأب و"بك" بمعنى الأمير، ومعناها مربي الأمير، وكان السلاطين السلاجقة يعهدون بتربية أبنائهم إلى المقربين منهم من المماليك الأتراك الذين ترعرعوا في كنفهم. وإذا عين السلطان أحد أبنائه على مدينة من المدن أو ولاية من الولايات أرسل معه هذا التركي المربي ليعاونه في شؤون الحكم، ويسدي إليه النصائح، ثم جاء الوقت الذي سيطر فيه الأتابك على الأمير السلجوقي وتحكم في ولايته. طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٢١.

(2) ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي بن أحمد (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٨م، ج١، ص ٧٩. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٥١٨. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١١، ص ٣٤١.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص ١٩٨.

والأتابك لفظ قديم كان قد استخدمه السلاجقة في عصرهم، وهو ما تلقب به عماد الدين زنكي حيث بمعناه الجمع بين القيادتين السياسية والعسكرية في رجل واحد[١]. وكان ممن تولوا هذه الوظيفة الظاهر بيبرس وفارس الدين أقطاي المستعرب في معركة عين جالوت[٢]. وأيضاً يلبغا الذي كان تحت أمرته ثلاثة آلاف وخمسماية مملوك[٣]، وينال اليوسفي أيام السلطان حاجي[٤]، الأتابك كان بيده جميع الأمور العسكرية، ويتصرف بالجيش كما يشأ ويعيد تنظيمه وينقله من مكان إلى آخر، وعادة ما يوكل إليه أمر البلاد بعد موت السلطان، أو بعد خلعه، أو حين تولي السلاطين الصغار الملك على النحو الذي حصل مع سيف الدين قطز حين عين وصياً على المنصور علي بن أيبك.

٢- أمير السلاح:

يكون من أمراء المئة وهو مقدم السلاحدارية ووظيفته تولي أمور السلاح الخاص بالسلطان أو الأمير، وهو المسؤول عن المستودعات الخاصة بالسلاح وحفظه وصيانته، وعن العاملين فيه، وعن نقل السلاح وتأمينه إلى السلطان عن طريق الشراء والتصنيع[٥]. ومن أمراء السلاح في الدولة المملوكية اينال اليحياوي الظاهري الملقب (الأشقر)[٦].

٣- أمير مجلس[٧]:

يختص بمجلس السلطان أو الأمير وحراسته والمحافظة عليه، وهو المسؤول عن الأطباء والشؤون الطبية والأدوية، وكل ما يتعلق بأمور العلاج.

٤- أمير دوادار الكبير:

وظيفته إدارية لدى السلطان أو الأمير، وهو مسؤول عن كل ما يصدر من الرسائل عن حضرة السلطان والأمور الهامة، وتقديم البريد والمسؤول أيضاً عن أمر كل من يحضر إلى الباب، وأخذ العلامة من السلطان في كل المكاتبات التي تصدر عنه[٨]. وقد يكون "الدوادار" نائباً في إحدى النيابات، أو حاجب الحجاب وقد يطلق عليه اسم الدوادار الكبير[٩].

---

(1) ابن خلدون، ج٥، ص ٦٠.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ٨٧، وص ٩٠.

(3) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١١٣.

(4) ابن حجر العسقلاني: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه وراقبه محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٩٧٢م، ج١، ص ٥١٦.

(5) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الأزمان، ج١، ص ٣٧ و١٩٧. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٢٥ و٤٣٤.

(6) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٢، ص ٢٣٠.

(7) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص ٤٢٨ وج٧، ص ١٤٩.

(8) السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، طبعة أولى، ١٩٦٧م، ج٢، ص ٢٥٠. القلقشندي، المصدر نفسه، ج١، ص ١٥٠.

(9) الظاهري، المصدر السابق، ص ١١٤.

٥- أمير أخور الكبير:

وظيفة هذا الأمير تأمين كل ما يلزم لشؤون الخيل والإبل ونحوها من مأوى واصطبلات وعلاف وتنظيم الخدمة الطبية لها وتحضير الجهاز الذي يتولى العناية بالدواب والعلف كنظر الاصطبلات المكاف بتأمين الخدمة والأرزاق والشؤون الصحية. وقد زيد الاعتناء بالخيل منذ زمن المنصور قلاوون إذ جمع كرائم الخيل من العرب ودفع لهم أسعاراً مرتفعة بها[١]. وعلى أمير أخور أن يعد تلك الخيول للسباق[٢].

٦- أمير رأس نوبة[٣]:

أو أمير رئيس نوبة النواب[٤]، أو رأس رؤوس النواب[٥]. وظيفته التحدث إلى مماليك السلطان أو الأمير وتأديبهم وتعليمهم وتقويم أعوجاجهم. ورؤوس النواب كانوا أربعة واحد منهم أمير مئة مقدم ألف، والثلاثة طبلخاناه، وعلى رؤوس النواب رئيس يشرف ويقود من هم تحت أمرته، وهو بنفس الوقت مستشار للسلطان ومؤتمن له ومدير لأموره وأمور مملكته[٦].

هذه الوظيفة كانت معروفة عند التتار، وقد أدخلها الظاهر بيبرس وسماها "رأس نوبه الأمراء" وهي أعلى مرتبة من أمير مجلس أو أمير السلاح[٧]، إلا أن ترتيبها جاء بعد أمير السلاح وأمير المجلس وأمير دوادار كبير وأمير أخور كبير[٨]. ويعهد أيضاً إلى رأس نوبة النواب بالإضافة إلى عمله التصرف بأمور الدولة وطرد أو تسريح من يشاء، وعن طريقه تأتي إلى السلطان كل الأخبار[٩].

وقد تعددت درجات ومرتبات هذه الوظيفة وأولوياتها وأعدادها حتى وصلت إلى رأس نوبة خامس، وإلى رأس نوبة خفير، وإلى رأس نوبة الجمدارية[١٠]، وإلى رأس النوبة السقاة، وإلى السلحدارية[١١].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص ١٦٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٣، ص ٦٩.

(2) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص ١٠٨ و ١٣١.

(3) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٧، ص ١٨٥. القلقشندي، المصدر السابق، ج٤، ص ١٨.

(4) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١١٤.

(5) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص ٤٢٨. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٥، ص ٢٣٩.

(6) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج١٤، ص ١٠٧.

(7) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج٧، ص ١٨٥. السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢، ص ١٣٣ و٢٦٦.

(8) الظاهري، المصدر السابق، ص ١١٤.

(9) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج١٤، ص ١٩٦.

(10) Dozy, R.: Supplément aux dictionnaires arabes librairie de liban, Beyrouth, 1968, Vol 11, P. 212.

المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ١٢٤.

(11) المقريزي، المصدر نفسه، ج٥، ص ٢٤١.

٧- أمير حاجب الحجاب:

كانت الحجابة فيما مضى وظيفة يقف موظفوها على أبواب الخلفاء ويحجبون الناس عن الدخول إلا بإذن، وليس لهم حق التدخل في الأمور السياسية أو الأمور العامة، أو الأمر أو النهي ينفذون ويطيعون أوامر الخليفة، غير أن هذا المفهوم كان قد تبدل وتغير في دولة المماليك، وأصبح يشغل هذه الوظيفة من يكون أقرب المقربين إلى الملك وبيده كل شيء فيما يتعلق بتصريف الأمور[1]. وله من الوظائف في ذلك مرافقة السلطان في المواكب والاحتفالات والفصل في الدعاوى، وتلك التي لا تعرض على الديوان والحكم بكل صغيرة وكبيرة، وإنصاف الأمراء والجند إما مباشرة من قبله، أو عن طريق السلطان أو نائبه، وتقديم أو رد من يشاء من الجند وغيرهم عن الحضور لمقابلة السلطان[2].

يطلق على كبير الحجبة "صاحب الحجاب" أو أمير حاجب الحجاب[3]. وهو يلي في المرتبة نائب السلطان[4]، الذي اتسعت صلاحياته، وتجاوز الذين يتولونها مهامهم المحدودة، إذ صاروا ينظمون أمور الناس بالإضافة إلى الجند وابتزازهم لقاء دفع المال لهم، فتجاوزوا في ممارستهم إلى الضرب وأخذ المال بالقوة فلا يعترض لهم أحد ولا يمانعهم القضاة الشرعيون الذين كان من مهامهم النظر في هذه الأمور والتي استبد بها الحجاب وأميرهم[5].

٨- أمير خازندار الكبير:

وظيفة هذا الأمير حفظ الأموال بعد استلامها من الجهات المختصة وتوزيعها تبعاً لأوامر السلطان أو الأمير[6]، ويقود عدداً من الخازندارية على مختلف الدرجات[7].

٩- أمير جاندار:

وظيفته استئذان الأمراء في أيام العرض وعند الجلوس بدار العدل وهو المسؤول عن باب السلطان وحاشيته، وتقديم البريد، وتنفيذ عقوبة القتل للأمراء الذين يرتكبون جرماً، والذين قرر السلطان إعدامهم، ومهامه أيضاً الاحتفاء بالسلطان في حال قدومه من السفر، ومسؤول عن السجن[8]،

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٩٩.

Dozy, R; Suppl, Vol 11, P. 249.

(2) ابن خلدون، العبر، ج١، ص ٢٠٢.

(3) الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١١٤.

(4) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان، ج١، ص ٤٧.

(5) السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢، ص ١٣١.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٥٥٦.

(7) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص ٣١١ وج٦، ص ٦٥.

(8) الصيرفي، المصدر السابق، ج١، ص ٣٥.

وعن "الزردخانة"[١] وعن الذين يحملون "الغاشية"[٢] بين يدي السلطان، و"الركبدارية"[٣]، والمرؤوسين من الجمدارية، وعن المعتقلين وغيرهم[٤].

وهناك بعض الأمراء الذين تقل أهميتهم ورتبتهم بحيث لا يكون تحت إمرتهم سوى بعض الجند مثل "أمير شكار"[٥] ووظيفته تأمين أمور الصيد ومستلزماته ويساعد الملك ويرافقه في رحلات صيده. وأمير طبر وظيفته مرافقة السلطان أو الأمير، والإشراف على العناصر (الطبردية) الذين يحملون الفؤوس[٦]. وأمير منزل المسؤول عن حراسة المنازل والبيوت للسلطان والأمراء[٧]. كما كان يوجد "أمير العربان" المسؤول عن عرب البادية أو عن عدة قبائل كآل الفضل[٨]. ويوجد أيضاً (أمير غيبة) أو ما يعرف بنائب السلطنة التي هي من أرفع الوظائف، فقد كان ينوب عن السلطان في الحكم أثناء غيابه وتنقله بين مصر والشام. وفي زمن المماليك كثر عدد نواب السلطنة، ففي مصر كان يوجد نائب واحد ثم نائبان، ويعرف بالنائب الكافل أو كافل الممالك الإسلامية. وفي بلاد الشام عين نائب السلطنة في كل من دمشق وحلب وحمص وحماه وصفد وطرابلس والكرك وكان نائب السلطنة يحكم في كل ما يحكم به السلطان، له رئاسة ديوان الجيش وينتهي إلى السلطان بكل الأمور التي لابد أن يقف عليها[٩].

وكان يوجد أيضاً لقب (أمير كبير) كان قد استحدث في زمن الملك الناصر وصار من أكبر الوظائف قدراً وشأناً، وأول من تولاها شيخون بن عبد الله العمري[١٠]، وهناك لقب "أمير الأمراء" يسمى به من كان في مرتبة كبيرة، أو لرجل كبير في الدولة[١١].

---

(1) الزردخانة: "زرد" بالعربية و"خانة" بمعنى الدار أو البيت، أي دار الزرد، ومصطلح كان يطلق في العهد المملوكي للدلالة على المخزن أو المكان الذي يحفظ فيه السلام والعتاد الحربي وقد يطلق على السلاح ذاته. حلاق، المعجم الجامع، ص ١٠٦.

(2) الغاشية: غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب يحملها الركبدارية رافعاً لها يديه يلفتها يميناً وشمالاً، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٦.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٩٧.

(4) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج١٥، ص ٢٤٨.

(5) "أمير شكار" لفظين أحدهما عربي وهو أمير، والثاني شكار فارسي بكسر الشين ومعناه الصيد. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٣، ج٥، ص ٤٣٤.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٣٤.

(7) الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١١٥.

(8) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج١، ص ٧٢ و٢٢٨. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ١٥٦.

(9) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج١٢، ص ١٢٩، ج١٥، ص ٦٩٤.

(10) مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومد ا وبلادها القديمة والشهيرة، ص ١٠٤.
ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج١٠، ص ٣٢٤. القلقشندي، المصدر السابق، ج٧، ص ٢١٨.

(11) متز: آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، طبعة ثالثة، ١٩٥٧، ج١، ص ٢٧.

المبحث الثاني: تشكيلات الجيش المملوكي وحجمه:

كما هي حال جميع الجيوش قديماً وحديثاً فإنها تتبع في التنظيم والتقسيم حسب تسلسل الرتب العسكرية، فقد اعتمد الجيش المملوكي التقسيم بداية من رأس الدولة الممثلة بالسلطان حتى أدنى رتبة في تعداد الجيش، وقد جاء التقسيم على النحو التالي:

١- السلطان:

لا يخرج السلطان عن كونه أميراً مميزاً بين الأمراء، تارة يكون قوياً يسيطر على الحكم، وتارة يكون ضعيفاً فيسيطر الأمراء المقربين على شؤون الحكم، وفي جميع الحالات كان جميع من في الدولة من أمراء عسكريين وإداريين مدنيين، يقومون على خدمة السلطان والسهر على سلامته مؤلفين الجهاز الحاكم الذي تتوزع وظائفه حسب طبقات الأمراء ذات المراتب العسكرية المختلفة(١).

٢- مقدم ألف وأمير مئة:

يتولى مقدم الألف وأمير المئة، الآمرة على مئة فارس وقد يزدادون عشرة أو عشرين، يسير بهم ضمن جيش السلطان أثناء الحروب. وقد بلغ عدد هؤلاء الأمراء أربعة وعشرين أميراً، ثم تراوح العدد بين ثمانية عشر وعشرين أميراً زمن السلطان برقوق(٢). ولهذا القائد بنفس الوقت ألف من أجناد الحلقة ويقودهم أثناء الحروب حيث يقابل في عصرنا الحاضر قائد لواء. ورتبة المقدم هذه هي أعلى رتبة في الجيش المملوكي(٣)، والمقدم حسب اختصاصه وانتمائه قد يكون مقدم المماليك السلطانية أو مقدم العساكر المجردة(٤) أو مقدم الجيش أو الإصطبل أو الرفرف أو البريدية أو الطبلخاناه، أو الحلقة أو الوالي، وهناك أيضاً مقدم التركمان(٥). ومن هؤلاء الأمراء يكون أكابر الوظائف مثل السلطنة، وأتابك العسكر، وأمير السلاح، وأمير مجلس، والدوادار الكبير، وأمير آخور، ورأس نوبة النواب، وحاجب الحجاب، وأمير جاندار، والاستادار وأمير الحاج الشريف، والخازندار، وشاد الشراب خاناه(٦). وقد يكون أتابك العسكر فوق كل المقدمين، إذ يمكن أن يكون رئيس تجريدة أو رئيس مجموعة قتالية، أو قائد جيش ميداني(٧).

(1) شبارو، السلاطين في المشرق العربي، ص ١٢٨.
(2) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطر والمسالك، ص ١١٣. ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣، ص ٣٨٥.
(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٧٠.
(4) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٧٠
(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٩ و٢٤٠.
(6) شبارو: عصام، السلاطين في المشرق العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م، ص ١٢٨.
(7) الحلبي: جلال الدين النوري المعروف تاج الملوك الحلبي (ت٥٧٩هـ/١١٨٢م)، تحفة الظرفاء في مناقب الملوك والخلفاء، مطبعة جامعة كاليفورنيا بيركلي، لوس أنجلوس، ١٩٤٣، ص ٧٥٦.

أما على مستوى البحرية فقد كان يطلق على القائد البحري مقدم البحرية وهـو الـذي يقـود السلاح البحري بأكمله[1].

لذلك فإن المقدمين يقومون بخدمة كل منهم مائة مملوك، ويتبع له أيضاً جوقة موسيقية مؤلفـة من ثمانية أحمال طبلخاناه وطبلين وزمرين وأربعة أنفرة[٢].

٣- التجريدة:

قد يطلق على هذه التسمية أيضاً "الجريدة" وهي الخيل التي لا قوة راجلة فيها، حيث يقال ندب القائد جريدة من الخيل[٣]. وهذا التشكيل غير داخل في التنظيمات العسكرية للجيش المملـوكي وهـو يشكل عند الحاجة ويختلف عدده من وقت لآخر، وذلك حسب المهمة المكلف بهـا[٤]، ومهمـة هـذا التشكيل مهاجمة العدو خارج البلاد أو صد أي عدوان، ومن مميزاته أنه سريع التعبئة والتصدي للعدو، والتدخل في أي أرض خارج الحدود أو داخلها[٥]، ويقود هذه التجريدة السلطان بنفسه أغلب الأحيان أو يقودها أحد الأمراء المنتدبين من القائد الأعلى[٦].

وقد تم إرسال تجريدة إلى البحيرة وعين لها أميران من أمراء الألوف، وعدد آخر من أمـراء الطبلخانات والعشروات وكان عدد هذه التجريدة في حدود ثلاثة آلاف جندي ويرأسـها أحـد أمـراء الألوف[٧].

٤- أمير ثمانين فارساً وأمير خمسين:

وهي جماعة من الخيالة تسمي نفسها المنقب، أو المنسر[٨]. أما أمير الخمـسين فهـو تنظـيم استثنائي يلجأ إليه في بعض الأحيان عندما تدعو الضرورة، أو عندما يراد زيـادة بعـض الأمـراء، فيضاف إليه عشرة أو عشرين فارساً[٩].

---

(1) الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١١٣.

(2) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣، ص ٣٨٥. ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ج٤، ص ٢١ و١٩٢.

(3) الزبيدي: محمد بن محمد الحسيني أبو الفيض (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج٧، ص ٤٩٢.

(4) الحلبي، تحفة الظرفا في مناقب الملوك والخلفا، ص ٧٦١-٧٦٢.

(5) ابن شامة: أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعرف بأبي شامة (ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٧م، ج١، ص ٣٧٩ و٤٣٣.

(6) الحلبي، تحفة الظرفا في مناقب الملوك والخلفا، ص ٧٦١-٧٦٢.

(7) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٥، ص ١٣٨.

(8) ابن سيدة: (ت٤٥٨هـ/١٠٥٦م) أبو الحسن علي بن إسماعيل، المخصص، حققه خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٦م، ج٢، ص ٨٥ و١١٨، ج٤، ص ١٨٩.

(9) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ١٦، ج٩، ص ٢٢٨.

٥- أمير أربعين:

لا يوجد هكذا عدد في أي تشكيل من تشكيلات الجيش المملوكي إلا في فصائل "الطبلخانات"[(١)]، وفي قيادات الحلقة. وقد يزداد هذا العدد إلى السبعين في بعض الأحيان، إلا أنه لا ينقص أبداً عن الأربعين[(٢)]. وإذا كان هذا العدد من جند الحلقة عين لهم مقدم يقودهم أثناء القتال فقط، لأنه ليس له عليهم حكم أو أمر غير ذلك[(٣)].

٦- أمراء العشرينات والعشراوات:

يتولى كل من أمراء العشراوات عشرة مماليك، وقد زاد بعض هؤلاء الأمراء مماليكهم إلى العشرين فعرفوا بأمراء العشرينات[(٤)]. ومن هذه الطبقة يعين صغار الولاة ووظائف المرتبة الثالثة مثل الدودار الثالث، أمير أخور الثالث، رأس نوبة النواب الثالث، الحاجب الثالث، استادار الصحية، مقدم البريدية، المهمندار الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان، دلال المماليك، متولي القاهرة ونقيب الجيش[(٥)]. في حين يعتبر أمير العشروات وفق هذا التنظيم قائد جماعة، وقد يضاف إليه في بعض الحالات النادرة خمسة مماليك[(٦)]. بينما أمير العشرينات[(٧)]، يصنف بين قائد جماعة أو فصيلة وهو بذلك أقرب إلى الفصيلة منها إلى الجماعة.

٧- أمير خمسة:

تعتبر هذه الطبقة أقل الطبقات عدداً إذ تبلغ خمس مماليك فقط، ومعظم أمرائها من أولاد الأمراء الذين قتل آباؤهم في المعارك أو ماتوا، وقد كانت تعطى لهم تكريماً للآباء[(٨)].

المبحث الثالث: حجم الجيش المركزي:

لم تكن الدولة المملوكية قد ارتسمت حدودها الجغرافية عقب قيامها سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، إنما كان ظهوراً سياسياً فرضته قوة المماليك العسكرية التي برزت في حرب المنصورة، والتي أظهرت

(1) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، حققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين، تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دون تاريخ، ج٦، ص ٣٧٩.

(2) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣، ص ٣٨٥. السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢، ص ١٢٩.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٣٧٦.

(4) شبارو، السلاطين في المشرق العربي، ص ١٣١.

(5) الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١١٥.

(6) ابن أياس، المصدر السابق، ج٣، ص ٣٨٥. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٨٢ و١٠٨.

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٢٠٤ و٢٥٥. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٧ و١٩٢ و٢٠٦.

(8) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٤، ص ٢٢٥.

براعتها وشجاعتها مما جعل ذلك مبرراً في تقوية الجيش وتدعيمه وزيادة عـدده، لأن الجـيش هـو الضامن لتثبيت دعائم دولتهم وفرض نفوذهم السياسي بقوة، والذي سيكون لـه انعكاسـاً علـى كافـة مجريات الأحداث في المنطقة، إذ أن المماليك كانوا في وضع لا يحسدون عليه خلال تكون دولـتهم إذ كان عليهم مواجهة تحديات عدة، أولها مواجهة المعارضة الداخلية المناوئة لحكمهم، ثم مواجهة الوجود الصليبي في المنطقة، والتصدي للزحف المغولي القادم من الشرق. كان من الطبيعي أن تتطلع الدولـة المملوكية وتولي اهتماماً خاصاً بالجيش الذي هو بمثابة السبب الرئيسي لوجودها واستمرارها لحـوالي قرنين ونصف من الزمن.

إن الفترة الزمنية ما بين قيام الدولة المملوكية سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ومعركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م هي فترة قصيرة جداً وتكاد تكون خيالية لترسيخ كيان الدولة وبناء الجيش وفـرض النفوذ وإلقاء الرهبة في قلوب الأعداء.

لقد ذكر ابن تغري بردي أن الأيوبيين في مصر زادوا تعداد الجيش المملوكي إلى اثني عـشر ألفاً، وهذا العدد كان في عهد الصالح أيوب[1]، كما أنه لم يزد عدد الجيش في عهد شجر الدر ولا حتى في عهد زوجها عز الدين أيبك ليدافع عن ملكه. أما في عهد المظفر قطز فقد بلغ عدد جيش المماليـك عشرة آلاف فارس[٢].

ولابد من الإشارة هنا إلى أن عدد المماليك هذا لم يكن الوحيد في المعركة، إنما كـان هنـاك متطوعين وفرق مختلفة من مكونات المجتمع المملوكي تساند الجيش، وإن ما كان مسجلاً في ديـوان الجيش هو هذا العدد في حين بلغ حجم الجيش في عهد الظاهر بيبرس أربعين ألفاً[٣]. والجدير ذكـره في هذا السياق أن ديوان الجيش المملوكي كان لا يسجل الأعداد بسبب الحفاظ على سرية المعلومـات، حتى لا يتم الاطلاع على العدد من قبل أحد فيعرف الأعداء مدى قوة النظام العـسكري المملـوكي[٤]. وبالطبع فإن البحث في كمية الطعام والرواتب وحتى طعام الدواب، من كل ذلك يمكن الاستدلال علـى حجم الجيش، وقد قارن ذلك ابن تغري بردي بين كمية المصروفات والنفقات في عهدي الصالح نجـم الدين أيوب والظاهر بيبرس، ففي عهد الصالح أيوب كان ينفق ألف رطل من اللحم للجيش في اليـوم، وأما في عهد الظاهر بيبرس فقد كان يصرف عشرة آلاف رطل يومياً[٥]. هذا يعني أن جيش الظـاهر بيبرس بلغ حوالي عشرة أضعاف جيش الصالح أيوب، ومن الواضح أن الظاهر بيبرس كان لـه دور

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٩٧-١٩٨.
(2) العسقلاني: شافع بن علي الكاتب المصري (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، الفضل المأثور في سيرة السلطان المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، طبعة أولى، بيروت ١٩٩٨، ص ٨٠.
(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٩٦-١٩٧.
(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٦.
(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٩٧.

كبير في زيادة الجيش المملوكي بسبب حروبه المستمرة على الجبهتين الصليبية والمغولية، فكان لابـد من وجود جيش قوي لتأمين تلك الجبهات، لكن هذا العدد لم يدم ولم يزد بل تناقص في العهـود التـي لحقت بالظاهر بيبرس، ويبدو ذلك طبيعياً، فقد ارتبط عدد الجيش في الحروب والمخاطر الموجـودة، فالأعداد الكبيرة للجيش تعتبر إرهاقاً للدولة إن لم يكن لها حاجة، فالجيوش تحتاج إلى مساكن وطعـام وزي ورواتب وخيول وعتاد ومصاريف أخرى متعددة، الدولة في غنى عنها إن لم تكون هناك حروب قائمة.

أما في عهد الملك المنصور قلاوون فقد بلغ عدد جيشه سبعة آلاف، والأشرف خليل بن الملك قلاوون اثني عشر ألفاً، والناصر محمد بن قلاوون أربعة وعشرين ألفاً، والظاهر برقوق ثمانية آلاف، والملوك الذين أتوا من بعده خمسة آلاف جندي(١). وبلغ حجم الجيش المركزي أربعة وعشرين ألفاً من أجناد الحلقة وعشرة آلاف من المماليك السلطانية، وثمانية آلاف من المماليك الأمراء(٢).

وهكذا فإن قوة وحجم الجيش قد بلغت ذروتها في عهد الظاهر بيبرس. بدليل الحاجة لذلك، وأن بيبرس جهز هذا الجيش الضخم في وقت كان المغول والصليبيين مسيطرين على عدد كبير من المدن والحصون الإسلامية، وخلال فترة بيبرس الطويلة في الحكم كانت كلها معارك وفتوحـات. أدت إلـى تحقيقه انتصاراً على الجبهتين. وطردهم من تلك المدن، وجعل بدلاً منهم حاميات من جيشه مما قلـل عدد المسجلين ضمن الديوان في مركز الدولة، إضافة إلى انتهاء الأخطار نوعاً ما، خاصة وأن المغول بدأوا بالدخول في الإسلام بالآلاف في عهد بيبرس(٣).

والجدير بالذكر أن النظام العسكري المملوكي كان يعتمد في حروبـه، إضـافة إلـى الجنـود المماليك المسلحين ضمن ديوان الجيش على الجيوش الإقليمية التابعة له والمنتشرة فـي كافـة أنحـاء السلطنة، وعلى المتطوعين من أهل البلاد والمناطق التي تقع فيها الحروب، وقد كـان هنـاك أيـضاً جيوشاً احتياطية تؤمن ما يحتاجه الجيش المركزي.

١- جيوش الأقاليم:

كان في كل إقليم "نيابة" نائب للسلطان وجيش تحت إمرته، يختلف عدده من مدينة إلى أخـرى بحسب أهميتها وأهمية الأمير الذي يتولاها، وكان الأمير عندما ينقل من نيابة إلى أخـرى، يعتـرض على هذا النقل، إذ كانت المدينة المنقول إليها أقل أهمية من المنقول عنها أو أن عـدد الجـيش فيهـا

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص ١٧٨.

(2) الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٤.

(3) المنصوري: ركن الدين بيبرس المنصوري الناصري الخطائي الدوادار المصري، (ت٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، التحفة المملوكية في الدولة التركية (تاريخ المماليك البحرية في الفترة ٦٤٨-٧١١هـ) نشره وقدم له ووضع فهارسه عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٨٧م، ج١٣، ص ٢٤٢.

أقل[1]. وقد كانت مهمة كل جيش في أي ولاية أو مقاطعة الدفاع عن المنطقة والتصدي للأعداء الذين يهاجمون حدود تلك المدينة أو النيابة، والدفاع عن الأمير، فإذا انتصر على العدو اكتفى بهـذا العـدد، وإلا طلب النجدة والمساعدة من السلطان ومن الجيش المركزي في مصر.

يحتوي الجيش الإقليمي على كامل الوظائف العسكرية من أتابك العساكر إلى أمراء العـشرات وطبلخانات وناظر للجيش[2] فقد كان الجيش الشامي يأتي بعد الجيش المصري مباشرة، إذ بلـغ اثنـي عشر ألفاً من أجناد الحلقة وثلاثة آلاف مملوك، ومن بعده الجيش الإقليمي في حلب حيث بلغ نحو ستة آلاف من أجناد الحلقة وألفين من المماليك[3]. ومن مهام تلك الجيوش مكافحة الشغب داخـل المدينـة، والقيام بالتدريب، وفتح الطرقات، وتحصين القلاع، وتسوير المدينة، وإيجاد التموينـات والتجهيـزات اللازمة للقيام بالأعمال القتالية عندما تدعو الحاجة.

كانت أعداد الجيش في الولايات غير متساوية إذ أن معظمها كان في دمشق، وأقله في الكرك، تأتي حلب في المركز الثاني بعد دمشق[4]، ومما ذكره بعض المؤرخين عن حلب أن بها ثلاث أمـراء برتبة مقدم ألف وثلاثون أميراً برتبة طبلخاناه، وعشرون ضابط آخر وقائد القلعة الذي كان مـستقلاً[5] إلا أن القلقشندي قد ذكر أن جيوشها من الترك وبها أمير واحد مقدم ألف غير النائب وبـاقي أمرائهـا طبلخاناه وعشرات وخمسات وغيرها، وبها من وظائف أرباب السيوف نيابة السلطنة وهي نيابة جليلة نائبها من أكبر مقدمي الألوف وهو في الرتبة الثانية في حلب[6].

ليس العدد واحداً في كل مكان وزمان بالنسبة لأعداء الجيوش الإقليمية، فهو يتغير تبعاً للمهـام المكلف بها، ولفكرة السلطان القاضية بإعادة تنظيم هذا الجيش أو الجيوش بما يتناسب مع الإمكانيـات والظروف الراهنة، فقد بلغ عدد الجيوش الإقليمية حوالي ٣٥,٠٠٠ ألف أو أكثر، بما في ذلك المماليك الذين كانوا يشكلون نسبة قليلة من تعداد الجيش العام[7].

٢- الجيوش الاحتياطية أو المساعدة:

إن معظم السكان الذين يدورون في فلك الدولة المملوكية كانوا قد خبروا الحياة العسكرية سواء أكان في ظلها أم في ظل من سبقها من الدول التي قامت، كالأيوبيين والفاطميين وغيرهم، بحيث يمكن

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٣٤.

(2) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١٣١.

(3) الظاهري، زبدة المصدر نفسه، ص ١٠٤.

(4) القلقشندي، المصدر السابق، ج٤، ص ١٨٢ و٢٧٤.

(5) Rey, E.: Les Colonies Franques des Syrie aux XII^{me} et XIII^{me} siècles librairie des Archives Nationals et de la Société de l'École des chartes, Paris, 1883, P. 143.

(6) القلقشندي، المصدر السابق، ج٤، ص ٢٤٠.

(7) الظاهري، المصدر السابق، ص ١٠٤.

القول أن هوية المجتمع المسيطر هي هوية عسكرية أكثر منها مدنية، خاصة وأن هذه المنطقة وعبر تاريخها الطويل لم تهنأ بالاستقرار ولا بالأمان بسبب الحروب والأحداث المتواصلة على أراضيها، الأمر الذي أوجد فيها بيئة عسكرية ساهمت في تغيير وجه مصر وبلاد الشام بالكامل.

إن حالة الحرب الشبه دائمة التي عاشتها تلك المنطقة فرض على تلك الدولة أن تنشأ جيشاً مركزياً يحمي حدودها ووجودها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى النيابات والمقاطعات التابعة لها في كافة أرجاء السلطنة بحيث يكون لديها جيوش احتياطية تعبأ عند اللزوم لمؤازرة ومساعدة الجيش النظامي في حال كان بحاجة إلى ذلك، أو في حالة الدفاع عن النيابة التي هو فيها.

لذلك فإن هذه الجيوش الاحتياطية، كانت توجد في كل ولاية أو نيابة من نيابات السلطنة، ويمارس الرجال أعمالهم المعتادة أثناء السلم وفترات الهدوء في البلاد. وهي تنتسب إلى فئات مختلفة من المواطنين منها: العرب والبدو الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة، ومنها الطوائف التركمانية والعشائر الكردية، ومنها المصريين. ولكل فئة من هذه الفئات جيشها المجهز بكل وسائل القتال والأعتدة التي تفرض عليهم من قبل الولاة والأمراء، كما أنه ولهذه الجيوش تقسيماتها وكامل وظائفها العسكرية التي يمارسها الجيش النظامي، ولها دور كبير في الحروب وبخاصة في الدفاع ومساندة الدولة المملوكية ضد أي اعتداء قد تتعرض له[1].

بلغ حجم الجيش من القبائل العربية واحد وتسعون ألفاً وقد كان مؤلفاً من عدة قبائل ويختلف حجم كل قبيلة وذلك تبعاً للإمكانات الاقتصادية المتوفرة، وكان من بين هذه القبائل آل فضل وعرب الحجاز وعرب هوارة[2] يفوق عدد القبائل الأخرى، إذ بلغ الجيش أربعة وعشرون ألف مقاتل، ثم يأتي بالدرجة الثانية عرب الحجاز والعراق إذ بلغ ألفي مقاتل، ثم يأتي بعد ذلك الأعراب الأخرى مثل الجزيرة ومتروك والجرم وجذام والعائذ ومحارب وفزارة وغيرهم، إذ بلغ جيش كل قبيلة من هؤلاء ألف مقاتل. وبلغ أيضاً حجم جيش التركمان مئة وثمانين ألف مقاتل[3]، وكان هذا الجيش منتشراً، ومقسماً في الطوائف التركمانية التي تسكن حول غزة إلى ديار بكر، وكان أشهر هذه الطوائف بكرو والبازاتية والأراكية الخربندلية وغيرها، حيث يشكلون جميعاً هذا الجيش الكبير الذي فيه من الأمراء خمسة وثلاثون، وكان كل أمير يقود ألفاً من المقاتلين، ولهم شدة وبأس في القتال.

---

(1) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١٠٥ و١٣٦.

(2) عرب هوارة: كانت متواجدة في الوجه القبلي وهي تنتشر في أرجائه انتشار الجراد وبسطت يدها من الأعمال البهنساوية إلى منتهاه حيث أسوان وما والاها وأذعنت لهم سائر العربان بالوجه القبلي قاطبة وانحازوا إليهم وصاروا طوع قيادهم، وقد كانت الآمرة فيهم في بيتين الأول بنو عمر محمد وإخوته ومنازلهم بجرجا ومنشأة إخميم وأمرهم نافذ إلى أسوان من القبلة وإلى آخر بلاد الأشمونين من بحري. والثاني أولاد غريب وبيدهم بلاد البهنسي ومنازلهم وهروط وما حولها. القلقشندي، المصدر السابق، ج٤، ص ٧٠.

(3) الظاهري، المصدر السابق، ص ١٠٥-١٠٦.

أما جيش الأكراد فقد بلغ عشرون ألف مقاتل، في حين أن المواطنين كانوا يشكلون ست وستون ألف مقاتل[1].

شكلت هذه الجيوش في الولايات التابعة للدولة المملوكية قوة كبيرة لا يستهان بها حين تدعو الحاجة، إذ تعتبر مقدراتها العسكرية رافداً كبيراً للجيش النظامي وقد كان لها دورها التاريخي والبطولي في معركة عين جالوت وغيرها من المعارك الأخرى.

٣- حجم الجيش المملوكي في معركة عين جالوت (نموذجاً):

اشترك في هذه المعركة كافة القيادات العسكرية المقاتلة، كالجيش النظامي وعلى رأسهم السلطان قطز نفسه مع ما رافقه من القيادات الملوكية ذات الشأن في الميدان والحروب، بالإضافة إلى الجيوش الإقليمية، ولاسيما الجيوش المصرية والحمصية والدمشقية، والجيوش الاحتياطية، بما فيها القبائل العربية والتركمان والأكراد. لكن هذه الجيوش لم تعبأ تعبئة كاملة، نظراً للخوف الشديد من الجيش المغولي الذي أرعب العالم في ذلك الزمان، ولأن هذه المعركة مصيرية بالنسبة للمماليك وأولى المعارك التي يخوضها الجيش المملوكي حيث لم تُختبر فيها قدراته القتالية بعد، ولأن الوقت لم يكن كافياً لحشد جيش كبير، حتى أعلن قطز التحضير للمواجهة مع المغول.

تحرك الجيش النظامي باتجاه بلاد الشام، وصارت تنضم إليه تباعاً القبائل والجيوش الإقليمية والاحتياطية، والسكان المحليين، وقد قدر المؤرخون حجم الجيش المملوكي في ذلك العصر بحوالي أربعين ألف مقاتل[2]. في حين قدره آخرون في حدود تسعين ألف مقاتل[3]. والرقم تسعون ألف هو أقرب إلى الحقيقة لأن بعد المعركة مباشرة، وبعد استلام الظاهر بيبرس الحكم كان في حدود أربعين ألف مقاتل، فضلاً عن انضمام الاحتياط والقبائل العربية إليه جعله ينتهي إلى هذا العدد[4]. وقد كان عدد الفرسان قليلاً في حدود عشرة آلاف فارس وأغلبهم من المماليك وقسم قليل من غيرهم ممن كانوا قد اشتركوا في المعركة[5].

---

(1) الظاهري، المصدر السابق، ص ١٠٥.

(2) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ق١، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(3) Laoust: Henri, Les gouvernement de damas sous les mamlouks et les Premiers ottomans, P. 4.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٢٠٣ و٢٥٩.

(5) الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد (٧٦٤-١٣٦٢م، فوات الوفيات، مطبعة السعادة ومكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٥١، م١، ص ١٦٩.

المبحث الرابع: الوظائف والرتب العسكرية:

إن من أهم الوظائف العليا في الدولة المملوكية، هي الوظائف العسكرية التي تتنوع اختصاصاتها وفئاتها، إذ أن مقدمي الألوف في الجيش المملوكي وهم من كبار القادة العسكريين يعرفون اليوم بالضباط أو الأمراء، في حين يعرف أمراء الطبلخانات في الوقت الحاضر بالضباط القادة. أما الفئة الثالثة من مقدمي الجند وأمراء العشراوات والخمسات[1] وهي الفئة دون الأمراء أو ما يعرف بالضباط الأعوان.

يمكن تصنيف وظائف ديوان الجيش إلى قسمين، فالقسم الأول عسكري بامتياز، فيما القسم الثاني يكاد يكون شبه عسكري وهو أقرب إلى الخدماتي أكثر وهو على الشكل التالي:

١- القسم العسكري:

أ- ديوان الجيش:

هو من أهم الدواوين في الدولة المملوكية، وكان يطلق اسم ديوان الإقطاع على ديوان الجيش لأنه المسؤول عن إقطاع الأمراء، وقد حرص السلطان الذي هو يتابع ويراقب هذا الديوان ويعين له شخصية لها مواصفات يحددها السلطان بنفسه[٢]، وديوان الجيش هذا كان يعرف بديوان الجند الذي أسس في عهد الخليفة عمر بن الخطاب لتنظيم الجيش نظراً لزيادة عدده واتساع مساحة الدولة نتيجة الفتوحات.

يذكر أن ناظر الجيش أي صاحب الديوان كان يجتمع مع النائب ولا يجتمع مع السلطان مباشرة، إلا أن الملك الناصر محمد بن قلاوون أبطل النيابة، فصار ناظر الجيش يجتمع بالسلطان[٣].

فقد كان لكل نيابة ديوان خاص بها، وأن يطلب السلطان الاطلاع على الديوان يعني أهمية الدواوين حتى في النيابات البعيدة عن مركز الدولة، فالدواوين كانت تشمل الإقطاعات والأعطيات ولابد من مراقبتها فهي تعني كل ما من شأنه أن يكون محلاً للاختلاس والفوضى، لأجل ذلك حرص السلطان وبنفسه على مراقبة الدواوين، وقد كان السلطان يأمر ويتابع جاهزية الجيش المملوكي والمتطوعين من خلال تلك الدواوين كي يتم النفير بسرعة إذا ما اقتضت الضرورة[٤].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٤-١٥.

(2) العسقلاني، الفضل المأثور في سيرة السلطان المنصور، ص ١٣٢.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص ١٦٦، ج٣، ص ٢٣٥.

(4) العسقلاني، المصدر السابق، ص ١٣٢.

أهمية هذا الديوان كان أكثر الدواوين دقة ضبطاً ونفعاً، ففيه تحفظ أسماء الجنود والأمراء والأوراق الخاصة بالتجهيزات والأعداد، وقد كان مقره في قلعة الجبل بجوار قصر السلطان[1] ومن مهمات ديوان الجيش متابعة أوضاع الجند وأحوالهم والمتأخرين من العسكر، ومتابعة أي جندي يحضر متأخراً وينظر في أمره من خلال الديوان، أما إذا كان تأخره بسبب المرض أو أي ظرف طارئ، فإنه يسجل ذلك الأمر من خلال أوراق خاصة بالمتغيب من الجنود، أي أن هناك ملف خاص لكل جندي وحتى الأمراء المقصرين والمتغيبين، حيث كان ينظر في أمرهم وتسجل تلك الحالات في السجلات الخاصة بإقطاعاتهم[٢].

ينقسم ديوان الجيش المملوكي إلى قسمين: ديوان الجيش المصري، وديوان الجيش الشامي. ويعاون ناظر الجيش صاحب الديوان وينوب عنه في حال غيابه، ويساعده أيضاً مستوفي الجيش، ومستوفي قطاع العرب، ومستوفي الرزق[٣]. ولكل واحد مهامه المحددة في النظام مثل مستوفي[٤] الجيش الذي يجلس بين يدي السلطان وله مقام خاص عنده وله حاجب وخازنان ونقباء أجناد، ولكل واحداً منهم أيضاً عمله المكلف به ومهمته النظر في أمور الجند فيما يتعلق بمهماتهم وخيلهم وحياتهم وصحتهم وما شابه ذلك من أمور[5].

وكان ديوان الجيش المملوكي قد تغير عن اعتماد الصرف المالي أي النقدي إلى نظام الاقتصاد الإقطاعي، وكانت تسمى السجلات الخاصة بالأمراء الإقطاعيين بالجريدة "الجيشية" وهي مرتبة حسب الحروف يكتب فيها أسماء الأمراء والإقطاعات على اختلاف رتبهم، وكذلك أسماء الجند ومساحة إقطاعاتهم وكان يوضع أمام كل اسم علامة معينة بحسب إقطاعه رمزاً لا تصريحاً[٦]، وذلك لضمان السرية وتجنب وقوع هذه الأوراق في يد عدو يستطيع من خلالها معرفة عديد الجيش ومدى قوته من خلال ما يملكه الأفراد من إقطاعات، كما أنه لم يثبت أن أي ديوان للمماليك حصر فيه عدد الجيش، وذلك للسرية وحتى لا يطلع أحد على حجم القوة لدى النظام العسكري المملوكي[٧]. وكان ممن اشتهر بتولي ديوان الجيش أو ناظر الجيش في الدولة المملوكية، القاضي فخر الدين بن لقمان الذي تولاه

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٣٦٥. متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، ص ١٣٠.

(2) العسقلاني، الفضل المأثور، ص ١٢٠-١٢١.

(3) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١٠٣-١٠٤. زكي، الجيش المصري الإسلامي، ص ٦.

(4) مستوفي: مصطلح كان يطلق في العهد المملوكي على موظف من كتاب الأموال بالدواوين، مهمته ضبط الديوان التابع له، والتنبه على ما في مصلحته من استخراج الأحوال ونحو ذلك، وقد كان لكل ديوان ناظر وتحته مستوفٍ وتحته شاد. حلاق، المعجم الجامع، ص ٢٠٤.

(5) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٤٢٤، ج٣، ص ٣٣٨.

(6) النويري، ‌اية الأرب في فنون الأدب، ج٨، ص ٢٠٢ و٢١٨.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٦.

مرتين[١]، والقاضي محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر السنباطي الشافعي قطب الدين[٢]، والقاضي مكين الدين إبراهيم بن قروينة[٣]، والقاضي سليمان بن الحسن جمال الدين[٤].

في عهد السلطان المنصور قلاوون تبدل اسم الديوان إلى اسم آخر، حيث عرف بكاتب "السر"، لكن وظيفة ناظر الجيش بقيت على ما هي عليه منذ تأسيس الدولة المملوكية حتى زوالها، فهو يعين ويرفع ويؤمن البريد وتسييره، وينظر في أبراج الحمام الزاجل وأمور الفداوية، والعيون والجواسيس ويعتني بأمور المراسلين الذين يحملون الكتب، وينظر في الأمور العامة التي تعود بالنفع على الجيش[٥].

ب- نقيب الجيش:

كان يساعد ناظر الجيش في عمله موظف كبير عرف باسم نقيب الجيش[٦]، وهذه المرتبة ذات أهمية عالية وكبيرة، وهو رئيس الحرس السلطاني، يمشي وينظم العرض والاستعراض العسكري في كل المناسبات، وهو الذي يتولى إحضار أو استعجال الأمير أو الجندي إذا طلب منه ذلك من قبل السلطان أو النائب أو حاجب الحجاب. وإليه يتبع باقي الموظفين[٧]. ويلعب نقيب الجيش أيضاً دوراً وسيطاً في الترقيات[٨]، وكانت توكل إليه أحياناً أمر موكب الحج، وقد كان يوجد منصب نقيب المماليك وهو أقل شأناً من نقيب الجيوش، إذ أن نقيب الجيش مسؤول عن الجيش المملوكي بأكمله وفي جميع أقطار الدولة، أما نقيب المماليك فهو مسؤول فقط عن المماليك السلطانية في الطباق[٩]، وقد كان يطلق عليه في الشام اسم نقيب النقباء[١٠].

---

(1) القلقشندي، المصدر نفسه، ج١، ص ١٣١.

(2) النويري، المصدر السابق، ج٣٢، ص ١٩٧.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٢، ص ٤٨٦، ج٣، ص ١٥٧ و٢٢٣.

(4) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، ص ٢٨٤.

(5) ابن مماتي: الوزير الأسعد شرف الدين أبو المكارم ابن أبي سعيد (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، قوانين الدواوين، مطبعة إدارة الوطن، ١٨٨١م، ص ٧.
الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٩.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١، ص ٤١٦. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٢٨.

(7) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص ٤٥ و١٥١ و٣٨٨.

(8) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٣٨٨.

(9) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج١، ص ٤١٦.

(10) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص ٤٢٩.

تعتبر وظيفة نقيب المماليك أهم وأرفع من وظيفة نائب دمشق على الرغم من أهمية نيابة دمشق بالنسبة للدولة المملوكية، فقد ورد أن "أيدمر العزي"[١]، كان نائباً عن دمشق وقد تمت ترقيته إلى نقيب المماليك السلطانية مما يعني مدى أهمية وظيفة نقيب المماليك السلطانية بحيث أن الأشرف خليل بن قلاوون هو الذي أمر بترقية نائب دمشق[٢].

تميزت وظيفة نقيب الجيش عن غيرها من الوظائف التي يمارسها ديوان الجيش من حيث المكانة والأهمية، إلا أن ذلك كان في بداية أحداث هذه الوظيفة، لأنه فيما بعد فقدت قيمتها وتدنت، وغدت كأنها وظيفة موجهة ضد الشعب، وذلك لما يتصف رئيسها وموظفوها من ترويع للمواطنين وأخذ أموالهم عند إحضارهم إلى السلطات المسؤولة[٣].

ج - طبلخاناه:

يتولى هذه المؤسسة أمير من أمراء العشرات مهمته الإشراف على شؤونها وتدريب أفرادها والإعلان عن كل مضرب بإيقاع[٤]. كما في رفع وتنزيل العلم في وقتنا الحاضر لدى المؤسسات العسكرية. وقد تولى هذه الوظيفة أمراء كثيرون ولهم ملاكهم الخاص من الموسيقيين الاختصاصيين، "كالزدكاش" وأمير "شكا" وغيرهم[٥].

وقد كان للسلطان موسيقى خاصة به، وكذلك للأمراء وقادة التشكيلات، وتستخدم هذه الفرقة الموسيقية في العروض والاحتفالات، وفي إعلان الحرب، كما كانت ترافق الجيش في الحملات القتالية، وفي الدعوة إلى الاجتماعات الطارئة والاستنفار. وكان لها دور كبير في إرهاب العدو أثناء القتال وإعادة تجميع القوات بغية تلقي المهام الجديدة، وكان ملاك الموسيقى في الجيش المملوكي أربعون من "الكوسات"[٦] وأربعة طبول صغار، وطبل كبير يطلق عليه الهول، وأربعة زمور، وعشرون نفير "بوق". ويتبع لكل أمير ثلاثة أحمال طبلخاناه ونفيران. ثم صار يتبع له بعد ذلك طبلان وبوقان فقط[٧].

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٨، ص ٢٠٤.
(2) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج١، ص ٥١٣.
(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٣٨٨.
(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٩٠، ج٨، ص ٨٠.
(5) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١١٤.
(6) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٨، ص ١٦٢.
(7) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٣، ص ٩١ و٩٥. ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج١٥، ص ١٥.

دقت واستعملت الآلات الموسيقية على نطاق واسع وبشكل كثيف جداً في معركة عين جـالوت وذلك لإرهاب العدو من جهة ولرفع المعنويات والروح القتالية للجيش المملوكي من جهة ثانيـة قبـل وأثناء القتال(١). أما موقع الطبلخاناه فكان تحت القلعة في جزيرة الروضة وسط النيل(٢).

٢- القسم الخدماتي:

أ- الاستادار "الاستدار":

هو المسؤول عن المطابخ والعاملين بها، والساعي إلى ما يلزم السلطان في الأسفار والحملات، وفيما بعد صار يتصرف بالأمور كوزير وأصبح له نفوذ في كل أمور ومفاصل الدولـة والجـيش(٣). ووظيفته في الأصل هي من وظائف أرباب السيوف.

وهو بهذه الوظيفة له علاقة بالإمداد والتموين في العمليات الحربية، وقد أضيفت هـذه الكلمـة إلى عدد من الوظائف التي تدل عليها مثل: استادار الصحبة والذخيرة والمالية(٤). ويتبع لهـذا الأميـر عدة مستودعات تموينية مختلفة تحفظ فيها الوسائط المادية لمدة سنة وتوزع وتصرف بمعرفة السلطان.

ب- المهمندار(٥):

وظيفته استقبال الضيوف من رسل الملوك أو العربان القادمين إلى السلطان، وتأمين ضـيافتهم وإكرامهم وتقديم ما يلزم لراحتهم وخدمتهم(٦)، وهذه الوظيفة كانت موجودة من قبل.

ج- الجاشنكير:

وظيفته تذوق الطعام والشراب قبل أن يقدم للسلطان أو الأمير وذلك للتأكد من أنه خـال مـن السموم القاتلة وما شابه ذلك(٧).

د- الأوجاقي:

ووظيفته التحضير لركوب الخيل إلى الحرب أو المواكب أو الرياضة أو التـدريب(٨)، وهـو الذي يقوم بحراسة الأسرى، إذ يركب على فرس وبيده خنجر مسلول وقد يردف أيضاً خلف المعتقـل من الأفراد ومن الأمراء، أو المساجين حتى يصل إلى المقر(٩).

---

(1) الناصري: محمد بن منكلي (ت٧٧٨هـ/١٣٧٦م)، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، دراسة وتحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب والوثائق القومية مركز تحقيق التراث، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٣٦.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ١٦.

(3) القلقشندي، المصدر السابق، ج٤، ص ١٣ و٢١.

(4) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١٠٦.

(5) لفظ فارسي مركب من (مهمن) معناه الضيف و(دار) معناه ممسك، فيكون المعنى ممسك الضيف. القلقشندي، ج٣، ص ٥٦٠.

(6) Gaudefroy; Suppl, Vol 3, P. 63.

السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢، ص ١٣٠.

(7) القلقشندي، المصدر السابق، ج١، ص ١٣١ و٥٠٦، ج٥، ص ٤٣٢.

(8) Dozy, R.: Suppl, Vol 11, P. 43.

(9) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص ٩٨، ج٣، ص ٧ و٣٢٤. السيوطي، المصدر السابق، ج٩، ص ١٤٧.

هـ - المشرف:

وظيفته يقوم بالإشراف على صحة الطبخ ونظافته[١].

أما بقية الوظائف مثل "الساقي"، وظيفته سقي المشروب، ووضـع الطعـام ورفعـه وتقطيـع اللحم[٢]، وكان رئيسهم يدعى (شاد الشراب خاناه)[٣]. "والجوكانـدار"، ووظيفتـه حمـل الجوكـان[٤] للسلطان للعب بالكرة[٥]. و"السنجقدار"، وظيفته حمل السنجق خلف السلطان[٦]. و"المرقدار"، وظيفتـه الخدمة في المطبخ وتأمين الطعام وحفظه وتقديمه[٧] و"البشمقدار"، يكلـف بحمـل نعـل الـسلطان أو الأمير[٨]، و"الجمدار"، ووظيفته إلباس السلطان أو الأمير. "شاد السلاح"، هـو الـذي يتـولى شـؤون السلاح[٩]. و"الركبدار"، أو الركبدارية، وهم الرجال المكلفون بحمل الغاشية بين يدي الـسلطان أثنـاء المواكب والاحتفالات[١٠]. و"المهتار"، هو الرجل الذي يعمل في البيوت ويقوم بجميع الخدمات، فيطلق عليه مهتار الشراب خاناه ومهتار الطست خاناه[١١]. و"الرختوان"، وظيفته الرجل الذي يتعاطى ويعمل في أمور القماش[١٢].

وهكذا فإن هناك الكثير من الوظائف الإدارية أو بمعنى الخدماتية، وأغلب رجالها يعملون فـي البيوت وخدمة الضباط وبعضهم في الأموال والإمداد والتموين والمشافي ومستودعات التخزين.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٢٧.

(2) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٥، ص ٤٢٦.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٠، ص ١٨٨ و١٩٢، ج١٥، ص ٤٥٠.

(4) الجوكان: هو لقب الذي كان يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة، ويجمع على جوكان دارية، وهو مركب من لفظتين فارسيتين إحداهما جوكان وهو المحجن الذي تضرب به الكرة ويعبر عنه بالصولجان، والثانية دار ومعناه ممسك، فيكون المعنى ممسك الجوكان. القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص ٤٣٠.

(5) لفظ فارسي مركب (جوكان) وهو المحجن الذي تضرب به الكرة ويقال عنه صولجان أيضاً، و(دار) معناه ممسك، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٣٠.

(6) لفظ تركي فارسي من (سنجق) معناه الرمح، (دار) معناه ممسك، يعني ممسك الرمح. القلقشندي، المصدر نفسه، ج٥، ص ٤٣٠.

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٩، ص ٥٤.

(8) لفظ تركي وفارسي، (بشمق) تعني النعل. (ودار) تعني ممسك، يعني ممسك النعل. القلقشندي، المصدر نفسه، ج٥، ص ٤٣١.

(9) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١١، ص ١٥٠ وج ١٢، ص ١٨٩.

(10) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج٦، ص ٢٣٦.

(11) لفظ فارسي مركب (مه) يعني الكبير، (تار) يعني أفعل التفضيل، يعني المهتار الأكبر. القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص ٤٤١.

(12) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص ٤٤٢.

استنتاجات:

ربما تشابهت هيكلية الجيش المملوكي التي اعتمدها مع من سبقه من الدول كالأيوبيين أو الفاطميين وغيرهم، وإن اختلاف التسميات إلا أن المماليك كانوا صارمين في تطبيق ما كانوا قد وضعوه من الوظائف العسكرية والإدارية.

وأمام هذا الكم من الوظائف العسكرية والرتب المتعددة والمتنوعة، استطاع الجهاز الإداري للجيش أن يقوم بمهامه على أكمل وجه في التوظيف والتقسيم والتشكيلات بالرغم من المهام الكبيرة الملقاة على عاتقه لناحية تقدير الملاكات وحجم الجيش وإعداد القوات المسلحة، تحديد نسبة المماليك والفئات الأخرى الداخلة في قوام الجيش المملوكي.

استطاع ديوان الجيش أن يسير عمل الإدارة العسكرية للجيش المملوكي بالرغم من اتساع أراضي السلطنة، وذلك يعود إلى القيادة الحازمة في تنفيذ الأوامر السلطانية خاصة وأن السلطان نفسه كان يطلع على أعمال هذا الديوان ومراقبة عمله.

الفصل الثالث

الانضباط والقضاء والمراسم والرايات وآلية الترقية في الجيش المملوكي

مقدمة

المبحث الأول: الانضباط والقضاء العسكري

١- الانضباط

٢- القضاء

٣- أنواع العقوبات والسجون

المبحث الثاني: المراسم السلطانية

١- مراسم الاستقبال

٢- المراسم المتبعة عند تعيين السلطان وخلعه

٣- مراسم استقبال وتوديع الجند

٤- مراسم استعراض الجيش

المبحث الثالث: الرايات المملوكية والرنوك

١- الرنك

٢- مراسم تأمير المملوك

٣- آلية ترقية المملوك

استنتاجات

الفصل الثالث

الانضباط والقضاء والمراسم والرايات وآلية الترقية في الجيش المملوكي

مقدمة:

مما لاشك فيه أن الانضباط هو الذي يقوم الإعوجاج ويمنع التجاوزات ويرسم مساراً صحيحاً للمؤسسة العسكرية المملوكية. لذلك فإن قوة الجيش في انضباطيته بحيث أنها تقل العقوبات وتتدنى إذا ما حافظ الجندي على النظام العام وطاعة مرؤوسيه وتنفيذ الأوامر المعطاة له. وبمثل ما كان الجيش المملوكي متصفاً بالشدة في التعامل مع الأعداء كان عليه أن يكون على نفس الوتيرة في تنفيذ العقوبات بحق العسكريين أو الضباط على السواء، ذلك إن التهاون في فرض العقوبات المسلكية بحق المخالفين للتعليمات سيؤدي ذلك إلى ضعف هيبة المؤسسة العسكرية وعدم أخذ أوامرها على محمل الجد خاصة عندما أخذت الخشداشية[1] تفعل فعلها في الجسم العسكري للدولة، وتقدم مصالح المسؤولين فيها على مصلحة الدولة بشكل عام.

المبحث الأول: الانضباط والقضاء العسكري:

١ - الانضباط:

ليست القوة والشدة في الانضباط، كما أن التساهل في فرض العقوبات للمخالفين يسيء ويصرف العسكريين عن مهامهم الأساسية، فالتشدد يعطي رد فعل سلبي يذهب بالجنود والمرؤوسين إلى كره رئيسهم، ومن ثم تركه أو التخلص منه. وهكذا كان بعض قادة الجيش المملوكي، إذا كان أتابك العساكر يشد ويضيق على مرؤوسيه، ويحاسبهم على هفواتهم بأشد وأقصى من نوع الجرم المرتكب مما يسبب في كراهيته والتآمر عليه وقتله في بعض الأحيان.

إن خرق الانضباط يعني وكأنها هزيمة قد حلت بالجيش، لقد انتصر الجيش المملوكي بفضل انضباطيته في معركة عين جالوت، ولكن ما لبث أن نسي الانضباط، وتفشت فيه الفوضى وعدم إطاعة المرؤوسين لرئيسيهم، والتطاول عليه في بعض الأحيان. وهنا والحالة هذه لا يجد القائد مفراً من مسايرة مرؤوسيه على حساب الانضباط[2]. فكثر الترفيع على غير الأسس المحددة التي كانت

---

(1) الخشداشية: زملاء في الخدمة أو من نفس دفعة التعيين في الخدمة، وهي تعني رابطة الزمالة بين الأمراء الذين نشأوا مماليك عند أستاذ أو سيد واحد. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٥٦.

(2) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣، ٢٦، و٢٧٨ و٢٨٠ و٣٥٩.

معهودة لدى الدولة سابقاً، وبحيث أنه يترقى الجندي إلى قائد وغدا الأجير أميراً[١] الأمر الذي سبب الكثير من الخلافات والاقتتال بين المماليك أنفسهم وانقسموا إلى فرق وأحزاب، وهمت كل فرقة أو تشكيل برئيسهم وقائدهم، فانتشر النهب والسلب والهرب من الجيش[٢].

٢- القضاء العسكري:

فقد كان على نحو المحاكم العسكرية المعروفة في وقتنا الحاضر التي تتولى محاكمة كافة العسكريين ومن مختلف الرتب الذين يتعرضون لمخالفات عسكرية ومسلكية تستدعي محاكمتهم أمام قضاة عسكريين خصصوا لهذه الغاية.

فالقضاء العسكري المملوكي كان مركزه القصور السلطانية، حيث يكون السلطان هو رئيس القضاء الذي ينظر في كافة الدعاوى العسكرية والمدنية التي تخص العسكريين، ويخصص لها يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع. والسلطان هو من يعين القضاة ممن يرى فيهم الثقة والورع والأمانة[٣]، وتتألف المحكمة من السلطان رئيساً وعلى يمينه قضاة المذاهب الأربعة ثم وكيل بيت المال ثم الناظر في الحسبة، ويجلس عن يساره كاتب السر وأمامه ناظر الجيش وكتاب الضبط الموقعين، وأما الوزير من أرباب الأقلام يجلس بين السلطان وكاتب السر وإن كان من أرباب السيوف كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف، وكذلك الأمر إن كان نائباً وقف مع أرباب الوظائف، ويقف من وراء السلطان مماليك صغار وهم من المقربين له، وعن يساره من السلاحدارية والجمدارية والخاصكية[٤]، ويجلس على بعد بقدر خمسة عشر ذراعاً عن يمنته ويسرته ذوو السن من أكابر أمراء المئين وهم أمراء المشورة ويليهم من أسفل منهم أكابر الأمراء وأرباب الوظائف وقوفاً وباقي الأمراء وقوف أيضاً من وراء المشورة، ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والداوادارية لإحضار قصص أرباب الضرورات وإحضار المساكين وتقرأ عليه القصص فما احتاج فيه إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه وما كان متعلقاً بالعسكر تحدث فيه مع الحاجب وناظر الجيش ويأمر بالبقية بما يراه[٥] وقد يتبدل

---

(1) ابن أياس، المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٦٣ و٣٧٥. ج٤، ص ١٧.

(2) القرماني: أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت١٠١٩هـ/١٦١٠م)، أخبار الدول وآثار الأول، مطبعة دار السداد، بغداد ١٨٦٥م، ص ٢٠١. ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣، ص ٣٢٣ و٣٦٣ و٣٣٨. ج٤، ص ١٧.

(3) زيادة: نقولا، دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت ونيويورك، ١٩٦١م، ص ٦٤.

(4) الخاصكية: مصطلح أطلق في العهد المملوكي على جماعة من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من مماليكه الأجلاب (الجلبان) ويتميزوم عن غيرهم من المماليك بحملهم سيوفهم إبان الخدمة، وكثيراً ما كانوا يتوجهون في المهمات السلطانية ويتأنقون في مركبهم وملبوسهم، وكان عددهم في بداية الأمر أربعة وعشرين ثم زادوا على الأربعمئة، وقد تمتع الخاصكية بمكانة كبيرة، وكانوا يدخلون على السلطان في أوقات فراغه وفي خلوته بغير إذن، وخصص لهم السلاطين الأرزاق الواسعة والعطايا الجزيلة. حلاق، المعجم الجامع، ص ٧٩.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٦.

وضع الجلوس في هيئة المحكمة بتبدل الملوك، إذ يجلس قاضيان من القضاة الأربعة وهمـا الـشافعي والمالكي عن يمينه والحنفي والحنبلي عن يساره، ويلي القاضي المالكي من الجانـب الأيمـن قـضاة العسكر الثلاثة السابق ذكرهم الشافعي ثم الحنفي ثم المالكي ويليهم مفتو دار العدل على هذا الترتيـب ويليهم وكيل بيت المال ثم الناظر في الحسبة، وربما يجلس المحتسب فوق وكيل بيـت المـال، وكـل هؤلاء صف واحد عن يمين السلطان مستدبرين جدار صدر الإيوان مستقبلين بابه. وعلى هذا المنوال من تأليف المحاكم اتبعت معظم نيابات السلطنة هذا التقليد[١].

وبدار العدل كان القاضي العسكري يحضر مع القضاة الأربعة، وله مكان مخصص يجلس به، ويسافر مع السلطان في جميع حروبه[٢]. وقد كان يستمع إلى جميع المنازعات بين الخصوم كل علـى حدة في غياب الخصم الآخر، كما كان يستمع إلى الشهود على انفراد أيضاً، وقد تطول المحاكمة عـدة أيام ريثما تتجلى الحقائق ليصدر حكمه في القضية الماثلة أمامه[٣]، وكان القـضاة ورؤسـاء هيئـات المحاكم والسلطان والأمراء يقسمون يمين الولاء والإخلاص أمام حشد كبير من القضاة والأمراء[٤].

كان قطز القائد الأعلى للجيش وهو الذي يتولى رئاسة المحكمة، وقد حضر الأمراء والقـضاة وفق المراسيم المعتادة عند انعقاد هيئة المحكمة للنظر في محاكمة كتبغا قائد المغول الذي أسـر فـي معركة عين جالوت، وقد وجهت التهم إليه لارتكابه أعمالاً وحشية وسفك دماء وقتـل للأبريـاء دون رحمة أو وجه حق وهدم للبيوت وأماكن للعبادة، وقد اعترف كتبغا بما نسب إليـه مـن هـذه الـتهم والحقائق، لكنه كان يزدري المحكمة والأشخاص الذين يحاكمونه ويهدد ويتوعد، ويحذر من معاقبتـه بجيش مغولي آخر، ويفاخر ويعتز بقائده الكبير، وبناءاً على ما كانت قد تقدمت بـه المحكمـة بحقـه واعترافه بكل ما نسب إليه تم تنفيذ الحكم فيه سريعاً القاضي بقطع رأسه[٥].

بتنفيذ المماليك حكمهم بكتبغا بكل جرأة ودون تردد ومن موقع قوة لا ضعف فيه أبـداً، هـذا الحكم آثار حفيظة هولاكو الذي عبر عن ذلك بإرسال العديد من الجيوش للانتقام لكنها جميعها بـاءت بالفشل وذلك بسبب وفاة العديد من أمراء الحروب لديه الذين كان يعتمد عليهم في حروبه[٦].

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٤٦. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٣٦٥.
(2) سرور: محمد جمال الدين، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٣٨م، ص ١٤٠.
(3) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٢٢٨.
(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٢، ص ١٠٢.
(5) الهمذاني: رشيد الدين فضل الله بن عمار الدولة (ت٧١٨هـ/١٣١٨م)، جامع التواريخ، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٩٦٠م، ج٢، ق١، ص ٣١٠-٣١٣. القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، ص ١٩٨.
(6) متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢، ص ١٨٦-١٨٧.

٣- أنواع العقوبات والسجون:

كانت العقوبات كثيرة التي يعاقب عليها القضاء العسكري في الجيش المملوكي والأمر عينه بالنسبة لمن سبقه من الدول أو من عاصره، حيث كان يعاقب بالسجن لأي شخص سواء أكان من العامة أم كان عسكرياً في حال ارتكابه جريمة يعاقب عليها القانون سواء مصدر العقوبة الوظيفة أو السياسة. وقد انتشرت السجون في أماكن مختلفة في البلاد، واختص منها قسم للعسكريين والأمراء، وقسم آخر للجرائم العادية أو السياسية، وأغلب السجناء كانوا يسجنون في القلاع مثل: قلعة الكرك، وبانياس المعروفة باسم "الصبيبة" وقلعة دمشق(١). ويذكر أن السجن الذي كان داخل قلعة الجبل، كان مظلماً يسجن فيه الأمراء والمقدمون(٢). وأيضاً سجن البرج الذي كان يزج فيه الأمراء(٣).

و"الزردخاناه" الذي خصص للأمراء وأرباب الوظائف وقادة الجند(٤)، وسجن "الصيار" الذي يسجن فيه الولاة وخزانة "البنود" في القاهرة وقد كانت خزانة لصنع السلاح ثم تحولت فيما بعد إلى سجن للأمراء والأعيان، وسجن المعونة في القاهرة وكان معداً لسجن الأشخاص الذين ارتكبوا الجرائم الكبيرة وقطع الطرق، وسجن المقشرة في القاهرة بجانب باب الفتوح للجرائم الشائنة(5). وكان السجين يلبس لباساً خاصاً ومميزاً، واسع الكمين، مسدود الصدر وهو كالقباء في شكله ويضرب بخيط من الحرير ويغلب على لونه البياض وكانوا يطلقون عليه "الملوطة"(٦).

بالرغم من أن الدولة المملوكية قد قامت على أساس ديني قبل كل شيء واتخذت من الشريعة الإسلامية نهجاً لأسلوب الحكم في جميع أنحاء السلطنة، فقد عمدت إلى إبدال بعض القوانين المستوحاة من الشريعة الإسلامية بقوانين المغول التي وضعها جنكيز خان (قانون الياسة) بحيث أنهم حرفوها إلى "سياسة"، وبعملهم هذا كانوا قد فقدوا أمور العدل والقضاء في حكمهم وأحكامهم، وكان ذلك سبباً في انهيار دولتهم فيما بعد(٧).

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص ٢٨١.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص ٥.

(3) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٩، ص ٥، ج١٢، ٢٨٧.

(4) المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص ٢١١ و٢٣٤.

(5) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٣٢٨-٣٢٩.

(6) ماير: ل.أ. الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٥٢، ص ٤٥.

(7) مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومد ا وبلادها القديمة والشهيرة، ج١، ص ١٣٧.

المبحث الثاني: المراسم السلطانية:

١- مراسم الاستقبال:

هي ما يعرف اليوم بالتشريفات التي تقوم بها القوات المسلحة في مناسبات معينة، التـي تقـام للسلطان أو الأمراء أو قادة الجند احتفاءً بهم فيما المراسم تقام عند استقبال الضيوف الرسميين للـدول كسفراء أو مبعوثين في ذلك الزمن، وأيضاً لأصحاب الوظائف العسكرية العليا. والمظاهر التقليدية عند اللقاء في المعارك القتالية وعند العرض والاستعراض(١).

٢- المراسم المتبعة عند تعيين السلطان وخلعه:

الخليفة هو من يقوم بتعيين أو تولية السلطان بإلقاء الخلعة السلطانية السوداء وعمامة سوداء(٢)، ثم يقوم الأمراء بحلف يمين الإخلاص والطاعة للسلطان الجديد(٣). أما عن خلع السلطان وعزله مـن قبل الأمراء وفي بعض الأحيان يتفق الأمراء على تعيين سلطان جديد، فيحضرون الخليفة لكي يفيض عليه الخلعة، ومن ثم تأخذ شكلها القانوني الرسمي بحضور القضاة(٤).

وفي مراحل معينة من الحكم المملوكي يقوم أحد الأمراء المتنفذين كأتابـك العـساكر بخلـع السلطان وتنصيب آخر وذلك نتيجة ضعف السلطان نفسه، فينقسم الأمراء حينئذ بين فريق مع السلطان المخلوع، وآخر مع السلطان الجديد(٥). أحياناً وبسبب ما يتعرض له السلطان من ضغوط يمارسها عليه خاصيته ومماليكه يضطره الأمر إلى خلع نفسه(٦) وعلى إثر ذلك يقوم الأمراء بالمسير أمام الـسلطان الجديد حتى يصلوا به إلى قصر السلطنة "الإيوان" فيجلس على كرسي الملك، ويقبل الأمـراء الأرض بين يديه ويحلفون له(٧).

استثني من إجراءات التعيين هذه المظفر قطز كونه كان لم يزل قائداً للجيش في معركة جالوت، فلما وصل إلى رتبة "أتابك العساكر" قام بخلع السلطان المنصور علي ونصب نفسه مكانه وفق إجراءات المراسم المعتادة ومن ثم استلم الحكم وقاد المواجهة في عين جالوت(٨). هذا مع العلم أن الخليفة في حينها

---

(1) هل: ي، الحضارة العربية، ترجمة إبراهيم أحمد العدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦، ص ٨٥.

(2) السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢، ص ٥٣.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٢، ص ١٠٢ و١٧٦.

(4) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج١٥، ص ٢٥٦.

(5) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج١١، ص ٣٢٩.

(6) الشرقاوي: عبد الله، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين، المطبعة الأزهرية المصرية، طبعة أولى، ١٨٩٣م، ص ١٣٤.

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ٤.

(8) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج١، ص ١٧٤. عاشور، سعيد عبد الفتاح: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٢م، ص ١٦٧.

لم يكن قد حضر إلى مصر، أي أن الاجتماع كان خال من الخليفة، وما عدا ذلك فـإن المراسـم كانـت كاملة عند تنصيبه، وإن هذا التقليد كان المماليك قد ورثوه عن الأيوبيين واستمروا على نهجه.

٣- مراسم استقبال وتوديع الجند:

يقوم السلطان القائد الأعلى للجيش بتوديع الجند الذين يذهبون لقتال العدو في مكـان التجمـع المخصص لمثل ذلك الأمر، ومن ثم يقوم باستقبالهم عند انتهاء العمليات وقدومهم إلى البلاد[1]. هذا إذا لم يكن القائد العام قد نفز مع الجيش، أما إذا كان مع الجيش كما في معركـة عـين جـالوت، فـإن المواطنين والمتخلفين لأسباب ضرورية يقومون بتوديع الجيش والدعاء له بالنصر. لقد بذل الشعب كل ما يستطيع وأنفق ما في وسعه للجيش وقائده عندما خرج للقاء الجيش المغولي[٢].

وبانتصار الجيش المملوكي في عين جالوت عاد المظفر قطز واحتفى به الناس ونـصبت لـه الزينة وأقواس النصر وعم الفرح جميع البلاد.

ومن العادة المتبعة في ذلك الزمن إذا خرج الجيش في مثل هذه الحالة لم يتخلف رجل واحد أو فارس واحد عن اللحاق بالجيش، وكذلك الأمر في عهد الظاهر بيبرس ومعاركه التي تلت. فإنه ينفـر مع الجيش والشعب نفرة رجل واحد[٣].

٤- مراسم استعراض الجيش:

يجري استعراض الجيش من قبل القائد الأعلى، ومن قادة التشكيلات، وهذا الاستعراض إما أن يكون تدريبياً ولتفقد عدة الحرب والتأكد من جهوزيتها، وزيادة في نشاط العسكريين وحثهم على اقتناء السلاح والمحافظة على الانضباط، وكان الاستعراض يبدأ من طلوع الشمس حتى غروبها. وقد كـان كل أمير مع جنوده في لباس الحرب الكامل ويركبون الجنائب[٤] ويمرون أمام السلطان، وكانت تشكيلة العرض مرتبة خلف بعضها بترتيب خماسي ثم عشري كما في تشكيلات العرض المختلفة في الجيـوش الحالية. وبعد الانتهاء من العرض ينزل السلطان من المنصة ويسير بين الجنود ويستعرضهم تشكيلاً تلو الآخر حتى ينتهي إلى آخرهم. بالإضافة إلى الخيول التي كانت تزين بشريط في صـدرها، والأسـلحة الحربية المذهبة التي على ظهرها[5]. وكثيراً ما كان الاستعراض يجري قبل المعركـة، والغايـة منـه الوقوف على حقيقة واقع الجهوزية للعسكريين، واستكمال للنواقص، وتنظيم للقطاعات والتشكيلات[٦].

---

(1) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣، ص ٤٣.

(2) الشرقاوي، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين، ص ١٢٥.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٨٢.

(4) وهي الخيول التي تسير وراء السلطان في الحروب لاحتمال الحاجة إليها. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٥١٦.

(5) المقريزي، المصدر نفسه، ج٢، ص ١١.

(6) هل: ي، الحضارة العربية، ص ٨٥.

المبحث الثالث: الرايات المملوكية والرنوك:

سارت الدولة المملوكية على خطى من سبقها من الدول في الاهتمام بالرايات كجزء لا يتجـزأ من التاريخ الإسلامي، وهذا الأمر ليس مرتبطاً بالتاريخ الإسلامي وحده بل إن أمم أخرى وكثيرة كانت اعتبرت راياتها من أولويات جيوشها لينسحب هذا الشيء على مسار التاريخ ويطال جميع جيوش العالم حتى يومنا هذا.

أظهرت الدولة المملوكية راياتها ورنوكها في جميع المناسبات وبخاصة أوقات الخـروج إلـى الحرب، وهي التي يتخذها السلطان والقادة العسكريون لإظهار رهبتهم وإرهاب عدوهم وبث الشجاعة في نفوس الجند والقادة على السواء، والاستبسال في القتال كي تبقى تلك الرايات مرفوعة حتى لا تؤثر على معنويات العسكريين خلال المعركة، لأنها تعد كالإشارة بالنسبة للجند، فإن تعرضت إحدى فرقـه للخطر والهزيمة كان يأمر القائد أن تلف راية هذه الفرقة، وأما في حالة الانتصار يأمر القائـد بنـشر الرايات إيذاناً بالنصر واستمراراً في ملاحقة فلول الأعداء[1]. ولتلك الرايات أشكال وألـوان ورمـوز معينة ودلالات يفهمها أفراد الجيش في كل الحالات سواء في الحرب أو في المناسـبات الأخـرى[2]. وأهم تلك الرايات هي:

١- الرنك:

اعتاد سلاطين الدولة المملوكية وأمرائها على اتخاذ شعار لهم اعتبروه رمزاً لهم يمثلهم ويمثل الصفات الحربية للمقاتل الذي كان يفتخر بالشجاعة والإقدام في ذلك العصر، وكانوا يطلقون عليه اسم (الرنك). ولعل هذه الرنوك مستوحاة من الأيوبيين الذين حكموا مصر، أو من الإفرنج الذين أتوا به من بلادهم[3].

عند تأمير المملوك في الدولة المملوكية كان يمنح "رنكاً"[4] يدل على شـعار وظيفتـه، التـي استخدمها المماليك للدلالة على إشارة أو شعار أو علامة يتخذها المملوك لنفسه عند تأمير السلطان له، والتي تكون ذات صلة وثيقة بالوظيفة التي سوف يشغلها بعد تأميره[5].

لقد تضمنت الرنوك المملوكية صوراً مختلفة أهمها: البوق وحذوة الفرس والـسيف والبقجـة والكأس.

---

(1) العسقلاني، الفضل المأثور في سيرة السلطان المنصور، ص ٧٦.

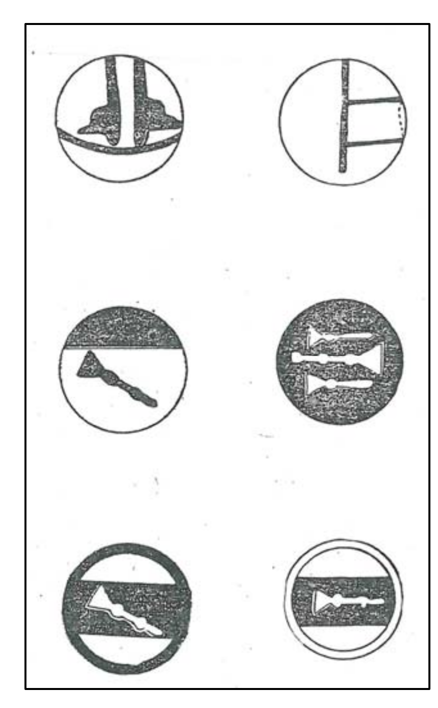
(2) ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص ٢٥٩ و٣١٧، ابن خلدون، العبر، ج١، ص ٢١٥-٢١٧.

(3) طرخان، مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة، ص ٣٢٤-٣٢٥.

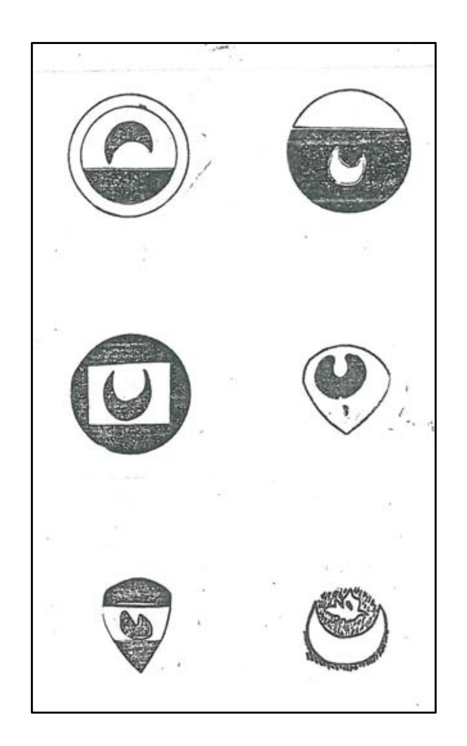
(4) هو لقب فارسي معرب وأصله بالفارسية (شش رنك) ومعناه ستة ألوان وهي الشاه والمراد ا الملك والفرزان والفيل والفرس والرخ والبيدق. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ١٥٨، وج ٤، ص ٦٣.

(5) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ٨١.

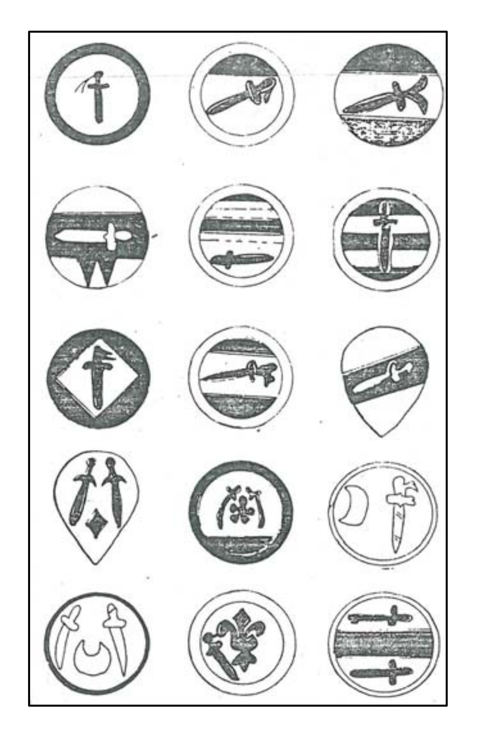
رنك البوق وحذوة الفرس والسيف[١]



رنك البوق



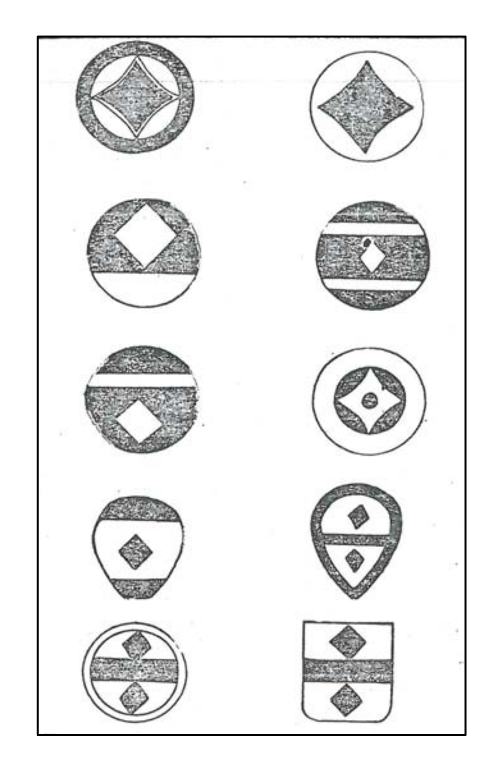
رنك حذوة الفرس



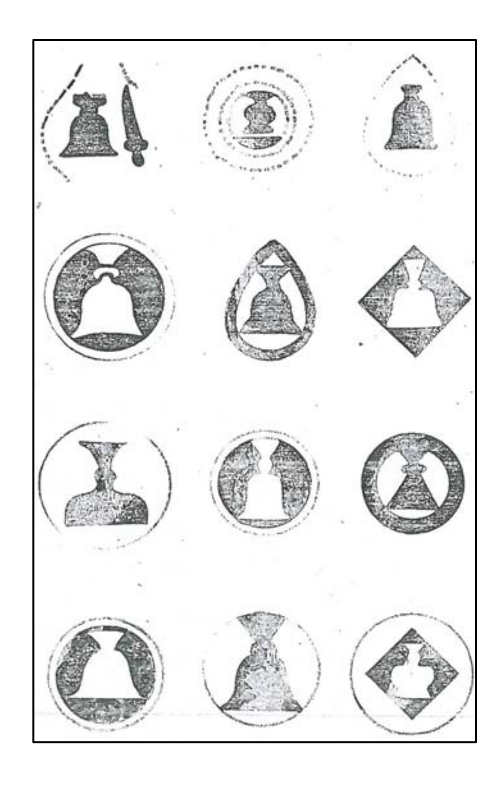
رنك السيف

(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ٨٤ و٨٥ و٨٧.

رنك البقجة والكأس[1]



رنك البقجة



رنك الكأس

(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ٨٩ و٩١.

ففي البداية كان الرنك يحتوي على صورتين ثم إلى تسع فيما بعد، وأحياناً تتكـرر الـصورة نفسها كما في رنك "أتابك العساكر" ومرداش الظاهري، ويشبك الشعباني، أو ثلاث أو أكثر، وفي كـل الأحوال فإنها تدل على تاريخ السلطان أو الأمير. فالذي كانت وظيفته أمير أخور مثلاً كـان "رنكـه" يحتوي على "حذوة فرس"، والجمدار بقجة والسلاح دار[1].

يوضع الرنك عند رسمه على قماش خيوطه من جوخ مقصوص وعلى قمـاش جمـالهم مـن خيوط صوف ملون تنقش على العبي والبلاسات[2] ونحوها، كما نقـش علـى الـسيوف والأقـواس والأدوات المعدنية والخشبية والزجاجية[3]. وكل شيء يعود في ملكيته لهذا القائد أو ذاك. والرنك هـو رسم لشيء معين مثل حيوان أو طائر أو نبات أو أداة على غرار ما هو معمـول بـه فـي القـوى العسكرية الحالية.

وهذه الرنوك تعبر عما يتصف بها الأمير من صفات وتترجم لاسم ذا معنى أو على الأقل إلى صفة يتمناها الشخص الذي اختار الرنك أن تكون فيه هو. وذلك نتيجة انفعالات نفسية داخل صـاحب الرنك التي من الممكن أن تؤدي إلى الدلالة على صفة محببة لصاحب الرنك ومجموعته[٤].

عندما أقبلت "رنوك" قادة الجيش المملوكي لمواجهة الجيش المغولي في عين جالوت عند طلوع الشمس. وقد شاهدها كتبغا قائد المغول الذي كان يراقب المعركة[5]، ظهر رنك الظاهر بيبـرس قائـد الطليعة وتظهر عليه صورة السبع التي تدل على بطولته وشجاعته[٦]. وقد اعتاد بيبرس على أن يكون هذا الشعار موجوداً على كل التماثيل والحاجيات الخاصة به، إذ أقام أربعة تماثيل ُأسود علـى قنطـرة الخليج بالقاهرة[٧].

(1) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع ادهور، ج٣، ص ١٤٣.

(2) كلمة فارسية تعني السجاد السميك، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٦٣.

(3) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٤، ص ٦٣.

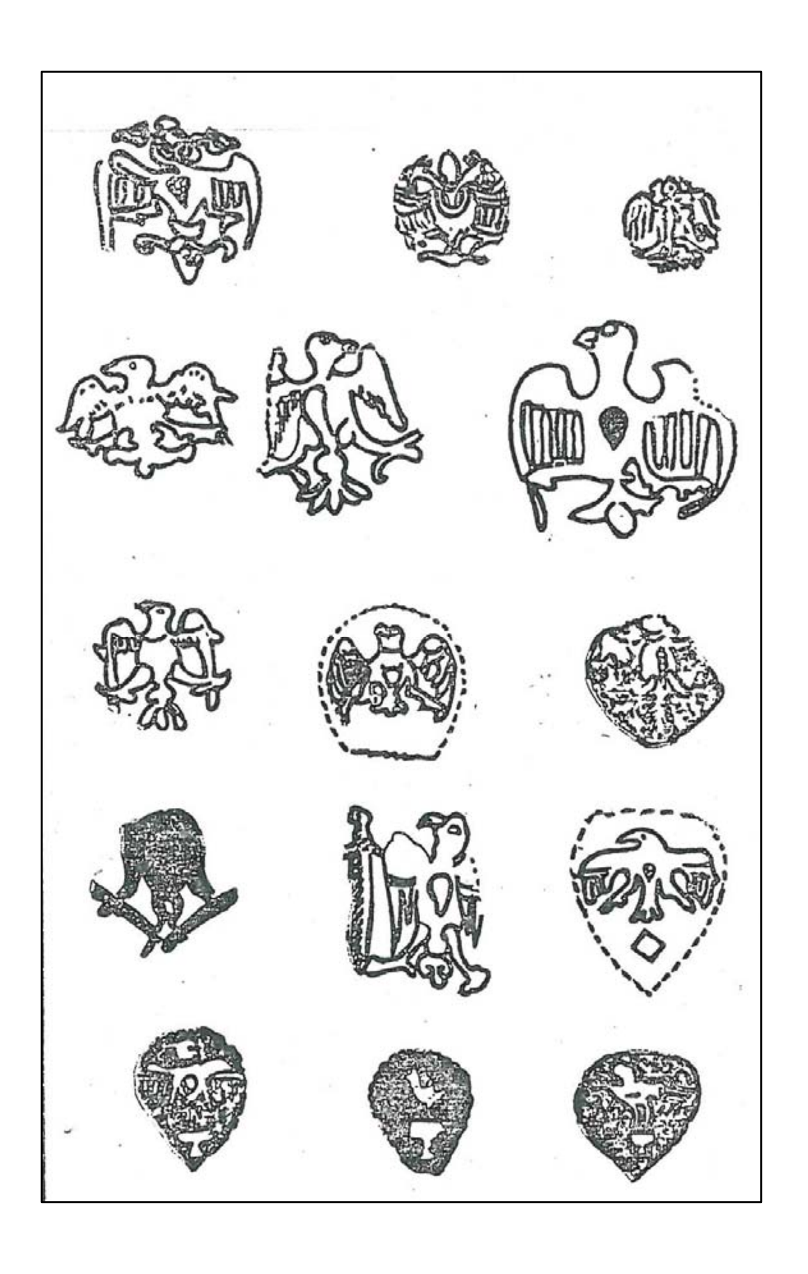
(4) ابن أياس، المصدر السابق، ج١، ص ١١٠. القلقشندي، المصدر نفسه، ج٤، ص ٦٣.

(5) الشرقاوي، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين، ص ١٢٥.

(6) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٣٦١. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٣٦٠.

(7) المقريزي، المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٦٠.

رنك الطائر[1]



(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ٩٢.

وحمل أنوك بن الناصر قلاوون وهو أمير مائة مقدم ألف رنك جده قلاوون، ونقش السلاطين شـعبان وعلي وحاجي من أسرة قلاوون زهرة الزنبق على نقودهم، وهي الزهرة التي اتخذها ملـوك فرنـسا رنكاً لهم، وجعل الأمراء رنوكهم دهاناً على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كمطـابخ الـسكر وشون الغلال والأملاك والمراكب[1].

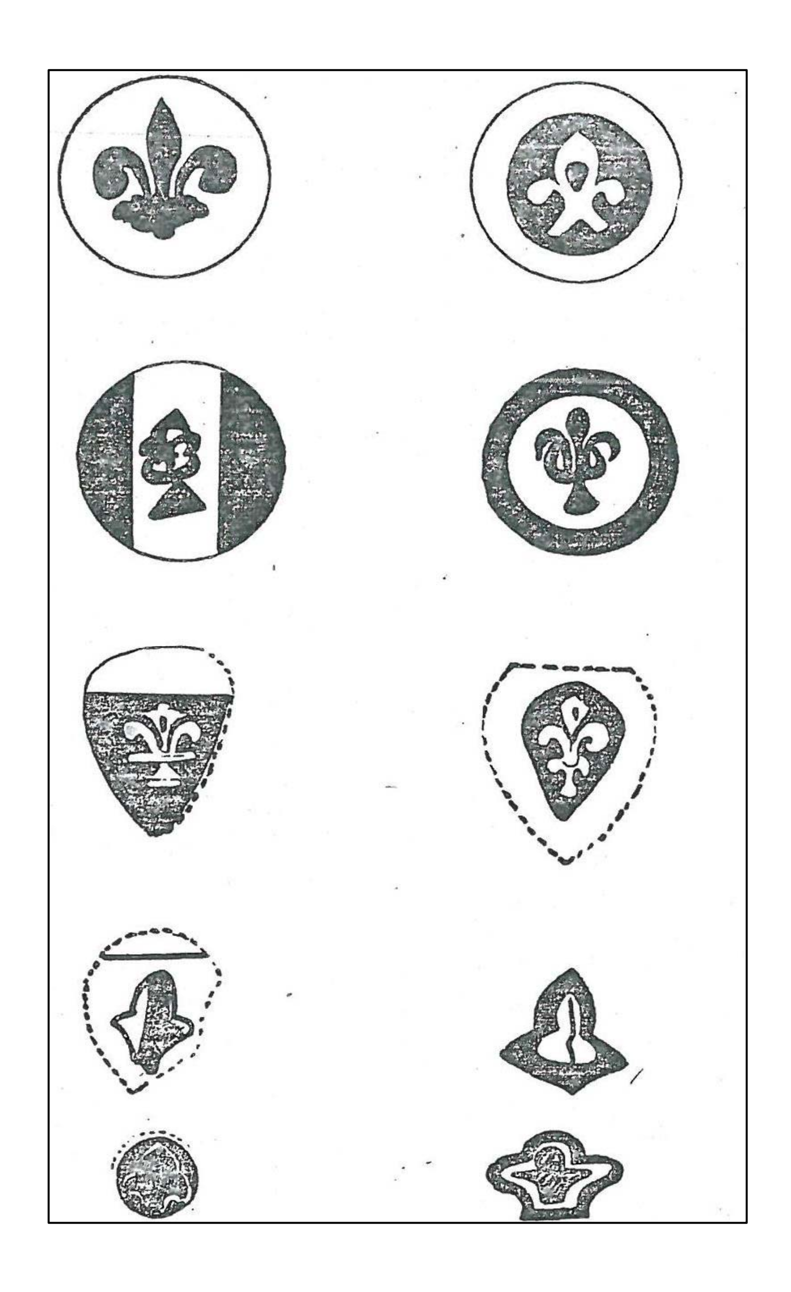
إن كل هذه الصفات المطلوبة كانت قد فرضتها المؤسسة العسكرية المملوكية، وإن كانت هـذه الصفات أو الأسماء تدل على شيء فإنها تدل على طبيعة الجند وما زرع فيه من أساس التربية والنشأة العسكرية التي تبين إظهار الذوق في اختيار الشعار أو الرنك الذي يريد. ففي الإجـراءات الخاصـة بالشؤون الإدارية لمنحه الرنك حيث يترك للأمراء حرية اختيار رنوكهم. وقد جرت العادة أيضاً أنه إذا منح أحد الأمراء رنكاً معيناً يبقى محتفظاً به طوال حياته[2].

---

(1) العريني، المماليك، ص ٢٢٩.

(2) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ٨٢.

رنك زهرة الزنبق[١]



(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ٩٠.

ولسلطان المماليك ثلاثة أعلام أحدها من الحرير الأصفر المطرز بالذهب ينقش عليه ألقاب السلطان واسمه، يسمى العصابة جمع عصائب، ويحمله العلم دار(١). والثاني كبير أبيض تعلق في أعلاه خصلة من الشعر يسمى الشاليش(٢)، وهو أصغر في العصابة وأكبر من السنجق. وقد كان المماليك يطلقون هذا اللفظ على طليعة جيشهم(٣). والثالث راية صفراء صغيرة تسمى السنجق أصغر من العصابة والجاليش، ويحملها السنجقدار، وفي حالة الحرب يخرج السلطان في جيشه بالأعلام الثلاثة معاً(٤). كما عرف بما يسمى (رنك الشطف) وهي شارة ملكية تحمل كما يحمل اللواء على رأس أمير الجيش(٥).

وهناك أيضاً من الرايات الخاصة بالسلطان والتي كانت تحمل في المناسبات خارج إطار الحروب وعلى سبيل المثال: الجتر، وهي عبارة عن مظلة أو قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب في أعلاه طائر من فضة مطلية بالذهب، وتحمل على رأس السلطان في موكب الصيد(٦). وراية أخرى تسمى الغاشية، وهي سرج من جلد موشاة، وهي تحمل أمام السلطان من قبل الركبدارية أو "الركابدارية" في المناسبات ولاسيما في العرض والاستعراض وتحمل هذه الراية في الأعياد ولونها أطلس أصفر مزركش من اعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة، يحملها يومئذ بعض أمراء المئتين الأكابر(٧).

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٣٥.

(2) أو الجاليش، كلمة تركية تعني المقدمة وقد يأتي معناها اسم الرجل الذي يتولى قيادة المقدمة أو مقدمة الجيش (الطليعة). ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٣، ص ٣٦٦. القلقشندي، المصدر نفسه، ج٤، ص ٧.

(3) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ١٤٦.

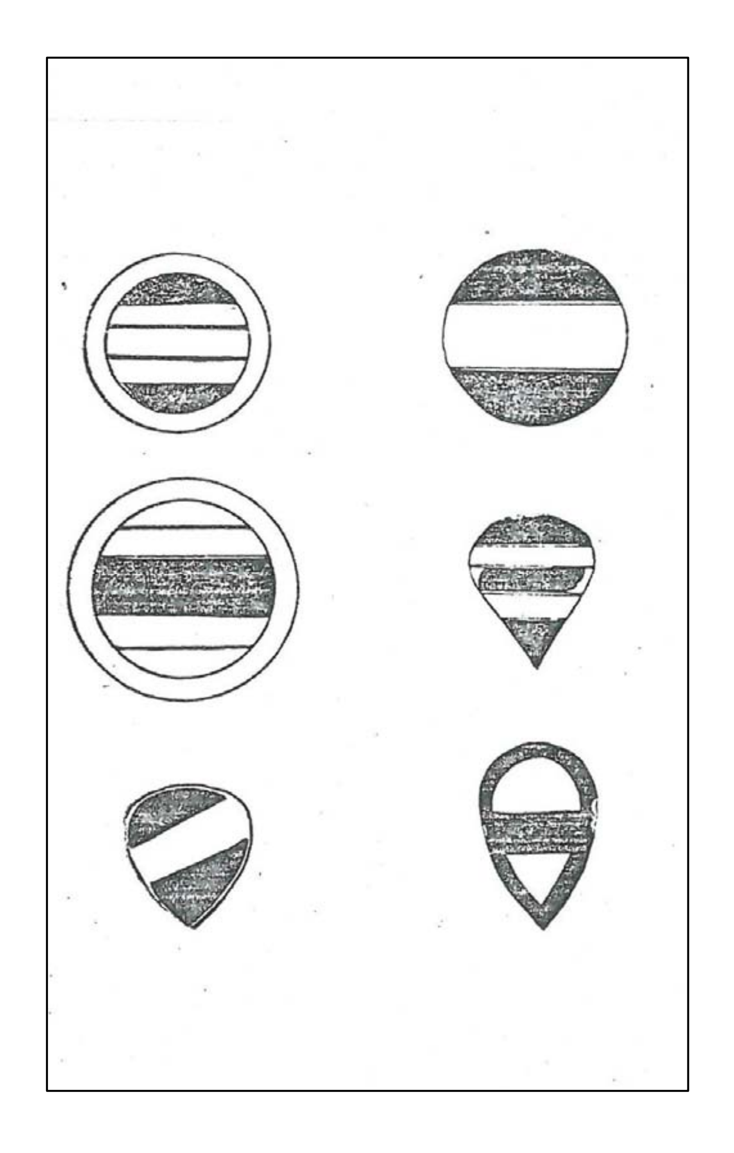
(4) المنصوري، التحفة المملوكية في الدولة التركية، ص ٩٥.

(5) ابن أجا: محمد بن محمود الحلبي (ت٨٨١هـ/١٤٧٧م)، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك (رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار) حققه محمد أحمد دهمان، دار الفكر، طبعة أولى، دمشق، ١٩٨٦، ص ٩٤.

(6) القلقشندي، المصدر السابق، ج٤، ص ٤٨.

(7) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٣٥١. القلقشندي، المصدر نفسه، ص ٤، ص ٦.

رنك الشطف[١]



(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ٨٦.

٢- مراسم تأمير المماليك:

إن التقليد المتبع في الدولة المملوكية عند تأمير أحد المماليك، أن ينزل من قلعة الجبل وعليه التشريف والشربوش، وتوقد له شوارع القاهرة، فيسير إلى المدرسة الصالحية بين القصرين، ويحلف عند قبر الصالح أيوب بالقبة بجوار هذه المدرسة، ويحضر تحليفه حاجب الحجاب. وتبدأ اليمين التي يحلفها الأمير بإقرار من الأمير عن نفسه، والقسم بالله سبحانه وتعالى وبالقرآن الكريم، وبالنبي (ﷺ)، بأن يظل طوال حياته مخلصاً للسلطان، متفانياً في خدمته ومحبته ونصحه، وأن يكون ولياً لمن والاه وعدواً لمن عاداه. ثم يمد السماط السلطاني لمن حضر وشارك الاحتفال بتنصيب الأمير من خاصكية السلطان من السلحدارية والداودارية، والجمدارية، حتى إذا انتهى السماط خرج الأمير في موكب من القبة الصالحية، متجهاً نحو القلعة، فيجلس له في طول شارع القاهرة أهل الأغاني، ليزفوه عند صعوده إليها وعند نزوله منها[١].

وقد جرت العادة أيضاً أن يتم تأمير عدد من المماليك في وقت واحد، وأن يقدم حاجب الحجاب لكل واحد منهم بوقاً وعلماً، نيابة عن السلطان، ويلبس الأمير شربوشاً مكللاً مزركشاً، وهو غطاء للرأس يشبه التاج على شكل مثلث يلبس بغير عمامة، كما يرتدي تشريفاً، وهو خلعة تتناسب مع رتبة الأمير ووظيفته. ثم يركب الأمير فرسه تحت السنجق يحف به الأمراء تحت سناجقهم، ويشقون القاهرة، وينتهي الاحتفال بطلوع الأمير وأصحابه إلى القلعة[٢].

٣- آلية ترقية المملوك:

خضعت الترقية في الدولة المملوكية لاعتبارات مختلفة، من حيث تطويع الفرد وخدمته في الجيش المملوكي، وكيفية ترقيته والمكافآت التي يستحصل عليها طوال خدمته في الجيش المملوكي. ففي الاعتبار الأول الخاصكية الذين هم من أسرع المماليك السلطانية في الترقية بعد تخرجهم من الطباق والذي يختارهم السلطان لجمال خلقتهم وطول قامتهم، فيتدرجون قبل تأميرهم في وظائف الجمدارية والسلحدارية والداوادارية والاوجاقية والخازندارية، ويسيرون في سلم الترقية أسرع من سائر المماليك السلطانية[٣]. وعن الأدلة على مكانة الخاصكية أن السلطان إذا غضب على أحد منهم رده إلى المماليك السلطانية، فلا يستطع استعادة ثقة السلطان إلا بمجهود كبير، فالسلطان برسباي لم يسمح برجوع تغري برمش الجلالي إلى موضعه بين الخاصكية إلا بسفارة نائب حلب ورجائه[٤].

(1) الباز العريني، المماليك، ص ١٣٥-١٣٦.

(2) الباز العريني، المرجع نفسه، ص ١٣٧.

(3) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرف والمسالك، ص ١١٦.

(4) العريني، المرجع نفسه، ص ١٣٩.

أما عن الاعتبار الثاني للترقية، إذ تلعب العصبية والجنس دوراً في ذلك فيما إذا كان تركيا رقي في العصر الأول ورفع بسرعة، وإن كان شركسياً في العصر المملوكي الثاني رفـع أيـضاً وبـسرعة، وهكذا فقد أصبح القفز في العليا دفعة واحدة أمراً مألوفاً في عهد (الشراكسة-الجراكسة) المماليـك، فقـد أنعم برسباي على أخيه يشبك بإمرة طبلخاناه، وبعد فترة وجيزة منحه إمرة مائة ومقدم ألف في مصر[١].

وفي الاعتبار الثالث للترقية تلعب الخجداشية أو الخشداشية دوراً في الترفع إلى رتبة أعلى أو في تولي المناصب الرفيعة في الدولة المملوكية الثانية. وهي تعني الزمالة في الخدمة والرق والعتـق وغيرها، فيطلق عليهم الرفقاء خشداشية، وهي إن ترفع أحداً منهم في الترقية رفع زملاؤه معه الـذين كانوا سوية في العمل[٢]، أو بما يعرف اليوم بأولاد الدفعة الواحدة فـي القـوى العـسكرية الحاليـة. فالسلطان بيبرس الجاشنكير عين نواباً له في نيابة دمشق لأنهم كانوا من زملائه[٣]. في حين من سـبق زملاؤه في الترقية إلى رتبة أعلى ومن نفس الدفعة يعود إلى البطولات الحربية التي قام بها الجنـدي أثناء الحرب حيث يرقى على الفور إلى رتبة أعلى، ففي معركة عين جالوت إذ أقدم الجندي "آقـوش الشمسي" على أسر كتبغا قائد الجيش المغولي وذلك عندما تسلل من وحدته العسكرية وقصد مقر قيادة الجيش المغولي وتمكنه من إلقاء القبض عليه، فرقي على إثر هذا العمل البطولي إلى مرتبة الـضباط، وولي ولاية حلب فيما بعد وبقي فيها حتى مماته. وكذلك عندما هاجم الظاهر بيبرس انطاكية وتمكـن أحد جنوده من أسر كند اصطبل عم هيثوم ملك أرمينا الصغرى، فأنعم عليه السلطان بترقيته إلى أمير عشرة وأن يضع رنك كند اصطبل على سنجقه المملوكي[٤]. كما رقي "مأمور بن عبد الله القلمطـاوي" إلى أمرة مائة مقدم ألف كونه خشداش السلطان برقوق[٥].

لم تحدد المدة للترقية من رتبة إلى أخرى، إذ يبقى المملوك مدة قصيرة في رتبته الحاليـة ثـم يرقي إلى رتبة أعلى. وهكذا وفي غضون بضع سنوات يصبح المملوك أمير مائة مقدم ألف. فالمملوك شيخ المحمدي تدرج في رتبته حتى وصل إلى مقدم ألف في غضون ثمان سنوات[٦].

لم يعد الترقي إلى الوظائف العليا في الدولة المملوكية كما كانت عند بداية تأسيسها في العصر الأول القائم على الخبرة والتدريب العالي، فقد أصبح في العهود الأخيرة للدولة قائماً على ترقيـة مـن يكون مقرباً من السلطان أو الأمير سواء بدافع القرابة بصلة من الصلات أو بطبيعة الخشداشية فيمـا

---

(1) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج٢، ص ٤٤٧. ج٤، ص ٥٥.
(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٤٧٢. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ٥٦.
(3) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج٨، ص ٤٦.
(4) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج٧، ص ٧٩ و٩٣.
ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٦، ص ٧٣. المقريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ١٣٧.
(5) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج٦، ص ١٦١.
(6) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٥٧. السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٣، ص ١٩ و٣٠٨.

بينهم، أو مقابل دفع الرشاوى والبراطيل التي نخرت جسد المؤسسة العسكرية في عهد الجراكسة. فقـد كان يرقى المملوكي من جندي إلى أمير دفعة واحدة دون المرور باختبارات معينة تؤهله لذلك ويرقى "اللحام" أي الجزار من وظيفته هذه إلى ناظر للدولة مرة واحدة، إذ أنه خلع لباس الـسوق "الزفوريـة" و"المرقدارية" كما كانوا يطلقون عليه في ذلك الزمن، ولبس لباس رؤساء الكتاب، لا لعمـل عملـه أو تضحية قدمها، أو لعلم تعلمه، إنما حصل على تلك الوظيفة بكثرة الرشاوي الذي دفعها وما قدمه مـن أطباق شهية للملوك والأمراء، وصار يدعى بالوزير والقاضي بعد أن كان يدعى بالمعلم الذي لا يحسن القراءة والكتابة[١].

(1) الحلبي، تحفة الظرفاء في مناقب الملوك والخلفاء، ص ٧٧١ و٧٨٠.

استنتاجات:

اتصف المماليك في بداية حكمهم بالقسوة والشدة في التعامل مع الخصوم والأعـداء، وربمـا انسحب هذا الأمر على مجمل نظامهم الداخلي، إذ أنهم كانوا مضطرين على تطبيق النظـام والقـانون بحزم لاسيما في مؤسساتهم العسكرية، لأن أي تهاون أو تقاعس في تنفيذ الأوامر والتوجيهات المعطاة يعرض تلك المؤسسة التي هي علة وجودهم إلى الاهتزاز والفوضى. فالتساهل في فرض العقوبة بحق المماليك المخالفين أو التجاوز عن ارتكبات كبار الأمراء والضباط، لا يمكن أن يؤسس لمرحلة طويلة الأمد في حكم الدولة لأنها سوف تسقط من الداخل قبل أي مواجهة خارجية، وهو الأمر الـذي بـدأت تظهر بوادر سيأته مع العهد المملوكي الثاني والذي ترجم فيما بعد إلى سقوط دولة المماليـك حينمـا تسلموا زمام الحكم.

إن مبدأ الثواب والعقاب كان متبعاً في كثير من مرافق الدولة المملوكية وخاصة فـي عهـدها الأول، إذ أن الجيش حظي برعاية كبيرة من السلاطين وقد بدا ذلك واضحاً من خلال المكافآت التـي تصرف للجيش عقب عمليات التدريب وقبل وبعد أي مواجهة عسكرية، كما كان للمماليك نصيب كبير من الترقيات التي يستحقونها عن جدارة نتيجة قيامهم بأعمال بطولية قاموا بها، على عكس ما كان قـد اتبع في عهد دولة الشراكسة التي قامت على الرشاوى والبراطيل لاعتلاء المناصب في ظل غيـاب أو وجود لأدنى مقومات الكفأة والدراية بأمور الحكم والقيادة.



الفصل الرابع
التربية والتدريب العسكري

مقدمة

المبحث الأول: التربية والتنشئة العسكرية

المبحث الثاني: التدريب العسكري

١- الإعداد التربوي العسكري

٢- الحياة العسكرية

٣- الإعداد العلمي والثقافي

المبحث الثالث: أماكن ومراكز التدريب

المبحث الرابع: تدريبات الجيش المملوكي على جميع صفوف الأسلحة

١- التدرب على الخيل

٢- التدرب على السيف

٣- التدرب على الرمح

٤- التدرب على الرمي

٥- التدريبات الرياضية

٦- التدريب البحري وبناء السفن

استنتاجات

الفصل الرابع
التربية والتدريب العسكري

أولت دولة المماليك كسابقتها الأيوبية التدريب أهمية بالغة، لأنه لا يمكن لأي دولة أن تحصن نفسها داخلياً والدفاع عن حدودها خارجياً ما لم يأمن لها جيش قوي حسن التدريب والنشأة، وأن يكون قادر على استخدام كافة أنواع الأسلحة بمختلف الظروف القتالية:

المبحث الأول: التربية والتنشئة العسكرية:

اتبعت الدولة المملوكية نهجاً تكاد تكون قد انفردت به وحدها بين جميع الدول التي قامت في مراحل التاريخ الإسلامي، إذ جعلت التربية أساساً وهو المنطلق الأول لبناء قواها العسكرية المتميزة في ذلك العصر. فقد أخضعت جميع مماليكها عند شرائهم صغاراً إلى برنامج تربوي خاص بهم تبدأ بتعليمهم القرآن والفقه(١). ومبادئ القراءة والكتابة وتقرر لهم جامكية(٢)، وقد كانت الطواشية(٣)، هي المسؤولة عن تربية المملوك داخل الطباق على الحشمة والحرمة وإتباع الشريعة الإسلامية في جميع مناحي حياته، بل كانت كل طائفة لها فقيه يحضر لها كل يوم ويعلمها أمور الدين الإسلامي من القرآن والسنة ومعرفة الخط وملازمة الصلوات والأذكار وتعلم آداب الشريعة بالكامل قبل امتطاء صهوة الجواد وحمل السيف والرمح والتوجه إلى ميادين القتال، ولا يتم تعليمهم الفروسية إلا حينما يشبوا(٤). وكان ممن اشتهر بتربية المماليك وتأديبهم الشيخ "يوسف الدباغ المصري الشافعي"(٥)، ولقد اتصف المماليك الذين جلبوا من بلاد الترك والقوقاز بالشدة والصبر والجرأة وبشكل خاص في الحروب، وأن التربية الصارمة والحازمة التي خضعوا لها جعلت منهم سادة يحكمون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله، وأهل سياسة يمارسون سياسة يستطيعون من خلالها تدبير أمورهم وشؤون دولتهم.

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٣٧٢. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٩، ص ٧٣.

(2) راتب شهري يصرف للجندي يحدده السلطان، ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج١٤، ص ١٣٩.

(3) جمع طواشي وهم المربين والمقاتلين في الطباق، وليس الخصيان الذين يعملون في خدمة السلطان وحريمه إنما يحملون الاسم نفسه أو اللقب. المقريزي، المصدر السابق، ج٤، ص ٢٢٧. طرخان، النظم الإقطاعية، ص ١٦٣.

(4) المقريزي، المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٧٢.

(5) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٩، ص ٢١٧ وج ١٠، ص ٣٤٠.

خضع المماليك لرقابة صارمة خلال فترة وجودهم في الطباق، فقد كان هناك متابعة لأعمالهم وسلوكهم، بحيث أنه يعاقب المملوك على أي خطأ يخل بالآداب العامة كان قد اقترفه، ووصل بهم الأمر في ذلك إلى أنه إذا بلغ المسؤول عن أحدهم أنه اغتسل أحد الجنود المماليك من جنابة كان ينظر في سرواله، فإذا به مني لا يعاقب باعتبار أنه احتلام، فإن لم يجد به أثر جنابة جاءه الموت من كل مكان.

أخضعت الدولة المملوكية المماليك الذين يتم شرائهم لفحوصات طبية قبل الموافقة على قبولهم وإدخالهم إلى الطباق، وقد طبقت المؤسسة العسكرية هذا الأمر على جميع المماليك للتأكد من سلامة صحتهم وعدم وجود أي أمراض قد تصيب غيرهم من المماليك داخل الطباق[1].

اهتم جميع سلاطين الدولة المملوكية بمماليك الطباق ليس بالتربية الحازمة وحسب إنما من حيث الإغداق عليهم بكافة الأطعمة والشراب والملبس، وقد كان السلطان بنفسه يشرف على تلك الأمور.

مع بداية وقيام الدولة المملوكية والتي كانت قد اهتمت بالتنشئة العسكرية على أكمل وجه، بل شجعت عامة الناس على تعلم لعب الرمح ورمي النشاب ليكونوا جاهزين في الأزمات، حتى أن السلطان نفسه كان يشجع العامة على تعلم الفروسية وأساليب الحرب وليس الأمر منوط بالجيش وحده، لذلك فما بقي أحد من العامة والجيش لا يتقن ذلك[2].

المبحث الثاني: التدريب العسكري:

التدريب هو مقدمة للعمليات التي يقوم بها الجيش بخبراته العسكرية التي اكتسبها في الحروب أو من خلال تدريبات قاسية ومتواصلة في ميادين التدريب واستخدامه لشتى أنواع الأسلحة المتوفرة لديه. وقد اعتمد الجيش المملوكي في تدريباته على خلق صورة مطابقة لأرض المعركة والتدريب عليها بما يعرف اليوم بالمناورات وذلك ليكون على أتم الاستعداد لأي طارئ أو خطر قد تتعرض له الدولة.

لقد تدرب الجيش المملوكي على جميع صفوف الأسلحة، مما يلفت النظر إليه أن العصر المملوكي اعتمد كثيراً في تدريبه على السيف والرمح والنشاب والصولجان وغيرها، وأغلب الملوك

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٣٧٣.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٥٥.

والسلاطين والأمراء المماليك هم من الفرسان الذين على علم بالرماية ولعب الرمح وضـرب الـسيف وخفة الحركة في ساحة الميدان وعلى معرفة واسعة بفنون القتال[1]. وأهم صفات التدريب هي كالآتي:

١- الإعداد التربوي العسكري:

يشمل المؤخرة كما المقدمة، والجندي والقائد والقوات البرية والبحرية بحيث أنـه لا يـستثنى أحداً، والتدريبات تطال جميع أنواع الأسلحة المستخدمة في القتال، واللياقة البدنية للمحافظـة قـدرات المقاتل الجسدية من خلال اللعب بألعاب فيها من الخشونة والقسوة كاللنجة والسباق والمصارعة[٢].

٢- الحياة العسكرية:

عندما يتم تنشأة المملوك في الطباق وتربيته تربية إسلامية شاملة، وتعليمـه أصـول العقيـدة وأحكامها ونظرتها للجهاد على أيدي مهرة كأمثال ابن الشحنة وابن حجر العسقلاني القلقشندي وبيبرس المنصوري[٣]، تكون بذلك أولى الخطوات والأساسية في بناء شخصية المقاتل على أساس عقائدي قبل أي شيء آخر، بالإضافة إلى تعليمه التاريخ والأدب والشعر واللغات التركية منها والعربية يزداد مـن خلالها سعة في العلم والمعرفة. وبعد ذلك ينتقل المملوك إلى مرحلة الإعداد الحربي والتعـرف علـى أمور القتال فيتدرب على ركوب الخيل ويتدرج بذلك من القتال على ظهرها، والركض والوثوب عنها، ثم ينتقل إلى الرمي على القبق، والضرب بالسيف والطعـن بـالرمح واسـتخدام الـدبوس، ولعـب الصولجان، والتدرب في جميع الميادين العامة والخاصة، ليتخرج بعدها مقـاتلاً قويـاً فـي العقيـدة والقتال[٤].

لا يعني أن المقاتل إذا أتقن ما تم ذكره يبقى بعيداً عن الميادين المتخصصة بأعمال التدريب والقتال أو أن يتوقف عندها، إذ أن المواظبة على ذلك هي الأهم بالنسبة لاستمرارية الدولة وضمان وجودها.

وهكذا فإن المقاتل المملوكي لم يترك ميادين التدريب المتعددة والتي يلتقـي فيهـا المقـاتلون ليقوموا بتدريباتهم في ميادين الأخضر والأسود والصيد والناصري المخصصة للسباق[5]، والصالحي[٦] والظاهري[٧] وبركة الفيل[٨]، وسرياقوس أيضاً[٩]. إذ يواصل العسكري المملوكي تدريبه من الـصباح

---

(1) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣، ص ١٠٥.

(2) متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢، ص ٢٥٧. زكي، الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص ١٥-١٦.

(3) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، ص ٥٠ و٣٥٦.

(4) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، ص ١٥١، ج٣، ص ٢٠١ ابن خلدون، العبر، ج٥، ص ٣٧١.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٧٤ و٣٩٩، ج ١٤، ص ٣١٠.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص ٣٣٨.

(7) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٢٣٥.

(8) المقريزي، المصدر نفسه، ج٣، ص ١٩٨.

(9) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٤٢٢.

إلى المساء سواء أكان الجو ماطراً أو بارداً أو حاراً، فإنه يتابع برنامجه التدريبي دون كلل، أو ملـل، وكذلك كان للمشايخ دوراً في التعبئة العقائدية للمقاتلين الذين كانوا يرتادون دور القرآن ودور الحديث المنتشرة في كل مكان وأشهرها النورية[١]، والسكرية[٢]. وأيضاً دور الـصوفية (الخوانـق)[٣] التـي تدرس فيها مختلف الطرق الصوفية الروحية كالأندلسية[٤] والمجنونية[٥].

إن التدريب المتواصل للمقاتل المملوكي على الصعيدين المعنوي والجسدي جعلت منه جنـدياً من الطراز الأول في ذلك العصر من حيث الجاهزية القتالية الفورية والتصميم على بذل كل ما بوسعه لتحقيق النصر على الأعداء مهما كلفه ذلك من التضحيات.

٣- الإعداد العلمي والثقافي:

سطع نجم المماليك في ميادين القتال التي خاضوها بجانب سادتهم الأيوبيين في ميادين عـدة، وكان أبرزها معركة المنصورة التي أظهرت براعتهم في القتال واستخدام السلاح، وإتقان تنفيذ الخطط للإيقاع بالعدو. كما كان لمعركة عين جالوت مساحة أكبر للقادة والأمراء في إظهار مقدرتهم وخبراتهم على نطاق واسع نتج عنه فيما بعد خبراء واختصاصيين في مجال علم الأسلحة في ذلك الوقت والـذي أصبح لها مدربون شغلوا وظائف عسكرية في الجيش المملوكي. فقد أصبح لكل مـادة مـن صـنوف الأسلحة مدربون متخصصون بها. فالنشاب اختص به قادة عسكريون عرفوا بـه يقومـون بتدريبـه وتعليمه للفرسان المبتدئين ولم يكتفوا بذلك بل أنهم قاموا بتأليف الكتب العديدة التي تبحـث فـي هـذا السلاح وقواعده وأصوله وأجزائه وكذلك بقية الأسلحة التي كانت تستخدم في ذلك الوقت.

---

(1) النورية: دار حديث، أول من أنشأها الملك العادل نور الدين محمود زنكي في دمشق، قيل واقفها عصمة التي تحيل أ ا كانت زوج صلاح الدين. النعيمي: عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت٩٢٧هـ/١٥٢٠م)، الدارس في تاريخ المدارس، حققه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، طبعة أولى، ١٩٩٠، ج١، ص ٧٤.

(2) السكرية: دار الحديث، تقع بالقصاعين داخل باب الجابية، وولي مشيختها الشيخ الإمام العالم الفقه شهاب الدين عبد الحليم ابن الشيخ الإمام العلامة مجد الدين عبد السلام بن عبدالله بن القاسم بن محمد بن الخضر بن تيمية الحراني. و ا كان مسكنه، وتم تدريس ولده الشيخ ا. النعيمي، المصدر نفسه، ج١، ص ٥٦.

(3) الخوانق: هي بمثابة الزوايا، ومفردها خانقة ويتنافس الأمراء بمصر في بنائها ويرتادها أو يقيم منها الفقراء وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف، ولكل زاوية أو خانقة شيخ وحارس. ابن بطوطة، تحفة النظار، ج١، ص ٢٠٤.

(4) الأندلسية: أو ما يعرف بالخانقاه الأندلسية، وهي مدرسة صوفية تقع شرقي العزيزية والأشرفية، عرفت بتلك التسمية نسبة إلى أبي عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الأندلسي. ومن صوفيتها العلامة شهاب الدين أحمد العنابي. النعيمي، المصدر السابق، ج٢، ص ١١٠.

(5) ا نونية: مدرسة صوفية تقع شرقي الشامية البرانية بالعقيبة، كان قد أنشأها شرف الدين بن الزراري المعروف بالسبع مجانين بعد سنة الثلاثين وستمائة. وأول من ذكر الدرس ا شيخ يقال له عز الدين أحمد بن محمد بن علي الموصلي فتوفي فيها ومن أبرز من درس ا أيضاً سنة أربعين وسبعماية الشيخ الفاضل علاء الدين علي أب الإمام شرف الدين الحسين بن علي بن سلام الدمشقي. النعيمي، المصدر السابق، ج١، ص ٣٥٧.

فالمنجنيق والسيف والرمح كان لهم رجال متخصصين بشؤونهما، كتبوا عن هذه الأسلحة بكل ما يتعلق بها وبتفاصيلها واستعمالاتها المختلفة[١]. وكان من أهم العلماء الذين تخصصوا بالأسلحة والقتال هو الرماح الأحدب للرمح، وطبيغا الأشرفي للنشاب، والزردكاش للمنجنيق[٢]. ومما يلفت النظر إليه في هذا الصدد أن هؤلاء العسكريين كانوا على جانب كبير من العلم والمعرفة بأسلحتهم وطرق قتالها مما يتيح للجيش المملوكي أن يكون من أوائل الجيوش في عصره تدريباً وقتالاً.

يتدرج المدرب حسب خبرته في مجاله ومقدار تحصيله للعلوم إلى ثلاث درجات الأولى يكون فيها معلماً والثانية أستاذاً والثالثة رئيساً، ولا يرقى من درجة إلى أعلى إلا إذا حصل على نجاح في الاختبار وقدم شيئاً جديداً من مؤلفاته وخبرته في العلوم العسكرية، فكان الطبيغا معلم الرمح في عهد برسباي، وتمراز بن عبد الله الناصري الظاهري معلم الرمح في عهد برقوق[٣]، وكذلك كان كزل بن عبد الله السودوني[٤]. أما الأمير أقبغا التمرازي فهو أستاذ في ركوب الخيل وطرق القتال، ونال هذه الدرجة بعد أن اجتاز الأولى بنجاح[٥]، أما الأمير جمال الدين مكي بن حسون فقد كان رئيساً وعالماً بركوب البحر وقائداً للأسطول ومعلماً في أصول الملاحة وعلوم البحر[٦].

المبحث الثالث: أماكن ومراكز التدريب:

انتشرت المدارسة العسكرية المملوكية في مصر على نطاق واسع وأصبحت تؤمن للطالب كل ما يحتاجه من أمور التدريب، كما توجد فيها المستودعات والمكتبات والاصطبلات والخيول للتدريب، ومصانع الأسلحة وكل ما يتعلق بها وبصنعها وحفظها وصيانتها وتوزيعها، كما توجد أيضاً المساجد لإقامة الشعائر الدينية والتدريب على العقيدة. وكانت هناك مدارس تجمع بين جانبي التدريب الديني والعسكري. والتعليم أيضاً بشؤون الحرب والفروسية. وقد بلغ مجموع الطلاب في ذلك الوقت خمسماية طالب وعدد الأساتذة حوالي اثنين وثلاثين[٧].

---

(1) الزردكاش: ابن ارنبغا (ت٨٦٧هـ/١٤٦٣م)، الأنيق في المناجيق، تحقيق إحسان الهندي، منشورات جامعة حلب، ١٩٨٥، ص ٨ و١٦ و٢٤.

(2) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٨٤ و٩٢ و٢٠١.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٣، ص ١٨٣.

(4) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ١٥٧.

(5) ابن تغري بردي، المهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج٢، ص ٤٦٩.

(6) النويري الإسكندراني: محمد بن قاسم بن محمد النويري المالكي (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م)، الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ١٩٧٠م، ج٢، ص ٩٦ و٢٣٩.

(7) الباشا: حسن عبد الرحمن فهمي ومجموعة من المؤلفين، عبد الرؤوف علي يوسف، وحسين عبد الرحيم عليوي، ومحمد مصطفى نجيب، القاهرة تاريخها، فنو ا، آثارها، مطابع الأهرام التجارية، ١٩٧٠، ص ٨٢.

كما ضمت القاهرة والإسكندرية كثيراً من الطلاب والمدارس الحربية المختلفة تجمع أغلبها في الفسطاط بجانب مسجد عمرو بن العاص(١).

انفرد خليل بن شاهين الظاهري دون غيره بتحديد عدد الطباق باثنتي عشرة طبقة في القـرن الخامس عشر الميلادي(٢)، غير أن المصادر المملوكية المعاصرة كانت قد أوردت أسماء ثماني عشرة طبقة. وتلك هي أسمائها على الشكل الآتي:

طبقة الرفرف، طبقة الطازية، طبقة الزمام، طبقة الأشرفية، طبقة الحوش، طبقة الفور، طبقـة المقدم، طبقة الصندلية، طبقة الخازندار، طبقة الميدان، طبقة المستجدة، طبقة القاعة، طبقة قراجا، طبقة الأربعين، طبقة الطواشي مرجان الخازندار، طبقة نيروز الخازندار، طبقة الخروب، طبقة البرانية(٣).

تبدأ مراحل التعليم للمملوك منذ دخوله إلى تلك الطباق وحتى تخرجه منها، ولا يعتبر المقاتـل المملوكي مؤهلاً إلا إذا قضى سنتين دراسيتين، ففي العصر المملوكي الأول كانت تطبق تلك المدة، أما في العصر الثاني أو ما يعرف بعصر الشراكسة فقد خفضت تلك المدة إلى الـسنة أو أقـل، وأصـبح التخرج في حينها يخضع لاختلاف الأمور السياسية وفترة تبديل السلاطين، إذ كان التخرج في المحرم ثم في رمضان وأخيراً صار في شوال، وبهذا التخفيض والتهاون في التدريب انعكس على معنويـات الجندي المملوكي وأثر عليه سلباً وبخاصة عندما أتى المماليك الجلبان وهم كبار فـلا يطبـق علـيهم التدريب أو حتى دخول المدارس كما في العصر الأول(٤).

يجري تدريب المماليك بعد جلبهم صغار السن بأمر السلطان فـي البـدايات الأولـى للدولـة المملوكية وقد كانت جميع احتياجاته متوفرة كي يتفرغ للتدريب وقد كانت الطباق بالنـسبة للمماليـك بمثابة البيت الذي يتوفر فيه المأكل والملبس والمشرب والمنامة. وعند حـضور المـدرب أو الـشيخ ينتظمون في حلقات على الأرض ويجلس المدرب على منبر بحيث يرى الجميـع. وكانـت الـدروس تجري بشكل منتظم وهناك استراحات بين الدروس وبعد الطعام. وتجري مراجعة الدروس ومناقـشتها أسبوعياً أو شهرياً. وقد كان المملوك يعطي يوم الجمعة كعطلة أسبوعية، وقد أطلق على هذه الفئة من المماليك فيما اصطلح العرف على تسميته برسم "الكتابة" أو "الكتابية"(٥).

---

(1) Lane Poole, S: Suppl, P. 204.

القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٢٥.

(2) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ٢٧.

(3) العريني، المماليك، ص ٨٦-٨٨.

(4) الظاهري، المصدر السابق، ص ١١٦. العريني، المرجع نفسه، ص ١٢٣-١٢٤.

(5) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٣٧٢.

قامت هذه الطباق بساحة الإيوان بالقلعة، لسكنى المشتريات من المماليك وتعليمهم وتـدريبهم، وربما ظل المملوك مقيما بها بعد عتقه، واشتملت كل طبقة على عدة مساكن تتسع لألف مملوك[1].

يجري تعليم أبناء السلاطين وأبناء الأمراء في المنازل وفي أمكنة خاصة، حيث يتدرب فيهـا الولد طبقاً للمنهاج العام المقرر للمماليك الكتابية، كما أنه يلقى عناية خاصة من قبل المـدربين، وقـد اشتهر محمد بن السلطان جقمق[2] بمعارفه الواسعة في العلوم وكذلك بيبرس الركن العلائي[3].

تعد الميادين المتعددة والمنتشرة في جميع أنحاء الدولة المملوكية أمكنة ذات أهميـة بالغـة، إذ كان الميدان واسعاً يحوي جميع أنواع صنوف الأسلحة، وله قاعدة تدريبية عريـضة، إذ يوجـد فيـه مساعدات للتدريب وللأمكنة الخاصة بكل سلاح، وقد اشتهر بذلك ميدان "القبق"[4]. كما يوجـد أيـضاً ميادين كثيرة ومتخصصة بتدريبات مختلفة كسباق الخيل ورمي الرمح والـضرب بالـسيف والـنفط والنيران[5].

يتولى الإشراف على التدريب داخل الطباق جهاز يطلق عليه اسم "الطواشي" مهمتـه متابعـة أوضاع المماليك من ناحية السلوك والدراسة، ومن مهمته أيضاً العمل على تنظيم المجموعات التدريبية وتقسيمها إلى زمر تتناسب مع موضوع الدرس ومع السن والفئة ما إذا كانت تركية أم شركسية. ومن مهام عملهم الفصل في المنازعات وفض الخلافات التي قد تنشأ بينهم، مما يعني أن على هذا الجهـاز القيام بفرض النظام والانضباط دون أي تقصير. ومن المهمات المنوطة بالطواشـية توزيـع الطعـام والكساء في أوقات معينة، كما يتم إيقاظهم للصلاة والعمل واختيار اللعبة التي يودون التمـرن عليهـا كركوب الخيل، أو اللعب بالرمح، أو الصولجان، كما أن لهذا الجهاز الحق في التنـسيق بينـه وبـين المدربين أصحاب الاختصاص في الأسلحة، والمدربين الروحيين، لاقتراح الجديرين والمميزين مـنهم الذين تنطبق عليهم النباهة والفراسة والذكاء والحزم والفطنة والشدة والجرأة والقدرة الجسدية والـتمكن من المادة التي يدرسها، فإذا حاز المدرب على هذه الصفات عد من الأسـاتذة وأطلـق عليـه لقـب "الأستاذية"[6].

---

(1) الظاهري، المصدر السابق، ص ٢٧٧. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٢٣.

(2) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج٣، ص ٢١٠.

(3) السخاوي، المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٤.

(4) القبق، كلمة تركية، وهي عبارة عن آلة خشبية للتدريب على رمي السهام، وقد أنشأ ميدان القبق في عهد الظاهر بيبرس، ابن شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢، ص ٣٠٧.

(5) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٣١٧.

(6) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١١٦-١١٧.

يتألف جهاز الطواشي من عدد من الطواشية الذين يشهد لهم بالأخلاق والاستقامة والانـضباط وحسن التصرف والحزم، كالطواشي شبل الدولة كافور الصفوي[(١)].

إن جهاز الطواشي يقوم بالإشراف على جميع الأعمال داخل الطباق بحيث أنه يقـوم بتقـسيم وتوزيع العمل على جميع المكاتب المختلفة التي تتولى بدورها متابعة أوضاع المماليك داخل الطباق[(٢)]. ويمكن القول أن جهاز الطواشي شبيه إلى حد كبير بعمل بعض الفصائل العسكرية الحالية التي تتـولى تنشأة وتدريب المتطوعين في مؤسساتها منذ دخولهم وصولاً حتى تخرجهم ليتم فيما بعـد انـضمامهم والتحاقهم بسائر القوى والقطعات العسكرية النظامية.

لشدة اهتمام السلطنة المملوكية بأعمال التدريب في طباقها المنتـشرة فـي جميـع النـواحي المصرية، كان السلطان هو من يقوم وبنفسه في مهمة مراقبة وتفتيش طلاب الطباق والاطـلاع علـى أوضاعهم، فيحضر لهم الطعام ويشاهد توزيعه ويتأكد من نظافته، كما يتفقد النظافة العامة والترتيـب، فإذا وجد شيئاً لم يعجبه عاقب المسؤول على ذلك أو على تقصير ما قد وجده، وقد أمر بالاهتمام الزائد بالطعام والتربية[(٣)].

عند تخرج المماليك من الطباق في نهاية المرحلة الدراسية، يحضر السلطان لكي يشهد على أداء وعمل المماليك الذين تابعوا دورات دراسية قتالية وروحية، بحيث أنه يشهد مناورات عـسكرية ويتفقـد كافة الميادين الظاهري، الصالحي، وبركة الفيل التي كانت أغلبها في مصر وأقلها في الشام[(٤)]. وبنهايـة الحفل يمنح السلطان المكافآت المالية، والأوسمة والرتب[(٥)]، أما المقصرين في تدريباتهم العسكرية فـإنهم يتعرضون إلى عقوبة جسدية ومادية تصل إلى حد قطـع الراتـب[(٦)]. وبنهايـة التـدريب والمنـاورات الاستعراضية أمام السلطان والأمراء تمد الأسمطة للجميع بحيث أنه يشترك فيه القائد والجنود.

---

(1) ابن الصقاعي: فضل الله بن أبي فخر (ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م)، تالي كتاب وفيات الأعيان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٧٤م، ص ١٣١ و١٣٧.

(2) الظاهري، المصدر السابق، ص ١٢٢.

القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص ٢٨٨.

(3) مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومد ا وبلادها القديمة والشهيرة، ج١، ص ٨٧.

(4) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٢١١ و٢٣٥ و٣٤٧. مبارك، المرجع نفسه، ج١، ص ٨٢.

(5) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٤، ص ١٨٢.

(6) ابن أياس، المصدر نفسه ، ج٣، ص ٢٠ و٢٢.

المبحث الرابع: تدريبات الجيش المملوكي على جميع صنوف الأسلحة:

يطال التدريب جميع قطعات ووحدات الجيش قواد وأمراء وجنود لا يستثنى أحد أبداً، لأن الجيش يشكل العمود الفقري لأساس وبناء الدولة وفرض نفوذها وسيادتها، وبواسطته أصبح لها كيان أمام الأصدقاء والأعداء، بعد أن أنهكتها الحملات الصليبية المتتالية والنزاعات الداخلية بدافع الاستحواذ على السلطة.

كان من الطبيعي أن يكثف ويواضب هذا الجيش على إجراء التدريبات والمناورات بشكل دائم ومستمر وبجميع أنواع الأسلحة المتوفرة والمستخدمة في ذلك الوقت كما كان للألعاب التي يمارسها الجيش المملوكي دورها في البقاء على الجهوزية البدنية العالية وذلك لما لهذه الألعاب من القسوة والشدة في أثناء ممارستها. ومن أهم التدريبات التي مارسها أو بالأحرى أتقنها وتفوق بها الجيش المملوكي في التدرب على الخيل واستخدام السيف والطعن بالرمح والرمي وغيرها.

١ - التدرب على الخيل:

عمل المدرب على الفرس قبل الفارس، وأول ما شرع به هو تطويعها بالكامل لإرادة وأوامر الفارس، من حيث تعويدها على الخصال الحميدة التي تخدم ممتطيها، بمثل ما كان المملوك يؤتى به صغيراً أو يربي ويدرب داخل الطباق، فالأمر مشابه نوعاً ما بالنسبة للخيل التي يبدأ المدرب بتدريبها مهراً ويعلمه المشي وتعويده على رؤية الأسلحة، والمشي في الأزقة والأماكن الضيقة وعلى وضع اللجام وتوقيفه على رجليه، وعلى منع الصهيل، وتغطية عينيه، وعلى الفارس أيضاً أن يكون لديه معرفة واسعة بأحوال الفرس ومعرفة الجيد منها(١).

ومن أهم تدريبات الجيش المملوكي للخيل هي في عبورها للأنهار، والخوض في الوحول وصعود الجبال، وتعويدها على قعقعة السلاح، وأجواء المعارك، ذلك أن الخيل على عاداتها تنفر من كل هذه الأشياء وتبتعد عنها(٢).

إن كل ما تم ذكره عن الخيل وفنونها في سياق التدرب عليها، يأتي بعد أن يتخرج المملوك من الطباق، بحيث اقتصر تعليمه على استعمال الرمح والقوس والسيف وركوب الخيل فقط على يد معلمين أخصائيين، ثم يتعلم المملوك ما عدا ذلك من فنون الفروسية، بعد عتقه وتخرجه من الطباق جندياً، حيث يخرج السلطان لمملوكه خيلاً وقماشاً(٣).

---

(1) العريني، المماليك، ص ١١٦.

(2) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ٣٢٣.

(3) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٢، ص ١٧٦.

إن ما تدرب عليه المملوك من حيث ركوب الخيل أو الترجل عنه داخل الطباق يعـد تـدريباً سطحياً أو تقليدياً بالنسبة لما سيتعلمه أو يتقنه بعد تخرجه منه، ومن التدريبات التي كان يتلقاها المماليك على الخيل بواسطة أخصائيين في هذا المجال هو الوثوب، أي ركوب الفرس قفزاً، وهذا يحتاج إلـى تدريب متواصل، وقدرة على الامتطاء، وهناك أيضاً الوثوب بالرمح[1]. والركوب هو إدخـال رجـل الفارس اليسرى في الركاب وبيده اليمنى العنان، ويده اليسرى على قائم السيف، وهناك طرق عديـدة للركوب تجاوزت السبع، منها ركوب الردف والتحول من فرس إلى أخرى[2]. ومنها ركوب الفـرس وهي تركض، كما الركوب والفرس دون السرج[3].

وكان مما تدرب عليه الفارس من فنون الفروسية وعلومها أيضاً، المطاردة، حيث تظهر براعة الفارس وخفته ورشاقته بمقدار ما يتيقن من تطبيق الفن الحربي، فهو عندما يندفع خاف خصمه لا يأتيه مباشرة من الخاف بل من الجانب، ثم يسدد إليه طعنه ثم يكرر ذلك ويقصر رمحه ويدخله فيه. وهناك طرق أخرى في المطاردة يستخدمها الفارس عند ملاقاة خصمه لكي يتمكن منه ويسدد إليه الطعنـات القاتلة[4].

هناك طرق المجادلة والمفارقة والملازمة والمخارجة والمطابقة والكر والفر والهـزل والجـد والأخذ والرد والطوع والنزول والمقابلة والاحتراس وغيرها[5]، جميعها تدخل فـي إطـار مـسميات لأنواع وأساليب التدريب على الخيل والتعامل معها في جميع الأوضاع والظـروف فـي المعركـة أو المطاردة أو في الكمائن والتخفي.

٢- التدرب على السيف:

للسيف فضائل كثيرة كان قد ذكرها الأقدمون، وله دور كبير في القتال وهو سـلاح الفرسـان والمشاة على السواء، وهو مقدم على جميع الأسلحة الفردية[6].

---

(1) ابن لاجين الطرابلسي: محمد بن لاجين بن عبد الله الحسامي المعروف بالرماح (ت٧٣٨هـ/١٣٣٨م)، أحد العارفين بفنون الفروسية من أهل طرابلس الشام، الفروسية برسم الجهاد، تحقيق عارف أحمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، طبعة أولى، ١٩٩٥م، ص ١٣.

(2) ابن قتيبة الدينوري: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٨٦هـ/٨٨٩م)، عيون الأخبار (الحرب والفروسية)، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٧م، ص ٩٣.

(3) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن شمس الدين (ت٧٥١هـ/١٣٥٠م)، الفروسية، حققه مشهور ابن حسن بن محمود بن سلمان، دار الأندلس، طبعة أولى، السعودية، ١٩٩٣م، ص ٨٤.

(4) ابن لاجين الطرابلسي، المصدر السابق، ص٣٩. ابن القيم الجوزية، المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(5) ابن لاجين الطرابلسي، المصدر نفسه، ص ١٤.

(6) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ٢١.

السيوف التي يستعملها المتعلم في التدريب هي غير السيوف التي يقاتل بها، فضلاً عن معرفة أنواع السيوف التي عند الأعداء، والسيوف عامة نوعان: العتق وهي الجيدة الصناعة، والسيوف الحديثة أقل جودة.

ومن السيوف العتق اليمانية والقلعية والهندية، أما السيوف الحديثة فهي السليمانية والسرنديبية والفارسية(١).

يتعلم المبتدئ ضرب السيف على مراحل، إذ يستعمل سيفاً خفيفاً يضرب به على حائط من طين بعد عجنه، فيضرب في اليوم الأول خمسة وعشرين ضربة، وفي اليوم الثاني خمسين، ويستمر على ذلك حتى يصل إلى ألف ضربة في يوم واحد وقوفاً. ومن ثم يتابع ذلك التمرين في الضرب بالسيف على قِطع اللباد فوق حائط من الطين المعجون فيقطع المبتدئ اللباد طبقة بعد طبقة، لينتقل بعدها إلى قطع الورقة على اللباد وذلك باستعمال سيف رقيق الحد(٢).

أما تعليم السيف للراكب، أي للفارس على صهوة جواده، فتطلب تمريناً طويلاً. وعن طريقة حمله أن يشد الفارس سيفه إلى وسطه حتى لا يعلق الغمد ويضطرب عند المناوشة والركوب والنزول، ويكون سيف الفارس قصيراً بينما العكس بالنسبة للراجل الذي يكون معلقاً تحت إبطه(٣).

ولما كان اقتناء الخيل والإنفاق عليها أمراً غير ميسور لأفراد المماليك، عمل السلاطين على إعداد الاصطبلات السلطانية والأميرية الحافلة بأنواع الخيول، وأهمها اصطبل الجوق الذي خصصه السلاطين لخيول المماليك الكتابية(٤).

عملياً يوجد العديد من طرق التدريب التي من شأنها أن تعزز قدرة المقاتل المملوكي على حسن استخدام السيف في المواجهات، هو أن يضرب الخصم في المواقع الحساسة من جسمه أو جسم فرسه، وأن ينقل السيف من اليمين إلى اليسار وبالعكس حسبما تقتضي ظروف القتال، وأن يقبض المقاتل على السيف في أماكن محددة وأن تكون راحة يده وأصابعه فوق أذن الفرس وأن يكون العنان بيساره أو يمينه حسب الحالة، يلوح بالسيف أربع تلويحات ثم يضرب به فرس الخصم من أذنة كفه الأيسر وكذلك من الناحية الثانية منه(٥).

---

(1) العريني، المماليك، ص ١١٠-١١١.

(2) العريني، المرجع نفسه، ص ١١٢-١١٣.

(3) العريني، المرجع نفسه، ص ١١٣-١١٤.

(4) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١٢٥.

(5) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ٤١-٤٢.

وأخيراً فإن ضربة السيف قاطعة فمن نجا منها فقد نجا، ومن أجاد الضرب فقد أسرع إلى المجد. واقترب من النصر، والفارس هو الذي يضرب فلا يخطئ وبأول ضربة يقطع عدوه بضربة قاتلة[١].

٣- التدرب على الرمح:

اعتنى المماليك بهذا الصنف من صنوف الأسلحة، وبذلوا جهداً كبيراً في تدريب المقاتلين عليه، وفندوا له المدربين المتخصصين أبواباً وبنوداً مختلفة في القتال، وهي تحكي عن أنواع التدريب، وطرق القتال وأسلوبه، وكيفية الطعن والدخول إلى الميدان أو الخروج منه، وعلى الفارس أن يكون ملماً بكل ذلك، ولاسيما ببنود الركاب والدولاب والتكوير والظهر والمشطور والحل والعقد[٢] واللبب[٣].

اشتهر مدربون كثر على الرمح، وقد كان جهاز التدريب على الرمح من بين الأجهزة العديدة التي اختصت بالتدريب فكان له رئيس ولديه مدربون اختصوا بالأبواب والبنود[٤].

٤- التدرب على الرمي:

يطال الرمي جميع صنوف الأسلحة الواجب التدرب عليها، لأن على الجندي المملوكي أن يتقن الرمي بمختلف أنواع الأسلحة المتوفرة في ذلك الوقت، وقد خصصت ميادين عديدة لإجراء التدريبات اللازمة وأيضاً زودت تلك الميادين بأعتدة كثيرة وإمكانيات ووسائط تدريب متنوعة، وذلك بغرض تحقيق إصابات دقيقة للأهداف الموضوعة بمسافات مختلفة حسب المواصفات الفنية والتعبوية للسلاح، هناك رمي النشاب ورمي المنجنيق ورمي النفط[٥].

إن هذه الأنواع من صنوف الأسلحة بحاجة إلى التدرب بشكل مكثف ومتواصل، كونهم يختلفون عن السيف والخنجر في طريقة استعمالهم أو حتى طرق التدرب عليهم. فالسيف أو الخنجر لا يفارقان يد المقاتل عند التحام الجيوش لأنه من دونهما ستكون نهايته، لذلك فإنهما يعدان جزءاً لا يتجزأ من جسده. بينما النشاب والرمح والمنجنيق أو مقذوفات النفط فإنها تطلق من مكان ليس ببعيد عن أرض المعركة بغرض التمهيد للقوى الراجلة التقدم لتحقيق النصر، لهذا فإن المهارة والدقة في

---

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ص ٨٣-٨٤.

(2) ابن القيم الجوزية، الفروسية، ص ٤٤.

(3) اللبب: هو استقبال الخصم بالشمال من وراء ظهره، ثم القبض عليه مستدبراً من مؤخرة السرج، ثم يطعن باليمين إلى كتف الشمال، ثم يؤدي الفارس حركات الطعن والدخول والخروج. ابن لاجين الطرابلسي، الفروسية برسم الجهاد، ص ٣٩.

(4) الحلبي، تحفة الظرفا في مناقب الملوك والخلفا، ص ٧٨٩.

(5) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ص ١٤٥.

التصويب لتحقيق الإصابات المباشرة دون أي أخطاء تصب في مصلحة القوى الراجلة وفي تسهيل عملها ومصلحة الجيش بشكل عام.

ولشدة اهتمام المماليك بالرمي كان البعض منهم ينظمونه بقصيدة مثل الزردكاش، فقد أسهب في مخطوطته في رمي المنجنيق والمدفعية وبين المسافات وأحكام الرمي والأعتدة والآلات التي تستخدم في الزيادة أو النقصان، وبين أنواع الرمايات والمقذوف(١).

ركز الجيش المملوكي على الرمي لما له من دور كبير في القتال وسير المعارك لجهة حسمها، ولا يعتبر الرامي رامياً ما لم يتعلم هذا الفن ويتقنه ويحسن استخدامه في كافة الظروف والمناخات صيفاً أو شتاءً نهاراً أو ليلاً. ولقد اعتمد تدريب الرمي على الناحية الجسدية للمتدرب في الطول والقصر والشدة والذكاء وغيرها، فلكل جسم ما يناسبه في هذا المضمار(٢).

أما القوس فله قواعد للاستخدام منها الإيثار، ومن هذه القواعد تتفرع مسائل عديدة، فالإيثار مثلاً له ستون حالة وكل حالة تشترط على الرامي أن يتخذ أوضاعاً مناسبة أثناء عملية التدريب كتقدم الرجل اليمنى والدفع بالزند والاستتار عند الإيثار. ووضعية الرامي من الأرض أو من على ظهر الفرس، ومد السهم حتى يصل إلى حد معين، والنظر إلى طول القسي، ووضع النشاب في الوتر، وتعليق الكلاب وتدقيق الأوزان وحساب الريش كونه يؤثر على انطلاقة السهم في مساره إلى الهدف، وشد الزردة على الوتر، وغير ذلك من الأعمال التي تهيئ الرامي وتصقل قدراته وتجعل عتاده في حالة جاهزية كاملة(٣). بالإضافة إلى الإيثار هناك أربع قواعد أخرى وهي القبض والعقد والمد والإطلاق. فأما القبض فهو وضع السهم في الكف اليمنى وبنان اليسرى بثبات بحيث تتمكن كل أصبع من مكانها، والعقد هو عقد الأصابع على الوتر وفوق السهم، والمد هو شد الخنصر والبنصر والوسطى وشد المرفق والإطلاق(٤).

قد يتعرض الفارس إلى القتل ما لم يتقيد بأصول الرمي وقواعده وشروطه كما حدث للأمير "شكار" عندما ساق فرسه فاقترب أكثر من المسافة المسموح بها فاصطدم بخشبة القبق فقتل على الفور هو وفرسه(٥).

ثم تأتي مرحلة متقدمة من التدريب على الرمي وهو الرمي بالقوس على الأهداف الثابتة وهو متحرك ويليها الأهداف المتحركة، وهو ثابت، والعكس حتى يصل إلى الرمي على الأهداف المتحركة

(1) الزردكاش، الأنيق في المناجيق، ص ٤٨ و١٦٣.

(2) الناصري، الحيل في الحروب، ص ٧١-٧٢.

(3) العريني، المماليك، ص ١٠٩-١١٠.

(4) ابن القيم الجوزية، الفروسية، ص ٤٤٢ و٤٧٥.

(5) العريني، المرجع السابق، ص ١١٠.

وهو متحرك في الاتجاه المضاد، إلى أن تدخل بعد ذلك المسافات القصيرة والطويلة، وإلى أن ينتهـي التدريب على الرمي على الحصون والقلاع والمراكب في البحر. ولقد كان على الرامي أن يكون على علم بالقسى وأنواعها والأوتار وأصنافها وما يلحق بها من أعطال والتدرب على كيفية إصلاحها[١].

يعتبر الرمي على النشاب في مقدمة التدريب على الرمي، أما الرامي على المنجنيق الذي يعد من الأسلحة الثقيلة آنذاك، فإن الرامي يتعلم ويتدرب على فك وتركيب هذا السلاح ومقذوفـه، وعلـى القواعد والأصول، ثم على حمله والمسير به إلى مسافات بعيدة.

أما التدريب على أسلحة النفط فإنها عديدة وأهمها "الزراقة" التي كان الرامي يتدرب فيها على التسديد وهو لا يحتاج إلى عناء لأن مسافة الرامي فيها كانت قليلـة إذا مـا قيـست برمـي النـشاب والمنجنيق. لذلك فإن قاذفات النفط تلك كان يرمي عليها أي جندي، بعد أن يكون قد تدرب عليها فتـرة بسيطة، وقد كان "الصناع" هم في الأغلب الذين يقومون بأعمال التدريب[٢].

٥- الألعاب الرياضية:

إن من أهم هذه التدريبات لعب الصولجان والمصارعة و"اللبخة". إذ يعد الصولجان من أنـواع التدريب للفارس وهو على فرسه وبيده عصا يضرب بها الكرة ويسوقها، ويجري هـذا فـي ميـادين خاصة أعدت خصيصاً لهذه الرياضة، وللعبة قواعد منها ضرب الكرة خلسة ومن تحت محزم الفرس، ووسط صدرها ونحرها، والحذر من الجري السريع غير المتزن الذي يسبب تصادمات خطـرة بـين المتبارزين[٣].

إن مثل هذه الرياضات أو بالأحرى يمكن أن توضع في إطار التدريبات كانت تمهد للفارس أن يصل إلى الفروسية وأن يحصل على قدرة بدنية عالية وتؤهله للـدخول فـي القتـال، وأنـواع هـذه الرياضات هي من أفضلها لكثرة حركتها وسرعة الانعطاف للفرس في كل الاتجاهات، ورفع الكرة من الأرض بعقب الصولجان[٤]، وإلى جانب هذه اللعبة كانت هناك رياضة (الطبقاب)، وهي الكـرة التـي يلعب بها الأولاد فيجرون خلفها ويحاولون ولوجها في مكان حفر في الأرض[5].

أما المصارعة فهي تمارين القوة واللياقة البدنية والقدرة على التحمل، حيث يـشهدها جمهـور كبير من الجنود والناس ويحضرها الأمير، وتدق الطبول والزمور، ولها مراسيم خاصة فـي ميـادين المصارعة المختلفة والمنتشرة في جميع أنحاء مصر، وللأفضل فيها مكافأة يقدرها السلطان أو الأميـر

(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ٣٦-٣٧.

(2) الزردكاش، الأنيق في المناجيق، ص ٤١-٤٦.

(3) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ص ٩٤-٩٥. متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، ص ٢٥٦.

(4) ابن قتيبة، المصدر نفسه، ص ٩٤-٩٥. العريني، المماليك، ص ١١٤-١١٥.

(5) Rey; E, Suppl, P. 143.

وفي كثير من الأحيان تؤدي هذه المصارعة إلى أذى كبير يلحق بالمتصارعين نتيجة استعمال الشدة والقوة المفرطة فيها[١].

أما "اللبخة" فهي تدريب جماعي، عبارة عن عدة أشخاص أقوياء يتقابلون بالعصي ويقوم أحدهم فيمسك العصا من وسطها ويفرق عشرة من زملائه الذين يلعبون معه وتؤدي هذه اللعبة في بعض الأحيان إلى أن يقتل اللاعب زميله حتى أن السلطان نفسه كان يمارس هذه اللعبة[٢].

كما أن للصيد دور كبير في تدريب المملوك، فهي رياضة تعلم الرمي ضد الأهداف التي تتحرك بسرعة، وعلى الرامي أن يصيب الهدف من الحركة فلا ينتظر الطريدة حتى تقف أمامه ويسدد عليها، أو أن يسدد على الطريدة حينما يكون هو على ظهر فرسه[٣]، اعتنى المماليك بالصيد كثيراً، حتى أنه دخل ضمن برنامج التدريب لديهم بالنسبة لتدريب وإعداد المقاتلين.

٦- التدريب البحري وبناء السفن:

ورث المماليك عن الأيوبيين بحرية ضعيفة، واقتصرت القوة الإسلامية في حينها على المواجهة البرية كما حدث في عهد السلطان نجم الدين أيوب حينما استطاع جند المماليك صد الهجمة الصليبية في فارسكور[٤]. وقد استمر الضعف البحري ظاهراً وواضحاً حتى مجيء السلطان الظاهر بيبرس إلى الحكم والذي كان يدرك مدى قوة الصليبيين البحرية، التي كانت تشكل تهديداً مباشراً للدولة المملوكية الناشئة هذا إضافة إلى سيطرتها على التجارة البحرية في المتوسط، وانطلاقاً من هذا الأمر عمل بيبرس على تجهيز أسطولاً ضخماً كان يتابع عملية تصنيعه بنفسه ويشرف عليه ويقضي معظم أوقاته بدار صناعة السفن، حتى أصبح لديه أسطولاً كبيراً تمكن من خلالها من غزو جزيرة قبرص سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م[٥].

إن حدود السلطنة المملوكية البحرية من جهة البحر المتوسط والبحر الأحمر فرضت عليها أن يكون لديها قوة بحرية تحمي حدودها وتواجه أي اعتداء قد يأتي عبر الحملات الصليبية. من هنا نرى مدى اهتمام بيبرس بإنشاء أسطول بحري قوي وقد ضم أكثر من أربعين سفينة بحرية.

إلى جانب ذلك فقد تم تدريب الجيش المملوكي على السباحة والغوص تحت الماء وتمارس تلك التمرينات على شكل بيانات عملية في النيل يشهده المقاتلون والناس ويحضره السلطان أيضاً. ويجري

---

(1) متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢، ص ٢٥٧.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٠، ص ١٢٨.

(3) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص ٨٧. ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج١٢، ص ٦٢.زكي، الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص ١٥-١٦.

(4) المنصوري، التحفة المملوكية في الدولة التركية، ص ٢٥.

(5) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٧١.

عرض للقطع البحرية في النيل، وبخاصة القطع التي صنعت حديثاً، وللتأكد من كفأتها فقد كانت تجري تدريبات مختلفة عليها(1). وفي بعض التمارين كانت تغرق بعض المراكب، فيقوم سباحون ماهرون بإنقاذ الغرقى أو الذين لم يتدربوا بعد على السباحة، ورغم ذلك لم يكن أي شيء يمنع من غرق بعض الجنود أو القادة في إطار التدريبات(٢).

لذلك نرى أن الدولة المملوكية اتخذت من البحار والأنهار ميادين بحرية ونهرية للتدرب على استعمال البحار بواسطة المراكب الحربية، إثر صنع أي سلاح بحري جديداً أو مركبة بحرية لاختبار قوتها ومدى فعاليتها، ففي محرم سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، أنجزت عمارة الشواني وجهزت بالمقاتلة والآلات حيث أُعدت للعب والمبارزة، وقد اجتمع الناس للمشاهدة، ووقف العسكر على البر وركب الأمراء الحراريق إلى الروضة.

وكان قد نزل السلطان لمشاهدة ذلك واجتمع من العالم ما لا يحصى حتى لم يوجد موضع قدم. وبرزت الشواني للعب كأنها في الحرب واستعملت فيها معظم المقاتلة والنفوط وآلات الحرب. وخلال اللعب انقلبت إحدى الشواني التي كان على متنها الأمير جمال الدين آقوش القاري العلائي والي البهنسا الذي لقي حتفه. وهكذا فقد الألعاب هي بمثابة تدريبات ومناورات للإبقاء على الجهوزية التامة سواء أكان في البر أم في البحر. وقد اعتبرت الشواني السلاح الرئيسي في البحرية المملوكية(٣).

ويذكر أنه في عهد الظاهر بيبرس توجه الأسطول لغزو قبرص فانكسرت إحدى الشواني والتجأ رجالها إلى ساحل عكا، فأسرهم الإفرنج، فحاول المسلمون افتدائهم فتغالى الفرنج فيهم وقالوا هؤلاء جمرة البحار وفرصة الإعمار وأودعوهم بالسجن في قلعة عكا، واستطاع نائب صفد إغراء سجانيهم بالمال، وتم تحريرهم في مركب مهيأ لهم وكان لهم خيل واقفة ومعدة فركبوها ووصلا إلى القاهرة وقامت بسبب هروبهم فتنة بين الإفرنج(٤) وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على مدى اهتمام الدولة المملوكية برجال البحرية، واعتبارهم كرجال من الوحدات الخاصة في البحرية المملوكية.

ولهذا فإن التمارين التي كان يجريها المماليك على أفراد القوة البحرية، ليست بقصد الاستعراض، إنما كان هناك مشروع تدريبي بالرمي الحقيقي والمناورة كما لو كان ذلك في قتال حقيقي، حيث تستخدم جميع أنواع الأسلحة التي تتواجد على متن السفن القتالية(5).

---

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٣٥٣.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٨، ص ١٥٦.

(3) المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٥٣.

(4) المنصوري، التحفة المملوكية في الدولة التركية، ص ٨٠.

(5) ماهر: سعاد، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكتاب ووزارة الثقافة العربية للطباعة والنشر، الجيزة، ١٩٦٧م، ص ٢٠٣.

وقد كان لرجال الدين المعممين الأثر البالغ أيضاً في تشجيع المماليك على التدرب على ركوب البحر والقتال على متن سفنه من خلال الاستشهاد بقول النبي (ﷺ) "غزوة في البحر مثلُ عشر غزوات في البر"(١)، و"إن ذنوب المجاهدين في البحر تغفر وحتى الديون تغفر لشهيد البحـر بخـلاف شـهيد البر"(٢) كما كانت الدولة المملوكية تستدعي كل من له خبرة في بناء السفن والصناعة البحرية بـشكل عام، وذلك ليتم بناء أكبر قدر ممكن من السفن البحرية، وقد استطاعت دور بناء السفن أن تبني مائـة مركب بحري في عام واحد(٣). وقد حرص المماليك على بناء أبراج لحماية سواحلهم ونظموا الممرات البحرية، التي يمكن أن تدخل منها سفن الأعداء الكبيرة وبنوا أسوار ثغر الإسكندرية(٤). وكان من أهم القطع البحرية المملوكية التي يجري التدرب عليها، الشواني والغربان بحيث انه يتم اختبـار قـدرتها ومناورتها وقوة قذفها المدفعي والنفطي(5). بالإضافة إلى قطع بحرية أخرى سـاهمت فـي عمليـات التدريب وحماية سواحل مصر الشمالية والشرقية، وأيضاً سواحل بلاد الشام الغربية، وهذه القطع هـي الحراريق(٦)، والبطس(٧).

كان الجيش المملوكي يجري تمرينات وتدريبات قبل أي عملية عسكرية ينوي القيام بها، وهذه كانت تجري في جو مشابه للمعركة المتوقعة، إذ يشترك الـسلطان وأتابـك العـساكر وجميـع قـادة التشكيلات والقطاعات بلباس الميدان الكامل، ويبتدئ هذا النوع من التدريب بعرض الجيش أمام القائـد الأعلى وبعدها تتفرق الوحدات جميعها وينصب "القبق" ويتنافس الجنود وقـادتهم بـالرمي، ويتنـافس الفرسان والرماة كما لو كانوا في أرض المعركة الحقيقيـة، والقائـد الأعلـى يـشاركهم ويعطـيهم التوجيهات، حتى إذا أنهى التدريب بعد ثلاثة أيام، أنعم القائد الأعلى على الفائزين والمميزين المبرزين بإنعامات مختلفة وبمكافآت مادية ومعنوية(٨). ويأمر بعدها بتجهيز الطعام للقادة والجنـود عقـب هـذا

---

(1) ابن ماجه: أبو عبدالله محمد ابن يزيد القزويني (٢٧٣هـ/٨٨٦م)، سنن بن ماجه، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد ومحمد كامل قره بللي وعبد اللطيف حررزالله، دار الرسالة العالمية، طبعة أولى، ٢٠٠٩م، ج٤، ص ٦٨.

(2) الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت٣٦٠هـ/٩٧٠م)، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد ا يد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، طبعة ثانية، (د.ت)، ج٨، ص ١٧٠.

(3) العبادي: أحمد مختار، والسيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣، ص ٣٢٠.

(4) المنصوري: مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ)، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، طبعة أولى، ١٩٩٣م، ص ٢٣-٢٤.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٨، ص ١٥٦.

(6) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ١٨٧.

(7) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج٦، ص ٣٦٩.

(8) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص ٦-٧.

التدريب الشاق، وبعدها يتحرك الجيش مباشرة إلى ساحات القتال، وهذا ما كان يفعله الظاهر بيبـرس عندما تولى الحكم حيث أمر الجيش بالتحرك بعد التدريب إلى بلاد الروم[1].

إن هذه المثابرة على التدريب بشكل متواصل تبقي الجيش على أهبة الاسـتعداد والجهوزيـة الكاملة من حيث الانضباط والتركيز الدائم على الرمي، كما كانت تقام المناورات والعروض المختلفـة أمام الرسل والسفراء الأجانب لقصد إدخال الرعب في قلوب الأعداء[2].

(1) مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومد ا وبلادها القديمة والشهيرة، ج١، ص ٨٢.

(2) المقريزي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٦٩.

استنتاجات:

استطاعت الدولة المملوكية أن تؤسس لمرحلة طويلة في مسيرتها ومستقبلها، وذلك يعود إلـى جاهزية جيشها الذي أولاه السلاطين الأوائل كامل الاهتمام والرعاية، وإذا ما تسألنا أنه كيف ينبغي أن يكون للدولة جيشاً قوياً، فإن ذلك يحتم عليها أن تكون في حالة حرب على الدوام، إذ أن المحيط الـذي وجدت فيه تلك الدولة فرض عليها أن تكون كذلك، فالحملات الصليبية لم تتوقف وكـذلك التغييـرات السياسية التي تتعرض لها المنطقة باستمرار، والخطر المغولي الذي أربك العالم والمنطقة بأسرها فـي ذلك التاريخ.

بذل المماليك الغالي والرخيص لبناء جيش قوي ذو قدرات عسكرية وقتاليـة عاليـة تـوازي تحديات القوى المتواجدة على الأرض في تلك الفترة، بحيث أنهم واكبوا المملوك من لحظـة شـرائه صغيراً، حتى تخرجه من الطباق، وحرصهم على إتقانه واستخدامه لجميع أنواع الأسلحة بمهارة عالية لا يوازيه فيها أحد، هذا فضلاً عن التربية الإسلامية الخالصة والتي تعد أساساً لبنيـان ذلـك الجيـل المتسلح بالعقيد والقوة في آن معاً، حتى أن المماليك استثمروا الألعاب الرياضية كحـصص تدريبيـه وليست كوسائل للترفيه فقط. لا بل أن الجدية والحزم اللتان تميزت بهما الإدارة المملوكيـة لـم تنـتج مقاتلين أشداء وحسب إنما أنتجت مدربين متخصصين لهم مؤلفات في جميع مجالات وأصناف السلاح في ذلك الزمن، كالفروسية التي لا ينازعهم فيها أحد، وما تبعها كالسيف والـرمح وأسـاليب الرمـي المتعددة سواء أكان في الرمح أو النشاب أو المناجيق، بالإضافة إلى بناء قوة عسكرية بحريـة قـادرة على مجاراة السفن الصليبية التي تغزو السواحل الإسلامية باستمرار بحيث أنه لا تقتصر المواجهـات العسكرية على البر فقط إنما تتعداها إلى المواجهات البحرية.

الفصل الخامس

سياسة الجيش المملوكي في إدارة العمليات وإعداد الخطط العسكرية

مقدمة

المبحث الأول: إدارة العمليات

١- الاقتصاد بالقوى المقاتلة في المعارك.

٢- أهمية تجميع القوى وتوحيد عملها في المواجهة.

٣- عنصر المفاجأة والضغط المتواصل على الأعداء.

٤- أهمية السرعة ودورها في أداء المهام العسكرية.

٥- دور الجواسيس والعيون.

٦- قسوة الجيش المملوكي وبطشه في ميادين القتال.

المبحث الثاني: إعداد الخطط العسكرية

١- التعبئة العسكرية وأنواع الخطط والحيل التي يستخدمها الجيش المملوكي.

٢- دور التحريض والشحن العقائدي على مجريات المعارك العسكرية.

٣- استباق السيطرة على النقاط والمواقع المهمة.

٤- سياسة التحييد والتفرد بالأعداء كل على حدة.

٥- أهمية التمويه والتخفي عن أعين العدو.

٦- أهمية اختيار زمان ومكان المعركة بما يتناسب مع مصلحة الجيش.

٧- دور الكمائن في أعمال المطاردة.

٨- دور القيادة المملوكية في عملية تضليل المغول عن الجيش المتوجه إلى عين جالوت.

٩- الترتيب والتشكيلات المملوكية المقاتلة وطرق تطبيقها في ميدان المعارك.

١٠- البريد ووسائط الاتصال في الدولة المملوكية.

استنتاجات

الفصل الخامس

سياسة الجيش المملوكي في إدارة العمليات وإعداد الخطط العسكرية

مقدمة:

خاض الجيش المملوكي في بداية نشأته حروب صغيرة ليس بالإمكان الحكم عليه من خلالها ما إذا كان على قدر المسؤولية إزاء الخطر المغولي والاحتلال الإفرنجي، سيما أنه كان ولم يزل يقاتل هو وأفراده وأبرز قيادته وضباطه تحت أمرة الجيش الأيوبي الذي كان يخوض معاركـه الأخيـرة ضـد الفرنج في المنصورة، تلك المعركة التي تمثلت بالحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع ريدا فرنسيس، وبين الملك الأيوبي توران شاه سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م كان النصر فيها فعلياً للمماليـك مـن خلال أدائهم العسكري البارز، وظاهرياً للأيوبيين ممثلين بآخر ملوكهم في الحكم.

لقد اشترك في هذه المعركة قادة مماليك قادوا فيما بعد معركة عين جالوت وكان لهم دور كبير في القتال وفي تحقيق النصر أمثال الظاهر بيبرس(١).

غرست معركة المنصورة في نفوس قادة المماليك ثقة كبيرة شجعتهم على الدخول في مواجهة جيش المغول في عين جالوت وأن ينتصروا عليه، فإنهم بذلك أتيح لهم هزيمة الاثنين معاً، ويظهـروا كقوة كبرى فرضت سلطانها بالقوة.

المبحث الأول: إدارة العمليات:

وككل الجيوش قديماً وحديثاً هناك مجموعة من الإجراءات والترتيبات التي تقوم بها القيـادات من أجل التصدي لأي عدوان أو أي خطر قد يحدق بالدولة، وإن اختلفت بعض الأمـور مـن حيـث التقنيات والعلوم العسكرية مقارنة باليوم، إلا أن المبادئ واحدة من حيث الأخذ بها وتطبيقها، فـالجيش المملوكي في حينها اتخذ كامل احتياطاته استعداداً لمنازلة المغول في عين جالوت بما توفرت له مـن إمكانيات كانت في متناول يده في حينها، والتي كانت مشابهة لما بين يدي عدوه في العـدة والعـدد. ولأن معركة عين جالوت كانت مصيرية للوجود المملوكي في المنطقة، فقد كانت إجـراءات القيـادة

(1) ابن العماد الحنبلي: عبد الحي بن أحمد بن محمد أبو الفلاح (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه محمود الأرناؤوط، وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، طبعة أولى، دمشق – بيروت، ١٩٨٦م، ج٧، ص ٥٠٨.

المملوكية حازمة وصارمة وقاسية لناحية التنفيذ بما يعني أن الخطأ لا وجود له في قاموسها في تلـك المرحلة الصعبة من مراحل التاريخ الإسلامي. وأهم تلك الإجراءات هي:

١ - الاقتصاد بالقوى المقاتلة في المعارك:

ففي مبدأ اقتصاد القوى هو الإحجام عن استخدامها بشكل مفرط وبسرعة، فقد أظهر الظـاهر بيبرس بذلك براعة في هذا الأداء دون أن يؤثر على واقع المعركة ونتائجها، فقاد الطليعة وقاتل وهـو في طريقه إلى عين جالوت ثم نصب كميناً للعدو[١]. وكان للظاهر بيبرس دوراً كبيـراً فـي أعمـال المطاردة إذ أرسل القوى المناسبة على كل محور من المحاور، وعلى كل اتجاه سلكته القوات المغولية المهزومة[٢]. وسار بنفسه إلى الخليل والقدس، وكذلك في القوى التي أرسـلها إلـى حـصن الأكـراد والقلاع، وإلى صفد، وحارب الصليبيين في مواقعهم، ورد التتار عن توسعهم، وفي كـل هـذا كـان يمارس مبدأ الاقتصاد في القوى العسكرية مقدار حاجته لذلك[٣]، وفي ذلك ينطبق ما أورده ابن النحاس في كتابه مشارع الأشواق، من أن إنفاق الأموال في الحيل والمكائد أولـى مـن إنفـاق الأرواح فـي الحروب والشدائد[٤].

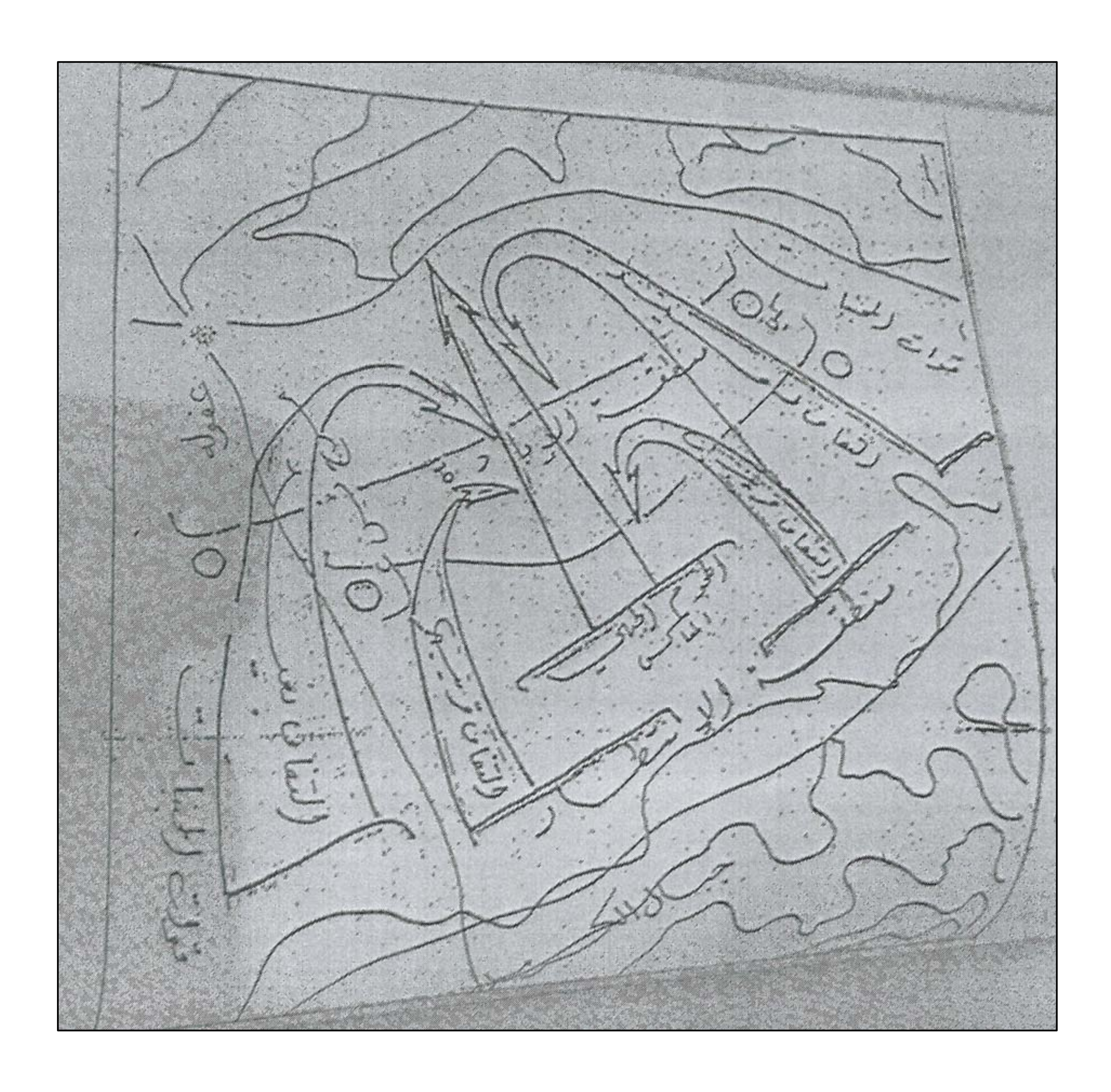
(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٤٤.

(2) الإسحاقي، أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص ١٣٢.

(3) زكي، الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص ٨٢.

(4) ابن النحاس: أحمد بن إبراهيم الدمشقي الدمياطي (ت٨١٤هـ/١٤١١م)، مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، هذبه وانتقاه صلاح عبد الفتاح الخالدي، ١٩٩٩م، ص ٣٦٩.

خارطة توضيحية لأحد خطط المماليك العسكرية في ميدان المعارك في عين جالوت، حيث تتبين فيها قوة المجنبات والالتفاف القريب والبعيد والكمائن ومنطقة جذب العدو إلى منطقة الإبادة[١]



(1) وتر: محمد ضاهر، معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠ أطروحة دكتوراه، الجامعة اليسوعية، بيروت ١٩٨٩، ص ٣٢٢.

٢- أهمية تجميع القوى وتوحيد عملها في المواجهة

أتقن الجيش المملوكي خططاً عسكرية كان قد سبقه عليها الجيش المغولي، هو أن يحشد قواته وتسييرها إلى الأماكن الأكثر خطورة[١]، بدليل أنه ولدى اجتياح المغول لبغداد، عملوا على جمع تشكيلاتهم المقاتلة من جميع البلاد ليكونوا على اتصال مباشر وقريب من مركز القيادة العامة للجيوش المغولية[٢]، وبنفس الأسلوب والطريقة واجههم المماليك بها عندما قام قطز بجمع جيشه، وأرسل إلى الجيش الشامي حشد كل الإمكانات المتاحة لديه، حيث التقت هذه التشكيلات جميعها على أمر المعركة وسارت باتجاه مرج بن أبي عامر، على الساحل ككتلة واحدة[٣]. خاصة وأن قرار المواجهة ضد المغول كان قد اتخذ من قبل السلطان قطز ولا مناص للتخلي عنه حيث بدأ العمل على حشد الجيش وتجميع القوى من كافة أرجاء السلطنة وتأمين المال والسلاح[٤]، كما تم الاتفاق مع الفرنج في عكا على التزام جانب الحياد لتسهيل مسير الجيش المملوكي لدى مروره في مدينتهم[٥].

٣- عنصر المفاجأة والضغط المتواصل على الأعداء:

كان لعنصر المفاجأة دور كبير في حسم المعارك في الحروب، فالقادة المماليك استخدموا هذا الأمر، ويعود ذلك إلى القيادة الجريئة التي لا تهاب المغامرات العسكرية المتطرفة للقتال، كما أن الثقة بالنفس والمعنويات العالية جعلت من الجيش المملوكي جيشاً ذات مستوى عالٍ في المواجهات.

أما الظاهر بيبرس فقد ابتكر بعض الأساليب التي يفاجئ بها عدوه ويهاجمه داخل حصونه فقد عمل على حفر السراديب جانب الخندق إذ لم يشعر مقاتلوا "آرسوف"[٦] إلا والجيش المملوكي قد تسلق القلعة وأضرم فيها النيران[٧]. كذلك وقد كان لحساب التوقيت أو الزمن دوره في العمليات العسكرية عند المماليك، فقد هاجم بيبرس قيسارية عند الصباح وجيشها غافل لا يدري، وأهلها نائمون، وتابع مسيره ليلاً إلى عكا[٨]. وكذلك بإبتكار وصنع أسلحة جديدة، والقيام بالتخفي والتضليل والحيلة والخدعة[٩].

---

(1) البغدادي: عبد اللطيف، ويعرف بابن اللباد، وبابن نقطة والمطحن (ت٦٢٩هـ/١٢٣١م): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، مطبعة خالد بن الوليد، دمشق ١٩٨٣م، ص ١٤.

(2) الهمذاني، جامع التواريخ، ج٢، ص ٢٨١.

(3) الشرقاوي، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين، ص ١٢٥.

(4) الطباخ: محمد بن راغب بن هاشم الطباخ الحلبي، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، المطبعة العلمية، طبعة أولى، حلب، ١٩٢٤م، ج٢، ص ٢٨ و٢٩١. الشرقاوي، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين، ص ١٢٥.

(5) سرور: محمد جمال الدين، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٣٨، ص ٥٠.

(6) مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ١٥١.

(7) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٢١.

(8) المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص ٢١٩.

(9) الدواداري: أبو بكر عبد الله بن أيبك، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ١٩٦٠، ج٩، ص ٢٦٢.

أما الضغط المتواصل على الأعداء هو أن لا يترك متسع من الوقت لبناء قوتهم أو تجميعها، ومنعهم من التقاط أنفاسهم سواء في المعركة أو حتى في وقت الراحة، لقد كان ذلك واضحاً في معركة عين جالوت عندما تصدى قادة الجيش المملوكي لنظرائهم من الجيش المغولي وثبتوا أمامهم، ولما تقابلا لم يصمد الجيش المغولي وتفرقت جبهته فتعقبه الجيش المملوكي، ولم ينفصل عنه أبداً ولاحقه إلى أطراف بادية الشام(١). ومن أساليب الضغط التي مارسها المماليك هو إجبار الجيش المغولي أن يقاتل في مكان غير مناسب والسرعة في التحرك وحسم الأعمال القتالية كلها أمور تزيد من أرباك الجيش وتضعف أدائه القتالي(٢). والصمود أثناء القتال، فما كانت تفتح ثغرة حتى يبادر قطز إلى صدها(٣). والمطاردة ونصب الكمائن على طول الطرق التي سلكها الجيش المغولي وفلوله عقب الهزيمة التي ظل فيها الجيش المملوكي على تماس وضغط متواصلين على الجيش المغولي ويلاحقه أينما وجد(٤).

٤- أهمية السرعة ودورها في أداء المهام العسكرية:

فرضت المواجهة العسكرية نفسها على الجيش المملوكي جراء الأزمة التي عصفت بالعالم الإسلامي عقب سقوط بغداد وبلاد الشام في أيدي المغول، كما أن استمرار الاحتلال الافرنجي المقلق والذي لا يؤمن جانبه بالنسبة للدولة المملوكية الناشئة. لذلك فقد كان حرص القائد الأعلى للجيش المملوكي وقراءته الصحيحة لتهديدات المغول جعلته وعلى جناح السرعة أن يتصرف وفق ما تمليه الحاجة من إعلان النفير العام والتعبئة العامة، ومن ثم عقد مجلس للحرب واتخاذ قرارات جريئة وصائبة لملاقاة العدو(٥). وأن لا يكون الجيش المملوكي في موقع المدافع وبانتظار هجوم الجيش المغولي عليه في عقر داره، بل سبقه هو إلى خارج حدود الديار المصرية.

وبهذا التدبير العسكري الذي اتخذه الجيش المملوكي، يكون بذلك قد سحب المبادرة العسكرية من أيدي المغول، الأمر الذي أتاح للظاهر بيبرس رئيس أركان الجيش وقائد الطليعة أن يقضي على حامية كبيرة متقدمة للجيش المغولي قرب غزة ويشل قدراتها جراء السرعة والمباغتة التي قام بها بيبرس(٦).

لهذا فقد استخدم الجيش المملوكي أثناء المواجهة مع المغول حركتي الالتفاف القريب والبعيد من المجنبات على النحو الذي قام به في معركة المنصورة والتي فاجأت الفرنج في مواجهة هكذا

(1) الإسحاقي، أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص ١٣٢.

(2) الشهابي: الأمير حيدر محمد، تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي، الغرر الحسان في تواريه حوادث الزمان، مطبعة السلام، مصر، ١٩٠٠، ص ٤٣٩.

(3) المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص ٥١٦.

(4) الهمذاني، جامع التواريخ، ج٢، ق ١، ص ٣١٦.

(5) الشرقاوي، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين، ص ١٢٥.

(6) الإسحاقي، أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص ١٣٢.

خطط في حينها. لقد أظهرت تلك الحركة في ميدان المعركة عن علو كعب المماليك في القتال وتنفيـذ الخطط والمناورة وخداع العدو والإيقاع به، وبخاصة الظاهر بيبرس الذي أظهر مواهـب وابتكـارات عسكرية مذهلة حيث أنه كان يتنقل من مكان إلى آخر، ومن اتجاه إلى اتجاه، ومن قضائه على طليعة المغول إلى نصب الكمائن في سرعة فائقة لمطاردة فلول الفارين من معركة عـين جـالوت، وبقـي يطاردهم حتى أطراف بادية الشام(١).

٥- دور الجواسيس والعيون:

اقتضت ظروف دولة المماليك من خلال صراعها مع المغول والفرنج إلى ضرورة وجود جهاز تجسسي يهتم باستطلاع أحوال العدو، ومعرفة قوته ونقاط ضعفه وعديد جيشه وأسلحته وأسماء قادته، ورصد تحركاته، وقد حرص الجيش المملوكي على سرية عمله وإخفاء أسراره، بل وإرسال معلومات خاطئة إلى عدوه. وقد ظهرت إنجازات الجواسيس والعيون التي بثها الظاهر بيبرس حينما وصلته أخبار الحامية المغولية في غزة(٢). بالإضافة إلى أن الطليعة التي كانت تسبق الجيش في أي عملية عسكرية ما، كانت تجهز فرقة خاصة كعيون على الأعداء في كل وقت وحين وحتى أثناء الحروب، وقد كان لكل مقدم في الجيش المملوكي الحق في تشكيل جهاز أمني يستطيع من خلاله بث الجواسيس والعيون في مواقع العدو، وللمقدم الحق في التحرك فيما يراه مناسباً حسبما يظهره المتجسس له من المكان(٣).

حظيت أجهزة التجسس والعيون برضى جميع السلاطين في الدولة المملوكية، وبخاصة في عهد الظاهر بيبرس حيث أنه بعد أن فتح قيسارية أرسل فرقة من الجواسيس إلى عتليت وكانت تتظاهر هذه الفرقة بأنها تريد الصيد لكنها كانت تريد الكيد، وقد نزل أحد أفراد تلك المجموعة يدعى (بكتي) وتسلل مشياً بين البساتين وجمع ما أراد جمعه من المعلومات وقتل فارساً صليبياً أثناء المهمة ورجع بالأخبار إلى قيادة الجيش المملوكي، فكان من نتيجة ذلك أن تحررت المدينة، فكافأه الظاهر بيبرس بخمسة آلاف درهم على عمله(٤).

أما عن الذي نقل معلومات دقيقة وموثوقة قد أفادت المماليك في الانتصار في عين جالوت، هو "صارم الدين ازبك" الذي قبض عليه المغول عندما اجتاحوا حلب فسكن بقربهم فوثقوا به واطمأنوا إليه، وتقرب من هولاكو حتى أنه عد من حاشيته، وبهذه العلاقة المتينة استطاع "أزبك" التعرف على

---

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٥١٦.

(2) المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص ٥١٥.

(3) الطرسوسي: مرضي بن علي بن مرضي (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م)، تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسوأ ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء، تحقيق كلود شاهين، بيروت، ١٩٤٨م، ص ٢٤.

(4) المنصوري، التحفة المملوكية في الدولة المملوكية، ص ٥٤.

خططهم وأعمالهم. وما أنواع أسلحتهم وأسماء قادتهم وحتى أمورهم الخاصة قبل المعركة، وقبل أن يتواجه الجيشان كانت جميع تلك المعلومات قد وصلت إلى الجيش المملوكي وأوصاهم بتقوية المسيرة، وعرفهم على نقاط الضعف في الجيش المغولي. وبناءاً على تلك المعلومات أعاد الجيش المملوكي تنظيم صفوفه، واستعد لمواجهة العدو[1].

إضافة إلى ذاك فقد كان هناك مصدر آخر للحصول على المعلومات ألا وهي من عمال البريد الذين كانوا يكلفون بمهام تجسسية إلى جانب نقل البريد الحربي. إن هذا الجهاز كان يتحرى أحوال العدو وإمكاناته، والتحري عن الأشخاص الذين يقومون بدور العمالة والتجسس ويشكلون خطراً على الدولة وأمنها، وكان يطلق على هذا الجهاز "صاحب الخبر والتحري"[٢].

٦- قسوة الجيش المملوكي وبطشه في ميادين القتال:

يعتمد الجيش المملوكي في الحروب سياسة الأرض المحروقة، فهو يدمر ويحرق ويقتل الرجال دون رحمة أو تساهل، ويصادر كل شيء فهي حل له من باب الغنائم والقصد من تلك السياسة هي منع العدو الاستفادة من أي شيء قد يعود إليه مرة أخرى[٣]. ولعل تلك القسوة تعود إلى الطبيعة القاسية التي كانوا فيها قبل مجيئهم إلى مصر أو أن العادات والتقاليد التي كانت متأصلة في نفوسهم كركوب الخيل وإجراء التمارين المجهدة أو أن التدريب الذين تلقوه في سن مبكرة من عمرهم، أو أنهم حرموا من حنان الأب والأم[٤]. ولا ننسى دور العقيدة الإسلامية الذين تربوا عليها صغاراً وأثرها البالغ في نفوس المقاتلين لتعزز ثباتهم في مواجهة الأعداء.

أظهر المماليك الشدة في حروبهم وخاصة في معركة عين جالوت كونها كانت وجودية بالنسبة لهم، بدليل أن الظاهر بيبرس عندما التقى بحامية غزة المغولية، لم يتح لهم فرصة الهروب أو الالتجاء إلى مأمن، بل كان يلاحقهم ويقتلهم أينما وجدوا[5]. كذلك فإنه أي بيبرس نصب كميناً للجنود المغوليين وأطبق عليهم من كل جانب، فقامت المجموعة القتالية بقيادته بإبادتهم دون رحمة وشتت شملهم ومزقت جمعهم[٦].

---

(1) العبادي: أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، ص ٢٦٦-٢٦٧.
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص ٣٤٤.

(2) ماجد: عبد المنعم، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٣٨.

(3) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٣٢٠. ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج٧، ص ١٤٠.

(4) سكوغ، مدخل إلى تاريخ الشراكسة، ص ١٢-١٥.

(5) الصفدي: صلاح الدين أيبك، أمراء دمشق في الإسلام، مطبوعات ا مع العلمي العربي ومطبعة الترقي، دمشق، ١٩٥٥م، ص ١٩.

(6) الشهابي، الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان، ص ٤٣٩. الإسكندري: عمرو الميجر، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، مطبعة المعارف الفجالة، طبعة سادسة، مصر، ١٩٢٣م، ص ٢٣٦.

ثبت المماليك في مواقعهم أثناء القتال في عين جالوت. فإنه وبالرغم من خرق جبهتهم القتالية من الجانب الأيسر ورغم الضغط الشديد للجيش المغولي فقد استطاعوا الثابت بصبر وعناد وسدوا الثغرة والتحمت الصفوف التي اختلت، وقاتلوا قتالاً شديداً وأخرجوا فيه المغول من أمكنتهم التي اتخذوها خطا دفاعياً منيعاً. كما وأنه أثناء القتال فقد القائد الأعلى فرسه، وظل يقاتل إلى أن عرض عليه أحد المقاتلين فرساً يركبه(١)، وأطلق حينها صرخة مدوية تدل على الشدة والحزم أثناء احتدام المعارك(٢).

أقدم الجيش المملوكي خلال المعركة على حرق المزارع والبيوت بمن فيها من المقاتلين المغوليين المختبئين والفارين من القتال، فلم ينج منهم أحد إلا ما استطاع أن يتجنب تلك النيران التي انتشرت في كل مكان من تمركز هؤلاء، والذي نجا منهم كان مصيره القتل(٣) بالرغم من أن الجيش المغولي قد اتسم بتلك الصفات(٤). غير أن الجيش المملوكي كان قد حاربه بأسلوبه الذي كان يسير عليه وظل المغول مصممين على القتال واستخدم ما أمكن من الأسلحة في سبيل الحصول على النصر ولكن دون جدوى.

المبحث الثاني: إعداد الخطط العسكرية:

١- التعبئة العسكرية وأنواع الخطط والحيل التي يستخدمها الجيش المملوكي:

على غرار جميع الجيوش عند النفير العام تبدأ باستدعاء الاحتياط والتحضير للقتال ومواجهة الأعداء، وهكذا فقد جرت العادة لدى الجيش المملوكي أن يعبأ على أربع حالات، ويقاتل حسب الحالة الملائمة تبعاً لطبيعة الأرض وقوة العدو وأنواع الأسلحة المستخدمة. ففي معركة عين جالوت استخدمت تعبئة القائد الأعلى للجيش أو (الأتابك)، وتتميز هذه التعبئة عن الحالات الثلاث، وهي تعبئة الجند والأركان وتعبئة القادة، في حين أن القائد الأعلى يملك احتياطاً قوياً، وأن إدارة المعركة تكون مركزية، حيث يسيطر في هذه الحالة على الكمائن والكراديس والصفوف ويوجهها حسب الخطر المحدق به ويعطي التوجيهات المباشرة(5).

يعتبر الدفاع المتحرك وهو من الوسائل القتالية المعتمدة والأساسية التي يطبقها الجيش المملوكي في حروبه، بحيث أنه يتقدم الصف الأول من الرجال المدرعين جيداً والمجهزين بكامل

---

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٥١٦.

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٣٨١-٣٨٣.

(3) الهمذاني، جامع التواريخ، ج٢، ق١، ص ٣١٤.

(4) أسعد: إبراهيم، ماركو بولو من قصص الرحالة والمستكشفين، دار المعارف، مصر، ١٩٥٨م، ص ١١-١٢.

(5) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ٢٩٢-٢٩٤.

أسلحتهم ويصطفون حسب عددهم أما على صفين أو ثلاثة صفوف، ويكون الصف الأول أقوى ما يكون من الرجال بدنياً وقوة وثباتاً وسلاحاً وتجربة سابقة في الحروب، وعلى القائد أن يوازن في القوى والوسائط بينه وبين عدوه من خلال ما تم تحصيله من معلومات بواسطة الجواسيس والعيون، وأن يستخدم الأسلوب القتالي الذي يتفوق به على خصمه، وأن يضع في اعتباره السلاح والخيل وطرق الدعم والتموين، فإن تساوى معه في السلاح كان عليه أن يتفوق في الخيل، وإذا تساوى معه في السلاح والخيل، يجب عليه حينئذ أن يستخدم الحيلة والخديعة. ومن أهم الحيل التي كان يستخدمها الجيش المملوكي هو التظاهر بالضعف أمام العدو والانسحاب أمامه حتى إذا ما وصل إلى مكان محدد كان قد حضر له مسبقاً في نطاق خطة معينة، أطبق عليه من كل جانب، على النحو ووفق الخطة المرسومة التي أعدت لموقعة عين جالوت[١].

يتقدم الصف الأول فيقاتل، ومن ثم الصف الثاني من خلال الصف الأول ومن بين الفرج بين الجنود فيقاتل أيضاً، ثم يتقدم الصف الثالث وهكذا دواليك، فإذا كان العدو قوياً صمدت الصفوف جميعها، وإن كان العدو ضعيفاً تقدمت الصفوف وفق التنسيق المتبع بالتناوب. وبهذه الطريقة يمكن رفع وتيرة الهجوم ومطاردة العدو والقضاء عليه قبل أن يتمكن من جمع قواته[٢].

أما طريقة قتال الكردوس في المعركة فهي على صفوف، وبين كل كردوس وآخر مسافة تمكنه من تبديل الأول الذي يقاتل في الإنساق الأول، ويتقدم الكردوس الثاني والثالث من خلال الكردوس المتقدم الأول والثاني. وهكذا تتقدم الكراديس كلها صفاً تلو الآخر[٣].

تفوق المغول عند بداية المعركة التي ابتدأت بالسهام[٤]. إذ رشقوا الجيش المملوكي فأثروا بذلك على تقدمهم، وتراجع أمام ضغط وتأثير السهام، وقتل عدد كبير منه، ثم اعتدل الموقف بعد أن التقى الجيشان[5]. تلقى الجيش المملوكي السهام بلباس من سرابيل ودروع وبما كان يحمل من تروس، حتى إذا مضت الرشقة الأولى وقبل أن تبدأ الرشقة الثانية وبتوقيت مناسب حمل الجيش المملوكي على الجيش المغولي بالخيل في الفترة القصيرة بين الرشقتين بخفة وسرعة عالية، استطاع بمرونته تلك أن يلجم عدوه وأن يقوم هو بهجوم معاكس.

يسمي الجيش المملوكي القوات التي تقوم بالالتفاف من المجنبات بـ"تقويس الصفوف" فالقوات في الدفاع المتحرك تقوم بالصدمة وبالالتفاف القريب والبعيد، إذ أنها تتقدم قليلاً حتى تتمكن من نفسها

---

(1) الناصري، المصدر نفسه، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(2) الناصري، المصدر نفسه، ص ٣٠٦-٣٠٧.

(3) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وضغط الدروب، ص ٣٠٧.

(4) البغدادي، الإفادة والاعتبار، ص ١٢٦.

(5) الهمذاني، جامع للتواريخ، ج٢، ق١، ص ٣١٣-٣١٤.

وتصبح قادرة على الفتك بالعدو، وإذا لم تتهيأ الظروف لتطبيق هذه التشكيلة عمد الجيش المملوكي إلى جعل الصف الأول منتظماً على نسق واحد، والصف الثاني على انفراج وانفتاح نحو الأمام، وكلما تقدم ازدادت الفرجة حتى تصل إلى درجة الإحاطة بالعدو، وحينئذ يصعب عليه الإفلات أو التخلص من الكماشة المطبقة عليه(١).

اعتمد الجيش المملوكي في عين جالوت على الدفاع المتحرك الذي كان سبباً مباشراً في جذب القوة المغولية المهاجمة إلى مكان إبادتها وإجبارها على التحرك عبر هذا المسار ووفق خطة مسبقة وضعت من قبل قيادة أركان الجيش تحقق من خلالها القضاء على العدو المتسرب الذي ما أن وصل إلى جبهة وعمق محددين وملائمين للجيش المملوكي، حتى أطبق عليه من الأجناب، وقامت هذه القوات بجميع صفوفها وأسلحتها بالهجوم المعاكس والكمائن المفاجئة من الأجناب والأمام والخلف(٢).

وهكذا فقد كانت المناورة واضحة في ميدان القتال للجيش المملوكي، وكذلك فإن الحركة النشيطة التي يتطلبها هذا النوع من القتال، بالإضافة إلى المهارة الميدانية والقيام بالهجمات المعاكسة أدت جميعها إلى الانتقال من الدفاع المتحرك إلى الهجوم.

استطاع الجيش المملوكي الإيقاع بالجيش المغولي واستدراجه إلى حيث يريد ذلك عبر وضع مجموعات قتالية في الوسط مهمتها إعاقة وجذب القوات المعادية والتحرك التضليلي، كما وضعت بعض المجموعات على المجنبات للقيام بالهجمات المعاكسة ونصب الكمائن المفاجئة للعدو، كما تمركزت في الأنساق الأخيرة ومن الخلف قوات شكلت مع القوة المنسحبة أمام العدو قوة رئيسية قامت بالالتفاف القريب والبعيد على مجنبات الجيش المغولي ومؤخرته. تلك الخطط التي طبقها الجيش المملوكي أسقط من خلالها الكثير من القتلى في صفوف المغول ولم ينج منه إلا القليل الفارين حيث تم إبادتهم بواسطة الكمائن المعدة مسبقاً بعد انكفائهم من المعركة(٣). إن هذا النوع من القتال استخدمته الجيوش المغولية في قتالها أثناء اجتياحها لمعظم البلدان التي خضعت لسلطانها(٤).

إن الجيشان المغولي والمملوكي متساويان في الصفات الحربية وفي الفن الحربي وكلاهما اعتمد الدفاع المتحرك والأساليب القتالية الملحقة بهذا الدفاع كالانسحاب الخداعي ثم الالتفاف والتطويق وغيرها من الأعمال التي تخدم لكل منهما عقيدته العسكرية(٥).

---

(1) الناصري، المصدر السابق، ص ٣١٤-٣١٥.

(2) الهمذاني، المصدر السابق، ج٢، ق١، ص ٣٠٤.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص ٧٩ و١٠١. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٣٦١.

(4) العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج١، ص ١٠٧-١٠٨.

(5) Rachid, Al- Din, The Successons of Genghis KHAN, translated from the persian by John Andrew Beyle, New York and London, Colombia University Press 1971, P. 90.

٢- دور التحريض والشحن العقائدي على مجريات المعارك العسكرية:

تربى معظم الجيش المملوكي منذ الصغر على العقيد الإسلامية وإلى جانبها العقيدة القتالية بشكل متوازٍ، فالعسكري يعرف الصلاة كما يعرف نظام الصفوف معرفة دقيقة، وانطلاقاً من قول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ [1]، أو كقوله تعالى أيضاً ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [2]، وهذه الآية تتوافق مع التعبئة ونظامها ووجوب تقدم المال والنفس، فهي عنوان إرادة القتال التي تدرس في المدارس والمعاهد والكليات المملوكية، وفي المساجد والزوايا والخوانق، في حين أن الثبات أمام الأعداء تفرضه العقيدة الدينية والقتالية في آن معاً، فلم يكن يسمح لجندي أن يترك مكانه ما لم يكن هذا الترك هو انضمام إلى جماعة أخرى أو إجراء تبديل بين الصفوف.

أما التحريض فهو مبدأ معنوي متلازم مع العقيدة يأخذ منه كل القادة الذين سيدخلون المعارك، كقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾ [3]. وهكذا أدرك المظفر قطز أهمية التحريض على القتال[4] في معركة عين جالوت عند قتله رسل المغول والاندفاع على رأس الجيش في تلك المعركة عندما اضطرب جناح عسكر السلطان وانتقض طرف منه فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته وإسلاماه وحمل بنفسه ومن معه حملة صادقة فأيده الله تعالى بنصره[5] وبهذا التصرف من قبل السلطان يعمل على رفع الروح المعنوية لدى جيشه ويجبره على القتال.

وقد كان للموجهون أي الدعاة والمشايخ دوراً كبيراً في هذا الإطار، كما له من قيمة اجتماعية ومكرمة عقائدية تساوي تلك المنزلة لدى القادة المقاتلين[6]. وقد كان للشيخ عز الدين عبد السلام التأثير

---

(1) سورة الصف، الآية رقم ٤.

(2) سورة التوبة، الآية رقم ٤١.

(3) سورة الأنفال، الآية ٦٥.

(4) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ٣٣٦.

(5) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٥١٦.

(6) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص ١١٩.

الروحي الأمر الذي مكن قطز من إصدار قراره القتالي والمواجهة[1]. وللشيخ خضر بن أبي بكر المهراني التأثير الكبير أيضاً على قرارات الملك الظاهر بيبرس ومسيرته القتالية والمعنوية[٢].

وهكذا فإن التحام العقيدتين الروحية والقتالية في الجيش المملوكي، عززت ثقة المقاتل بنفسه أكثر وجعلت منه بطلاً لا يهاب الموت، وشجاعاً لا يخشى إلا الله تعالى.

٣- استباق السيطرة على النقاط والمواقع المهمة:

يتخذ الجيش المغولي سلسلة من الإجراءات حين تحركه للقتال كشق الطرقات وتمهيدها وصيانتها، ونصب الجسور وتأمين مصادر المياه والمراعي، ومن ثم وضع الحراسات عليها، وهو بذلك يتفق مع الجيش المملوكي في أنهم يتشابهان في ذلك، كما يوجد أيضاً على بعض المواقع علامات كالعمد (الأعمدة) التي تهدي المسافر وبخاصة أيام الضباب والأمطار[٣]. بما أن مثل هذه المواقع تعد مهمة جداً بالنسبة للجيشان المغولي والمملوكي حول أهمية استباق السيطرة عليها والتزود منها بالمؤون والماء، فقد أهملها الجيش المغولي أثناء مسيره إلى عين جالوت، ومعظم النقاط والمواقع المهمة التي يمكن الاستفادة منها لجيشه، متخلياً بذلك عن التعليمات والتجارب التي كان قد اكتسبها في حروبه الماضية، وذلك أثناء تحركه من البقاع وبلاد الشام إلى أرض المعركة[٤]. هذا في حين أن الجيش المملوكي توجه مباشرة من مصر إلى الريدانية ومنها إلى الصالحية، وغزة ثم عكا وصولاً إلى عين جالوت[5]. وكان قد شكل الحراسة والجاليش والطليعة ودوريات الأجناب، واتخذ حيطة المسير، ومطبقاً القواعد الأساسية في التحرك، فابتعد عن الطرق غير المسلوكة أو غير الممهدة، وسلك نقاط ومواقع معروفة مسبقاً وعين الحراسات اللازمة لها[٦].

٤- سياسة التحييد والتفرد بالأعداء كل على حدة:

بعد أن قطع الجيش المملوكي مسافة كبيرة من مصر إلى فلسطين، كان عليه أن يسير في مناطق خاضعة لنفوذ الصليبيين، لأن الساحل الجنوبي الغربي لبلاد الشام كان ولا يزال يحكمه الصليبيون، وهؤلاء في نظر الدولة المملوكية أعداء من الواجب الحذر من غدرهم أو تصديهم للجيش المملوكي المتوجه لقتال المغول قبل أي عدو آخر[٧]. وقد أراد المظفر قطز أن يأمن جانب الصليبيين

(1) السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢، ص ٩٥.

(2) السيوطي، المصدر نفسه، ج١، ص ٥٢١.

(3) متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢، ص ٤٠٠.

(4) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٣٤٩.

(5) الطباخ، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ج٢، ص ٢٩١.

(6) الهمذاني، جامع التواريخ، ج٢، ق١، ص ٢٣٥.

(7) ميلي، الدو: العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، مطابع دار العلم، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٢٩١.

قبل مواجهة المغول أي أن يعمل على تحيدهم وذلك عندما عرضوا عليه المساعدة أو المشاركة في القتال فأبى. وتعد عكا في حينها عاصمة مدن الساحل وملتقى التجار من المسلمين والصليبيين، وتعتبر من الناحية العسكرية قاعدة تموينية للجيوش التي تقاتل في فلسطين(١). وقد استفاد منها الجيش المملوكي في هذا الإطار، وفرض على الصليبيين عهداً أن لا يكونوا معه ولا عليه، وأكد على ذلك العهد عندما سار في نطاق مملكتهم ووضع في حسبانه إن أخلفوا أن يقاتلهم لوحدهم معتمداً في ذلك على مبدأ التحييد والتفرد(٢).

٥- أهمية التمويه والتخفي عن أعين العدو:

شيئاً فشيئاً أخذت القوات المملوكية تقترب من القوات المغولية ولكن ليس على مرآى منها، وبخاصة عند وصول الجيش المملوكي إلى عكا وبقائه فيها فترة طويلة حيث أخذ معظم أفراده يمارس أعمال التجارة، متخفين في ذلك عن أعين المغول، وقد استغل المماليك هذا التمويه والتراخي من قبل المغول وتسللوا عبر الوديان والممرات متجهين إلى عكا ناحية الجنوب الشرقي، حيث وصلوا إلى مرج ابن أبي عامر دون علم القوات المغولية بهذا التحرك(٣). بالإضافة إلى أن المغول تخلفوا عن استخدام التخفي والتمويه الذين اعتادوه في حروبهم السابقة(٤) ربما يعود ذلك إلى استخفافهم بعدوهم فلا يحتاجون إلى تلك الترتيبات.

٦- أهمية اختيار زمان ومكان المعركة بما يتناسب مع مصلحة الجيش:

للقائد الأعلى للجيش الحق في اختيار الزمان والمكان المناسبين للمعركة المنتظرة، ففي عين جالوت، جاء اختيار الزمان في صباح ٢٥ رمضان من سنة ٦٥٨هـ/٣ أيلول ١٢٦٠م (٥) حيث الجو كان لا يزال حاراً، وقد اشتهرت تلك الأراضي بدفئها في الشتاء وحرارتها المرتفعة صيفاً، فالمغول تؤثر فيهم حرارة الشمس أكثر من المماليك ذلك لأنهم تعودوا الطقس القاري البارد في بلادهم(٦). أما المماليك فإنهم تعودوا هذا النوع من المناخ وهو ملائم لهم ولتحركهم في الميدان بعكس المغول الذين كانوا يشعرون بثقل في تحركاتهم أثناء القتال.

---

(1) ابن جبير: محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)، دار مصر للطباعة، ١٩٥٥م، ص ٢٩٣ و٢٩٦.

(2) سرور: محمد جمال الدين، الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٣٨م، ص ٥٠.

(3) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٣٠٣. العريني، المغول، ص ٢٥٩-٢٦٠.

(4) أسعد، ماركو بولو من قصص الرحالة والمكتشفين، ص ٥٢.

(5) القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، ص ١٩٨.

(6) العريني، المغول، ص ٦.

أما لاختيار مكان المعركة فيرجع ذلك إلى تقدير القيادات العسكرية العليا في الجيش المملوكي، وإذا ما نظرنا إلى تضاريس وطبيعة الأرض لوجدنا أن مصر أرض سهلية والجيش يكون فيها مكشوفاً والقيام بالمناورات يبقى صعباً، والمعركة تكون سهلة الحسم بالنسبة للمهاجم، بينما أرض فلسطين التي هي امتداد لأرض بلاد الشام نجدها أرض وعرة المسالك تكثر فيها الجبال والوديان والأحراج التي يسهل فيها التخفي ونصب الكمائن ومن الصعب حسم المعركة بسرعة، كما أن إستراتيجية اختيار أرض المعركة في عين جالوت بعيداً عن أرض مصر بحد ذاتها حرباً نفسية تؤثر في معنويات الجيش المغولي ورسالة تحدي إلى جانب قتل رسله من أن الجيش الذي تهددونه هو القادم لملاقاتكم، بالإضافة إلى أن المواجهة بعيداً عن الديار تساهم نوعاً ما في التقليل من الخسائر والخراب الذي قد يلحق بالبلاد.

٧- دور الكمائن في أعمال المطاردة:

الكمين كما هو معروف هو مجموعة من العناصر تثبت في مكان دون أي حراك أو ضوضاء أو أي شيء يدل على مكان وجودها للانقضاض على هدف ما. وهكذا فقد تمركزت بعض الوحدات من الجيش المملوكي بقيادة الظاهر بيبرس شرقي بيسان عند الوادي وهو الطريق المحتمل لانسحاب الجيش المغولي في حال تعرضه للهزيمة في المكان المتوقع للمعركة. وقد جاءت حسابات قائد أركان الجيش المملوكي في محلها عند انهزام المغول وانسحابهم من عين جالوت، وبتوقيت معين لاقترابهم من موقع الكمائن هبت جميع الوحدات تتلقى المغول قتلاً وتنكيلاً، فكانت موقعة يمكن أن تسمى موقعة الكمائن وأكبر من الموقعة التي حدثت في عين جالوت نظراً لأعداد القتلى الذين سقطوا فيها[١].

أما في المطاردة فقد اتجه المغول بعد فرارهم من عين جالوت باتجاه الشرق عبر المنافذ الخارجية من أرض فلسطين جنوب بحيرة طبرية[٢]، وقد كان فرارهم دون ترتيب أو نظام والفوضى تعم صفوفهم، فتقتلهم الكمائن المرابطة على طريق فرارهم وتفتك بهم، بقيادة بيبرس، لأن من نجا من الكمين لا يمكنه النجاة من مغارز المطاردة عند كل منعطف، وقد اتبع بيبرس في تلك المطاردة السرعة لكي يدركهم ويتجاوزهم ويوقع فيهم أكبر قدر من الخسائر. وقد ظلت أعمال المطاردة ملاصقة لفلول المغول حتى أوصلوهم إلى دمشق وتتبع الظاهر بيبرس أيضاً قسم كبير من المغول الهاربين باتجاه حلب، وقد استمرت أعمال المطاردة عدة أيام ذاق فيها المغول ما أذاقوه لغيرهم من الشعوب في القتل والتنكيل والأسر[٣].

---

(1) الشهابي، الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان، ص ٤٣٩.

(2) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص ٢٩٧.

(3) بيشوف: تيدور الجرماني، تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء، ترجمة وتحقيق شوقي شعث وفالح بكور، دمشق، طبعة ثانية، ١٩٩٢، ص ١٣١.

وهكذا فقد كانت الكمائن وأعمال المطاردة من أعنف الأعمال العسكرية التي قام بها الجيش المملوكي في حروبه بعد معركة عين جالوت، وإن كانت بقية المعارك اللاحقة أخف وطأة وأقل اتساعاً.

٨- دور القيادة المملوكية في عملية تضليل المغول عن الجيش المتوجه إلى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م:

اقتضت الخطة العسكرية المملوكية قبل تحركها باتجاه أرض فلسطين لملاقاة المغول أن قامت بتقسيم جيشها إلى مجموعتان، فالمجموعة الأولى تتجه نحو الساحل، والأخرى تتجه بشكل مواز له على أن تنحرف شرقاً لاجتذاب المغول ومن ثم يلتقيا في عين جالوت في مرج ابن أبي عامر، فقد انطلق المظفر قطز قائد المجموعة الأولى مستخدماً طيات الأرض التي تسهل له التحرك المستور والمتخفي[1]. بالمقابل انطلق الظاهر بيبرس قائد المجموعة الثانية بهدف جذب الجيش المغولي إليه وصرف انتباهه عن المجموعة الأولى، وبهذا العمل سمحت الظروف لقطز بأن يتقدم بأمان ويتمركز هو وجيشه في المكان المناسب بعد أن تزود بالمؤن اللازمة.

وهذا وفق الخطة المتبعة التقت المجموعتان في الزمان والمكان عينه، وقد تمركزت المجموعة الأولى بقيادة قطز في مواقعها، بينما كانت المجموعة الثانية تتقدم حتى التقتا أمام وخلف الجيش المغولي، وبهذا تكون القوتان قد تمت بإحاطة قريبة والتفاف بعيد تساعد أحداهما الأخرى حتى تم الإطباق على الجيش المغولي بأكمله. وقد اتبع بيبرس فيما بعد في حروبه التي تلت نفس هذا الأسلوب من القتال الإستراتيجي فاسترد انطاكيا من أيدي الصليبيين[2].

٩- الترتيب والتشكيلات المقاتلة المملوكية وطرق تطبيقها في ميدان المعارك:

اتبع الجيش المملوكي كغيره من الجيوش القديمة في اعتماد الطرق والأساليب التقليدية لناحية ترتيب القتال وفق صفوف منبسقة ونظام الميمنة والميسرة والقلب، فكان قطز قائد الجيش في القلب، وركناه في الميمنة والميسرة وهما وظيفتان يتولاهما الأمراء ويسمون بها "أمير ميمنة" و"أمير ميسرة" أو "رأس ميمنة" و"رأس ميسرة"[3]. ويصف ابن خلدون القتال والتشكيلات القتالية عند المماليك بقوله "وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد كان قتالهم بالسهام، وأن تعبئة الحرب عندهم بالمصاف وأنهم يقسمون ثلاثة صفوف، يضربون صفاً وراء صفاً"[4] والمقصود بالمصاف هو تشكيل القتال فيما قبل المعركة وهو عبارة عن تنظيم وترتيب الجنود للسير في الصفوف القتالية التي هي بهذا الترتيب يدخل بها القائد

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٣٦٦.

(2) الشيال: جمال الدين، تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، مصر، ١٩٦٧م، ج٢، ص ٢١٦.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١١، ص ٣٦٧.

(4) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٧٤.

المعركة، وتعرف اليوم باسم الأنساق، وبذلك نجد أن تشكيل المعركة يتكون من ثلاثة مصاف أي ثلاثة أنساق.

عمل المماليك في جميع حروبهم التي خاضوها على اعتماد تشكيل الصفوف، وقد كانوا حازمين في تطبيقها وتوعدهم لعناصرهم أن من يخرج من الصف يعاقب بأقصى أنواع العقاب، وأنه لما خرج الناصر محمد لقتال التتار سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م في عهد سلطنته الثانية، إذ نودي على العسكر: من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه[١].

لقد أورد الناصري محمد بن منكلي العديد من التشكيلات العسكرية والتي تطابق التشكيلات الحديثة وهي لم تستخدم في القوى العسكرية الحالية وإن اختلفت مسمياتها وهي على الشكل التالي:

- الصف المستوى، وهو ما يعرف بتشكيل نسق واحد.
- تشكيل تعبية السوران، بمعنى الأسوار وتعرف بتشكيل "رأس سهم معكوس" والتي تستخدم في عمليات التطويق والالتفاف لنقطة منفصلة أو مستقلة بعد حصارها.
- تعبية الصف الخارج الصدر، وهو نسق واحد لحماية الأجناب ويستخدم في حالة توقع هجوم مفاجئ للعدو من أحد الأجناب.
- تعبية الظامتر، يعرف بتشكيل ثلاثة أنساق[٢].

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٣٥٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٠٣.

(2) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ١٥٠.

نماذج لأنواع التعبيات والتشكيلات القتالية المملوكية[1]

انواع التعبية انواع التشكيلات القتالية
(من كتاب الأدلة الرسمية في التعابي الحربية)

تعبية الصف المستوي
(تشكيل نسق واحد)
(١)

تعبية السوران
(تشكيل رأس سهم معكوس)
(٢)

تعبية الصف الخارج الصدر
(تشكيل نسق واحد مع حماية الاجناب)
(٣)

تعبيه الظامتر
(تشكيل ثلاثة أنساق)
(٤)

ممكن أن يكون كل شكل ⬯ يمثل جندى أو مجموعة من الجنود بقوة أمير خمسة أو أمير عشرة أو أمير أربعين وحتى أمير مائة ويكون في داخلية كل مجموعة تشكيل يناسب العدد من تشكيلات القتال للوحدات الصغرى وكذلك يناسب مكانه ضمن التشكيل الأكبر.

---

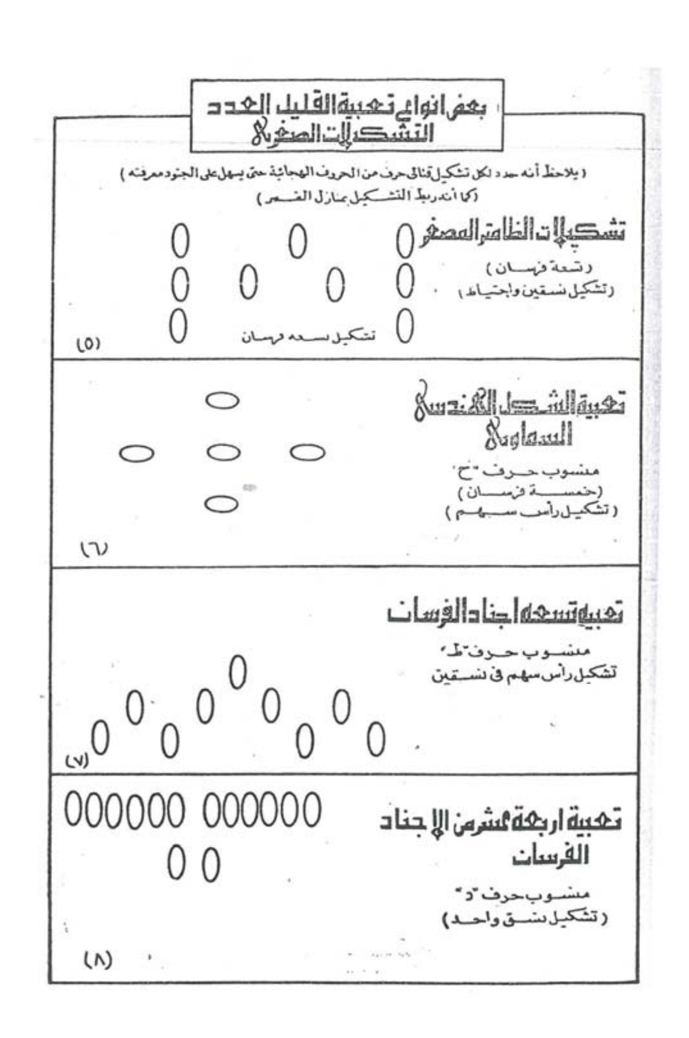
(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ١٥٨.

- تشكيل الظامتر المصغر، يعرف بتشكيل نسقين واحتياط، ويتألف من تسعة فرسان.
- تعبية السماوي، أو منسوب حرف (ج) يستخدم هذا التشكيل للوصول إلى العمق في دفاعات العدو ويعرف بتشكيل رأس سهم.
- تعبية تسعة أجناد، أو منسوب حرف (ط) وهو معروف برأس سهم في نسقين ويستخدم أيضاً لسرعة الوصول إلى عمق دفاعات العدو.
- تعبية أربعة عشر فارساً، أو منسوب حرف (د) يستخدم لتدمير عدو قليل العدد. وهو تشكيل بنسق واحد.
- تعبية خمسة عشرة فارساً، ومنسوب حرف (ي) كما كان يعرف في ذلك الوقت ويستخدم لتدمير عدو قليل العدد.
- تعبية الدبزان، ومنسوب بحرف (ز) وهو على رأس سهم مقلوب ولكنه يستخدم لتطويق أحد الأجناب فقط.
- تعبية المنازل القمرية، وهي ذات تنسيق واحد وينقسم إلى قسمين أحدهما ستة عشر – الآخر اثني عشر.
- تعبية منزلة الرشا، وهي نسق واحد في تسعة وثلاثين فارساً ويمكن إضافة تسعة فرسان عليها لتصبح خمس وأربعون. وتعد هذهِ التعبية من الاحتياط.
- تعبية شهروان، وهو ما يعرف بالتشكيل الصندوقي.
- تعبية ذات الدوائر، أي التشكيل الدائرة والذي يستخدم لتحقيق السيطرة والقيادة وللتأمين من جميع الاتجاهات من الهجمات المفاجئة.
- تعبئة حوض النجاة، وهو تشكيل لرأس مقلوب.

وهكذا، فإن اتخاذ بعض التشكيلات القتالية بتلك الصورة أو بالحروف هو من أرقى أنواع العلم العسكري، فيكفي أن يصدر القائد الحرف اللازم لاتخاذ التشكيل المطلوب دون إضافة أو شرح[1].

(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العهد المملوكي البحري، ص ١٥٠-١٥١.

نماذج لأنواع التعبيات والتشكيلات القتالية المملوكية[1]



تعبية خمسة عشر فارسا
منسوب حرف "ى"
(تشكيل نسق واحد واحتياطى خفيف)
(١٢)

تعبية الدبزات
(منسوب حرف "ز")
(سبعة فرسان)
(١٣)

تعبية المنازل القمرية
(تشكيل نسق واحد)
عدد الجوبية إثنى عشر — عدد الشمالية سته عشر
(١٤)

تعبية منزلة الرشا
(تسعة وثلاثون فارسا)
(تشكيل نسق واحد)
ثم يمكن أن يرتب عليها تسعة من الفرسان ليكون تشكيل خمسة وأربعون
(ويكون فى هذه الحالة تشكيل نسق واحد واحتياط)
(١٥)

---

(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ١٥٩ و١٦١.

نماذج لأنواع التعبيات والتشكيلات القتالية[١]

تعبية شكروات
(تشكيل صـــندوق)
(٩)

تعبية ذات الدواير
(تشكيل دائــرى)
(١٠)

تعبية حوض النجاه
(تشكيل رأس سهم مقلوب)
(١١)

(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ١٦٠.

وبالعودة إلى تشكيل الصفوف التي يتبعها قادة التشكيلات والتي هي أصغر من الجيش خاصة في عملية التبديل أثناء القتال، فيتم ذلك بالتتابع ويجب أن يكون على جانب كبير من التدريب، لأن أي خطأ يظهر في الانتقال من صف إلى صف يؤدي بصاحبه إلى الهلاك أو الهزيمة، وبالمقابل فإن إبطال صف ما قد يربك القيادة ويؤخر تقديم المقاتلين لأخذ أماكنهم في التشكيلة الواحدة.

لقد اتبع الجيش المملوكي عدة طرق للقتال، وكان ينتقي الطريقة أو التشكيلة التي تتناسب مع العدو والأرض والإمكانيات المتاحة، فإن قدم العدو النشابة كمن واستمر وعاجله بالخيل بعد الرشقة الأولى، وإن قدم رماحة الخيل سبقه الجيش المملوكي في ذلك لما كان يتمتع به من سرعة للحركة والمناورة، وإن قدم الرجال قدم أيضاً هذه الفئة متبوعة بالخيل، وإن قدم النشابة والرماحة في صف واحد زحف إليه بخيله ورجاله، وفي بعض الأحيان الرماحة والنشابة من الرجال ويتبعها الخيل[١].

١٠- البريد ووسائط الاتصال في الدولة المملوكية:

كان البريد من أهم وسائط الاتصال بين مقر الدولة المملوكية في القاهرة وبين نياباتها في بلاد الشام وبقية الأقاليم التابعة لها.

ينقل البريد بواسطة الخيل ويطلق على حامله "البريدي" في حين يطلق على الذي ينقله على الجمال "النجاب"، والذي يشرف على الحمام الزاجل "البراج"، إن موظفي البريد هم الذين يحملون الطرود والرسائل في حقيبة خاصة ويلبسون لباساً يعرفون به[٢].

خصصت الدولة المملوكية ديواناً للبريد، وجعلت سجلات خاصة[٣]، وأنشأت محطات وعينت لها العناصر في كل الفئات البريدية "الخيل، الجمال، الحمام"، وكثرت أبراج الحمام والبراجون، وكانت لهذه الفئة دور كبير في المراسلات الحربية. وقد زودت تلك المحطات بمختلف أنواع الأطعمة والأعلاف والراحة للمسافرين[٤].

لم يستخدم البريد على نطاق واسع في معركة عين جالوت، إنما استخدام قبلها حين أرسل المظفر قطز برسل إلى الملك الناصر صاحب دمشق وإلى القادة الأمراء الذين فروا من مصر والتجاؤا إلى الملك المغيث في الكرك حين دعاهم إلى البلاد وللاشتراك في قتال المغول، وبعد الانتصار حين أرسل ببريد إلى بلاد الشام وآخر إلى مصر وبقية الأقطار الأخرى يزف إليهم بشرى الانتصار وقضائه على المغول[٥].

---

(1) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ١٩٤.

(2) ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص ٣٧.

(3) ماجد، المرجع نفسه، ص ٣٧.

(4) الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص ١٩.

(5) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ص ٣٠٦-٣٠٧.

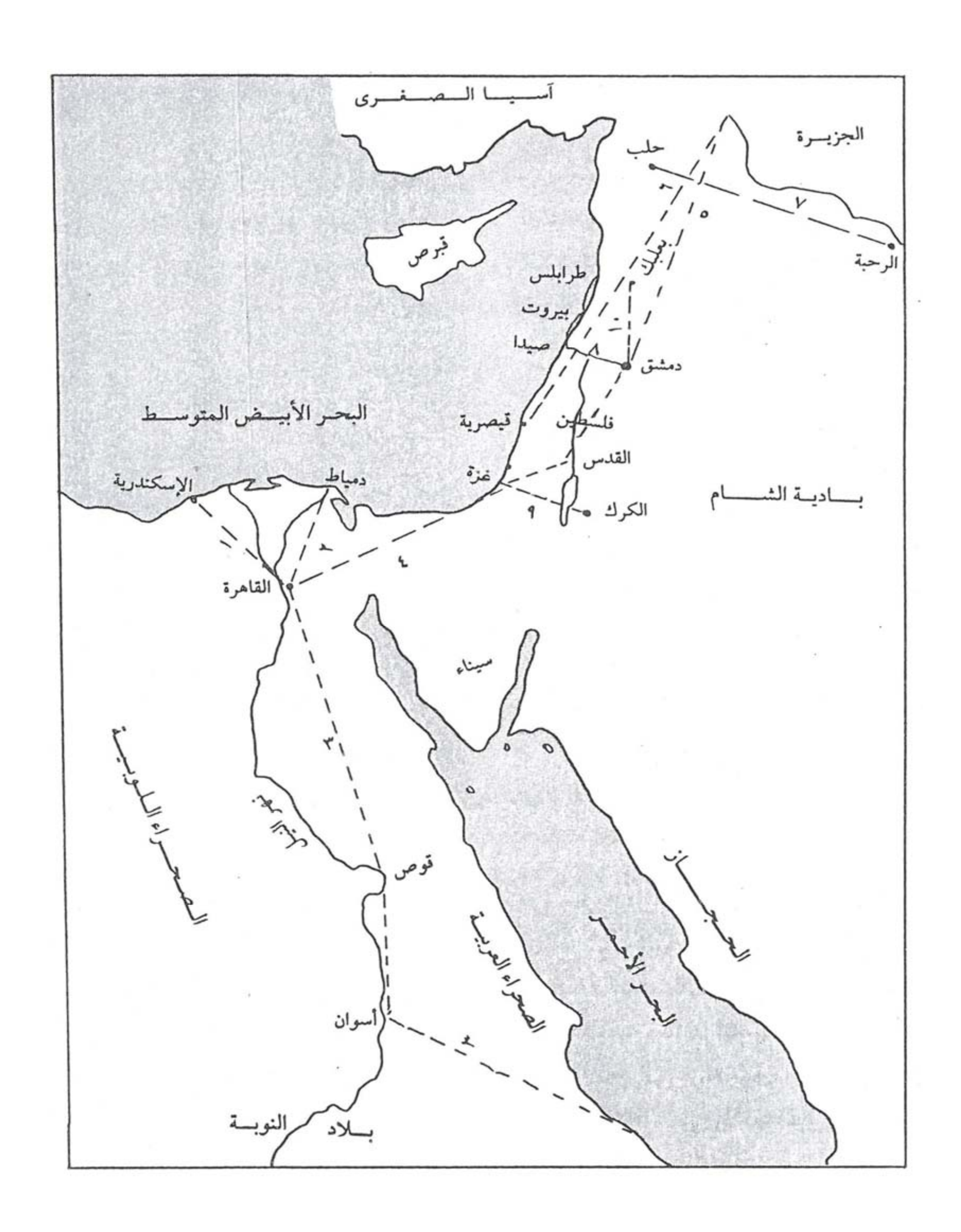
ارتقى البريد بعدها وتطور أكثر في عهد الظاهر بيبرس وجعل قلعة الجبل مركزاً لخطوط البريد. واهتم بالحمام الزاجل وجعله من أهم وسائل نقل البريد وقد درب تدريباً دقيقاً ومتواصلاً لما فيه من المسؤولية، وقد كانت توضع الرسالة في جناح الطائر لحفظها من المطر، أو في الذنب، وكانت تكتب على نسختين بتاريخ واحد، تطلق النسخة الثانية بعد إطلاق الأولى بساعتين، حتى إذ تأخر أحد الطائرين ووصل الآخر أخذت وترك حتى يعثر على رفيقه لئلا يكون قد نزل في برج من أبراج المدينة أو افترسته الجوارح أو وقع في أيدي الأعداء[1].

هذا وقد نظم نقل البريد بواسطة الحمام الزاجل طبقاً للخطوط، ويلاحظ أنها كانت تغطي جميع أنحاء السلطنة وفي جميع الاتجاهات، وبالتالي تؤمن حدودها من أي أخطار خارجية تهدد الحدود، وهي تؤمن من جميع الاتجاهات الإستراتيجية للدولة، فقد كان في القلعة أبراج الحمام التي تحمل البطائق وكذلك برج الفيوم. وتوزعت الأبراج في جميع أنحاء السلطنة التي تنقل البطائق والمراسلات بين مصر والشام وما بين أسوان إلى الفرات، فجميعها أي البطائق تدرج وتنقل إلى القلعة ومن ثم توزع في سائر الاتجاهات[٢].

أما عن وسائل الاتصال الأخرى فقد استخدم المماليك النار في اتصالاتهم ليلاً، حيث لها محطات على رؤوس الجبال والتلال، إذ كانت تنقل الأخبار عن الجيش المغولي من الفرات إلى النيل في أقل من نصف يوم عبر المحطات المتتابعة التي كلف بها رجال اختصوا برموز النار ليلاً، وشارات الدخان نهاراً، وقد كان هناك محطة على الجبل المطل على بيسان[٣]. وربما كان لهذه المحطة دوراً في نقل الأخبار عن الجيش المغولي حين توجهه إلى عين جالوت.

(1) الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١١٧. القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج١، ص ١٥٤.
(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأثمار، ج٣، ص ٤٠٢.
(3) Demombyne: La Syrie a l'epoque des mamlouks, P. 260.

خارطة لخطوط ومسير الحمام الزاجل في أنحاء الدولة المملوكية كافة [1]



(1) طقوش: محمد سهيل، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٧م، ص ١٠٤.

استنتاجات:

لا يمكن لأي جيش أن يقدم على خوض غمار معركة ما دون تخطيط وإعداد وتنسيق وتحضير مسبق، مع دراسة معمقة قبل الإقدام على هكذا أمر.

لقد انتهج المماليك استراتيجيات عسكرية متقنة الأداء والتنفيذ أربكوا بها أعدائهم التقليديين ألا وهم الصليبيين، وفاجأت في الوقت عينه جحافل المغول الذين سقطت أسطورتهم أمام الجيش المملوكي الحديث النشأة والتكوين.

إن الفترة الزمنية ما بين قيام دولة المماليك ومعركة عين جالوت هي فترة قصيرة جداً وتكاد لا تذكر في حياة وسني ولادة الدول، سواء أكان ذلك من حيث النشأة أو التأسيس أو الظهور على مسرح السياسة الإقليمية أو الدولية في ذلك الزمن. لكن الدولة المملوكية هي حالة فريدة واستثنائية كانت قد ظهرت في التاريخ الإسلامي الوسيط، ووصلت إلى ما وصلت إليه من القوة والسلطان، وما إن شرعت في استلام مقاليد الحكم حتى أخذت في وضع مناهج حربية وأساليب متطورة في المواجهات العسكرية، وإن كانت تلك المناهج والأساليب مشابهة في مبادئها للعديد من الدول المعاصرة لها، إلا أن العبرة في التنفيذ، ومما لاشك فيه أن الجيش المملوكي كان لديه من النخب العسكرية ما يقوم بتطبيق تلك المبادئ على أرض الواقع وليس نظرياً فحسب، لأن ما كانوا قد تربوا عليه وحصلوه من الكفأة العسكرية والخطط الحربية خلال مناوراتهم وتدريباتهم، بالإضافة إلى ما اكتسبوه من خبرات ميدانية في أرض المعارك لاسيما في جيش الأيوبيين جعلهم يتقنون فنون المعارك ويمارسون مكائدها ويدخلونها بثقة كبيرة دون تردد أو خوف، وجعلهم يترجمون ما فقهوه من الخبرات الميدانية بتنفيذ مهماتهم على جناح السرعة ومباغتتهم للعدو وشل قدراته على المواجهة وذلك بعد عمليات استقصاء واسعة وذلك لضمان إنجاح المهمة.

لقد فرض التكتيك العسكري المملوكي نفسه في أتوم المعارك من خلال نتائجها التي أفضت إليه، وقد ظهرت تجليات ذلك في هزيمة المغول والقضاء على أسطورتهم، وفي تحرير المنطقة من الوجود الصليبي بشكل كامل.

الفصل السادس
أسلحة الجيش المملوكي وصنوفها

مقدمة

المبحث الأول: صناعة الأسلحة الفردية

١- صناعة النشاب (السهام)

٢- صناعة القوس (القسى)

٣- صناعة السيوف

٤- صناعة الرماح

٥- صناعة الدبوس

٦- صناعة الطبر (الأطبار)

٧- النمجاه

٨- صناعة الأدرعة والخوذ

أ- الزردية

ب- الجوشن

ج- القرقل

٩- واقيات الأيدي

١٠- واقيات الأرجل

١١- الترس

١٢- الخوذ

أ- الخوذة (البيضة)

ب- المغفر

ج- الواقية

المبحث الثاني: صناعة الأسلحة الجماعية

١- صناعة (المناجيق) وطرق استعمالها

٢- صناعة المدفعية

٣- صناعة النفط والنيران

٤- صناعة السلاح الكيميائي

٥- صناعة الدبابات

أ- الظبر

ب- رأس الكبش

ج- صناعة الأفخاخ

٦- صناعة الأسلحة البحرية

أ- دار صناعة الروضة

ب- دار صناعة مصر – الفسطاط

ج- دار صناعة بيروت

د- الأسلحة المستخدمة على ظهر السفن

٧- سلاح الفرسان

استنتاجات

الفصل السادس
أسلحة الجيش المملوكي وصنوفها

مقدمة:

تتشابه الأسلحة في الجيش المملوكي مع غيرها من الأسلحة في ذلك العصر، فكان النشاب والرمح والسيف والخنجر من الأسلحة الخفيفة والفردية التقليدية التي تعتمدها معظم الجيوش، بالإضافة إلى الأسلحة الثقيلة كالمناجيق واستخدام الخيل على نطاق واسع.

إن ما تميز به الجيش المملوكي مع ما ذكر من الأسلحة هو إضافة فنية للأسلحة الفردية، فالسيوف كانت متقدمة لديه سقياً وصقلاً وملمساً. مع تميزه في سلاح الفرسان لناحية استخدام الخيل واعتماده عليه كقوة ضاربة وحاسمة للمعارك. ليأتي بعده ابتكار سلاح المدفعية واستخدام النفط والنيران لتزيد من قدرات الجيش وترفع من مستواه القتالي وإرهاب أعدائه، تحقيقاً لمضمون الآية الكريمة في القرآن الكريم ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾[1].

تميزت الدولة المملوكية عن غيرها في ذلك العصر بقدرتها على تصنيع أسلحتها، ومن المعروف أن التصنيع يخضع لوجود مواد الخام اللازمة لذلك، وقد توفر للدولة المملوكية ما من شأنه أن تصبح دولة صناعية، وخاصة في مجال التصنيع الحربي والأسلحة على نطاق واسع، فالمماليك معظمهم أصلاً من الشرق الأسيوي، وبالتالي لديهم معرفة بتقنية تلك المنطقة في صناعة الأسلحة، والمشهور عن الشرق الأسيوي في ذلك الزمن أنهم أصحاب خبرة في صهر المعادن وتصنيع السلاح[٢]. كما أن المماليك ورثوا تقنية صناعة الأسلحة عن الأيوبيين بعد أن قرر الناصر صلاح الدين الأيوبي أن تكون غابات مصر ملكاً للدولة لما فيها من المواد الأولية لصناعة المناجيق والأساطيل[٣]. وهكذا فقد كانت الصناعات العسكرية المملوكية على الشكل الآتي:

---

(1) سورة الأنفال، الآية رقم ٦٠.

(2) القنوجي: صديق بن حسن، أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أهل العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م، ج١، ص ٣٤٣.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٣٤٠.

المبحث الأول: صناعة الأسلحة الفردية:

في العصر المملوكي تمت صناعة الأسلحة الفردية لمختلف تشكيلات الجيش، كالسيف والرمح والقوس والنشاب والخناجر والطبر. وأيضاً صناعة الأسلحة الجماعية المجانيق، بالإضافة إلى المعدات الثقيلة كالدروع والخوذ والزرديات والدبابات والمدفعية وغيرها.

١ - صناعة النشاب (السهام):

تتم صناعته على أيدي مهرة مختصة بصنعه، وتتم تجربته فإن ظهر به عيب، عدل حتى إذا صلح بعد تجارب عديدة، أدخل ضمن أسلحة الجيش، وكان يرمي به رشقاً ودراكاً ويصل إلى مسافات بعيدة[١].

شاعت صناعة النشاب واهتم بها القادة والجنود على السواء وقد عدت الصناعة الشامية لهذا النوع من السلاح من أفضل أنواع الصناعات ومن أجودها نوع يسمى "الفحل"[٢] وكذلك الأقواس أو ما يعرف بالقسى[٣].

ولصناعة النشاب يتم انتقاء الخشب في فصل الخريف، ومن ثم يتم جمعه وحزمه في الشتاء، وتركيب العقب في الربيع، والدهان والتصقيل في الصيف[٤]، وبذلك يكون قد مضى عاماً كاملاً على صنع هذا النوع من السلاح بحيث أنه يصل إلى أعلى درجة من درجات المتانة والقوة والفعالية. حتى أن صيانته والاعتناء به كانت تتم بنفس الوقت من السنة[5]. وللسهم أنواع وأقسام كالنفيل والعود والعقب والعوف، ومن السهم أيضاً (الخطاية) وهي سهام مصنوعة من عظام يرمى بها من قسي عظام فتكاد تخرق كل ما تصل إليه[٦].

فالنشاب هو عادة ما يكون نصله مثلثاً من الخشب أو الجراد أو الشبر، طوله بقدر شبر الرجل وذو مواصفات عالية في القتال ويتميز بسرعته ودقته في الإصابة[٧]. وللسهم أيضاً أسماء متعددة منها (أقذ) وهو الذي لا ريش عليه بمعنى "اهزع" وهو أردأ أنواعها، و(جباع) ولا نصل له، سهمه مدور الرأس يتعلم به الصبي الرمي، و(زمخر) يعرف بطوله، و(زالج) بمعنى "زاحف" وهو الذي يتزلج من

---

(1) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٩، ص ٢٤٠.
(2) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ٨١-٨٢.
(3) الناصري، المصدر نفسه، ص ٢٢٢.
(4) الناصري، المصدر نفسه، ص ٨٢-٨٣.
(5) زكي، السلاح في الإسلام، ص ٣٣.
(6) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ١٥٣.
(7) ريسلر: جاك، س، الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دون تاريخ، ص ٨٠.

القوس أي يسرع، وسهم (صادر) أي النافذ، (عبر) وهو السهم الموفور الريش[١]، وسهم (معراض) له ريش وهو سهم طويل له أربع قذذ دقاق، وسهم (مشقص) له نصل عريض. وجميع تلك السهام توضع في الكنانة[٢] بمعنى الجبعة التي يضع فيها الجندي ذخيرته.

٢- صناعة القوس (القسي):

اهتم المماليك بصناعة سلاح القوس كغيره من الأسلحة، وقد أطلق عليه أسماء عديدة منها: (جشو) وهي القوس الغليظة وقيل فيها أنها خفيفة أيضاً، وقوس "الجلهق" جمع جلاهق، وهي قسي البندق ويقال عنها "حنّانة" التي تحن عند الإنباض بمعنى أنها مرنة، وقوس "الحاشكة" وهي قوس بعيدة الرمي[٣].

كما كان لأوتار تلك الأقواس مثل "عنابل" و"عرد"[٤] بحيث لو أضيف إليها من الفراء أُبطلت أصواتها[٥].

يتألف القوس من أجزاء عدة تعرف باسم "السية"[٦] وهي الحزّة التي يقع فيها طرف الوتر المعقود، حيث يد القوس وهو أعلاها، ورجل القوس أسفلها، بالإضافة إلى الفرضة والظفر والكظر[٧].

ومن أنواع الأقواس هو قوس اليد الذي يستخدم باليد وتنطلق منه سهام كثيرة دفعة واحدة وتصل أحياناً إلى ثلاثين سهماً وفي اتجاهات مختلفة[٨].

وقد اشتهر من القسي العصفورية والمساحية والدمشقية[٩]. وهناك قوس اللولب، وقوس الركاب اللذان يحتاجان إلى مهارة عالية وتدريب متواصل[١٠].

٣- صناعة السيوف:

وعلى غرار الأمم والدول السابقة اهتم الجيش المملوكي في صناعة السيوف، وهذه الصناعة كغيرها تتطلب مواداً أولية وعلى رأسها الحديد الذي كان متوفراً بعض منه في جبال لبنان، كما كان

---

(1) النويري، ‌اية الأرب في فنون الأدب، ج٦، ص ٢٣١-٢٣٢.

(2) النويري، المصدر نفسه، ج٦، ص ٢٣٣.

(3) النويري، المصدر نفسه، ج٦، ص ٢٢٣.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج١٤، ص ١٥١.

(5) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٠.

(6) القلقشندي، المصدر نفسه، ج١، ص ٢٣٨.

(7) النويري، المصدر السابق، ج٦، ص ٢٢٣.

(8) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(9) الألوسي: محمد شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، المطبعة الرحمانية، طبعة ثانية، القاهرة، ١٩٢٤م، ج٢، ص ٦٥.

(10) الناصري، المصدر السابق، ص ٢٢٣.

يستورد أيضاً من أرمينيا[1]. ولشدة اهتمام الجيش المملوكي بالصناعة الحربية وبخاصة السيوف فقد تم إنشاء مدرسة أطلق عليها اسم "مدرسة صانعي السيوف وكان مركزها في القاهرة في قصر المأمون[2].

استخدم الجيش المملوكي السيف على نطاق واسع، وتعد السيوف من الأسلحة الفردية والأساسية في القتال، وكان من أشهر السيوف السليمانية والهندية واليمانية والدمشقية، على أن السيوف الرومية كانت أقطع وأقوى[3] وقد أطلق عليها العديد من الأسماء والأوصاف كالصليت أي الصقيل[4]. والصمصام الذي لا ينثني[5]، والباتر أي القاطع[6]، وسيف "الخيف" أي الحاد وهو من أسياف الرسول (ﷺ)، والقرضاب الذي يقطع العظام. وكذلك سيف يسمى "مرهف" أي محدود رقيق، وآخر يسمى "مصمم" الذي يمر في العظام[7].

وصل السيف إلى الجيش المملوكي فيه الكثير من الصفات، ويعد من الأسلحة الرئيسة في صفوفه وتشكيلاته، كما أنه يعتبر من أهم الهدايا وأفخرها بين السلاطين والملوك، إذ كانت صناعته تستحوذ على اهتمام الكثيرين وأفضل المواد الأولية في صنعه كالفولاذ الموشى نصله بالذهب والفضة، ويوجد منه المستقيم والمقوس، وقد اشتهرت بصناعته كل من مصر والشام واليمن والهند وفارس[8]. فالسيف الدمشقي الأهم بين الجميع وله ميزة وصفة فنية خاصة[9]، بينما الشركسي كان يستخدم السيوف ذات النصول المنحنية أو المستقيمة والتي ليس لها واقية يد ومصنوعة في بلاد فارس[10]. وهناك السيوف التي يحملها الأمراء في المواكب والاستعراض محلاة بالذهب والمرصعة بالجواهر ويقال عنها سيوف الدم[11].

---

(1) Rey; E: Suppl, P. 218.

(2) Lane – Poole: Suppl, P. 204.

(3) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ٣٠ و٣٤ ٣٥ و٣٦.

(4) الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، طبعة أولى، القاهرة، ١٩٦٥، ج١، ص ٥٦٦.

(5) نسبة إلى صمصامة عمرو بن معدى كرب هو أبو ثور عمرو بن معد يكرب الزبيدي المذحجي، أشهر سيوف العرب و ا يضرب المثل في كرم الجوهر وحسن المنظر، وكان عمرو فارس من اليمن حسن الاستعمال له في الجاهلية وكثير العناية به في الإسلام ومما قاله عبدالله بن العباس لبعض اليمنيين لكم من السماء نجمها ومن الكلمة ركنها ومن السيوف صمصامها يعني سهيلاً والركن اليماني وصمصامة عمرو، الثعالبي، المصدر نفسه، ج١، ص ٦٢١.

(6) النويري، اية الأرب في فنون الأدب، ج٦، ص ٢٠٧ و٢١٧.

(7) النويري، المصدر نفسه، ج٦، ص ٢٠٥-٢٠٦.

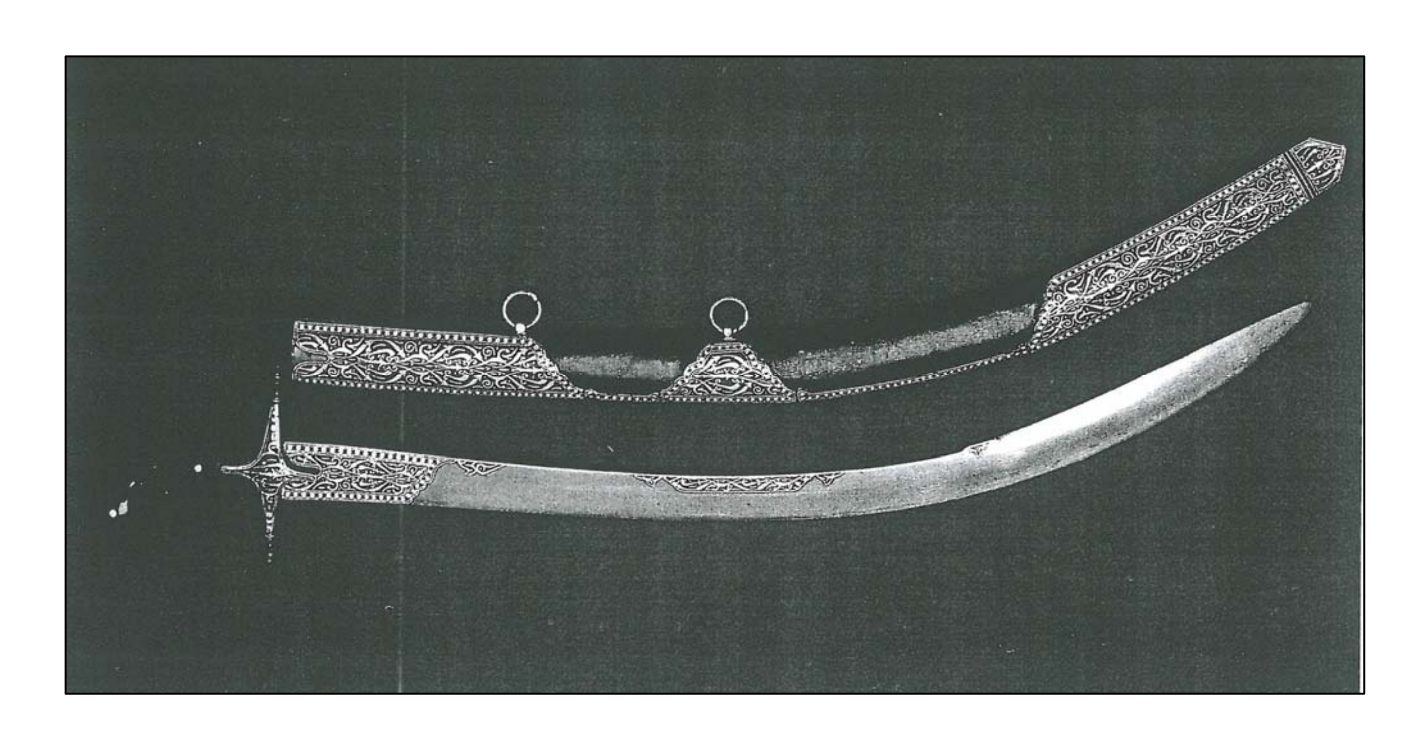
(8) زكي، السلاح في الإسلام، ص ٣٥.

(9) ريسلر، الحضارة العربية، ص ١١٧-١١٨.

(10) زكي، المرجع السابق، ص ٣٦.

(11) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٥٤٣.

نموذج لسيف مملوكي مزخرف، الغلاف من الحديد المكفت بالذهب والقبضة من قرن الجاموس، والنصل من صناعة سورية أو مصرية[١]





(1) البلعوط: محمد عبد الستار، وعبد الرحمن خالد سليم، الأسلحة الإسلامية (السيوف والدروع) مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٩٩٠م، ص ٤٩.

يتخذ الجندي المملوكي من وسطه مكاناً يوضع فيه السيف ومن جهة اليسار(1)، بينما الفارس يأخذه بيده اليمنى ويضعه في غمده أثناء الجري، وبالإمكان وضعه خلف ظهره ويغمد تحت الفخذ(2).

٤- صناعة الرماح:

يصنع الرمح من القنا وهو من أنواع القصب الهندي المسدود من الداخل، أو حتى من خشب الزان وله أسماء وصفات عديدة منها: الأسمر وهو الدقيق، والخطي وهو ما نسب إلى مكان في اليمامة(3)، والرديني(4)، وسمهرية المنسوبة إلى عهد تعني القناة الصلبة، والشراعي وهو الرمح الطويل(5)، حيث كان يضرب المثل في الرمح الطويل فيقال "ظل الرمح"(6).

يعد الرمح من أسلحة الفرسان الرئيسية وله دور كبير في القتال، ويرمى به من على ظهور الخيل، كما أنه يرمى به الرامي وهو في وضعية الوقوف أرضاً.

هناك الرماح الخاصة التي يحملها المرافقون للسلطان وهي من نوع القنا موشاة بالذهب(7). وبعض الرماح تحمل النفط والنيران وتستخدم في المعارك على نطاق واسع وتحدث أضراراً جسيمة بالعدو في خيمه ومؤنه واعتدته وجنوده، كالذي حصل في معركة عين جالوت، وقد كان يطلق على تلك الرماح المحملة بالنار والنفط "الرماح النارية"(8).

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٨٨.

(2) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ٤٢.

(3) ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص ٦٥.

(4) النويري، اية الأرب في فنون الأدب، ج٢، ص ٢٢٠.

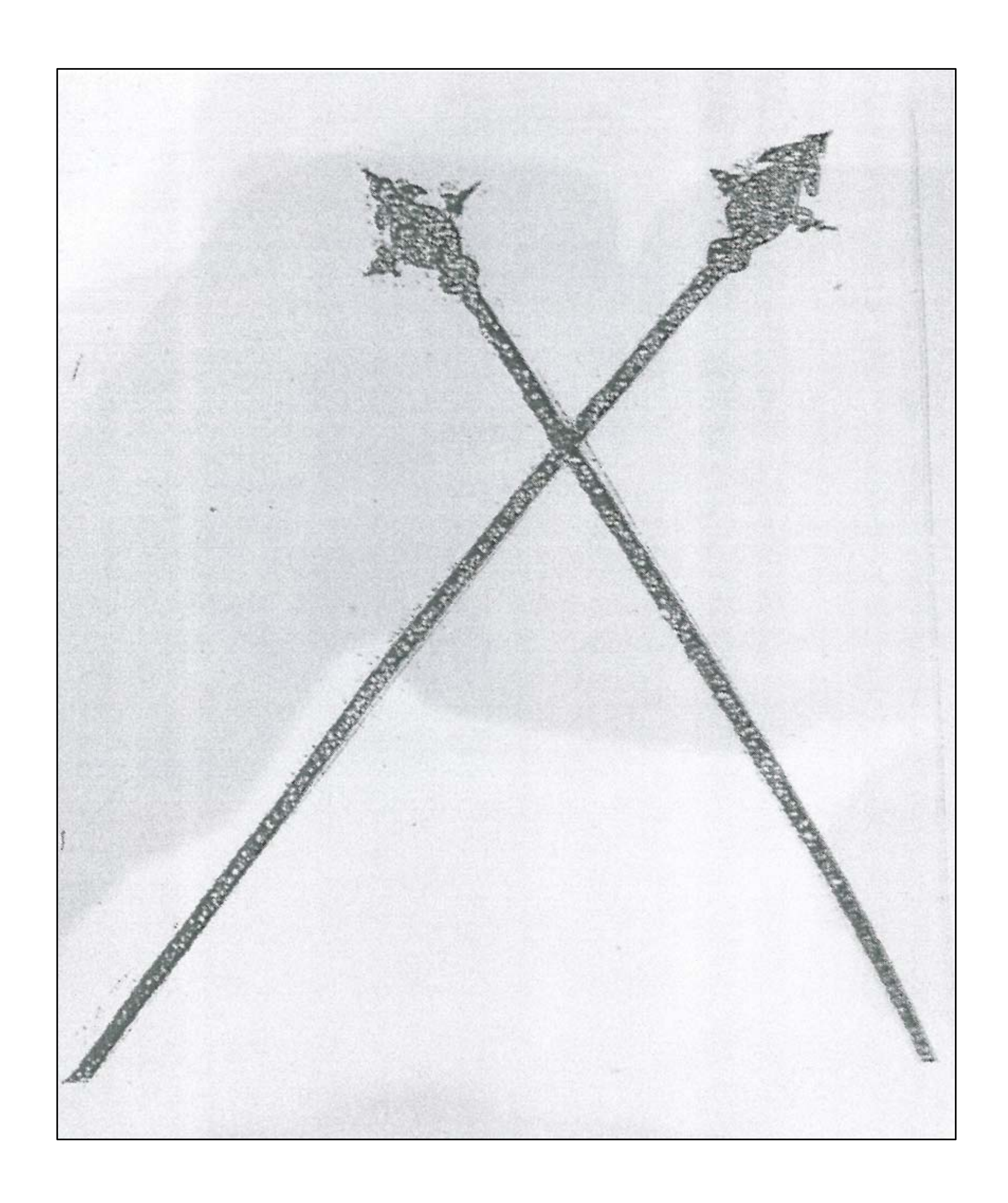
(5) النويري، المصدر السابق، ج٦، ص ٢١٥.

(6) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ج١، ص ٦٢١ و٦٢٦.

(7) القلقشندي، المصدر السابق، ج٣، ص ٥٤٧.

(8) Rey; E, Suppl, P. 32.

رمحين متعارضين ويتضح منها طريقة الطعن الصحيح، شريطة أن يكون رمح الفارس فوق رمح خصمه[(١)]



(1) مجهول: خزانة السلاح، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٧٨م، ص ٦٥.

٥- صناعة الدبوس:

هو عبارة عن عامود طوله ذراع تقريباً من الحدود رأسه مدور، يستخدم في الضرب على الرأس لتحطيم الخوذ[(١)]. يضعه الفارس تحت فخذه ليكون في متناول اليد[(٢)]. وللدبوس أشكال وأنواع مختلفة الكروي المدبب، والمضلع وكلاهما يؤديان نفس العمل ألا وهو تحطيم الخوذ وتهشيم الرؤوس.

٦- صناعة الطبر (الأطبار):

هو ما يعرف بالفأس في عصرنا الحالي، وهو من الأسلحة الهجومية، ولهذا السلاح أمير يعرف "أمير طبر" أو طبردارية[(٣)] الذين يحملون الفؤوس، وهو عبارة عن شكل نصف دائرة من الحديد وتثبت تلك الدائرة في مقبض من خشب أو حديد ويضعها الفارس في حلقة في سرج فرسه.

٧- النمجاه[(٤)]:

تعني الخنجر أو السيف الصغير، وهي من الأسلحة الهجومية وتعد أيضاً من الأسلحة الاحتياطية الذي يلجأ إليه المحارب حين ينكسر سيفه أو حين يعلق سيفه في ترس خصمه، يوضع هذا السلاح في جناح الوسط أو في خف المحارب، وبالإمكان حمل أكثر من خنجر كسلاح احتياطي.

٨- صناعة الأدرعة والخوذ:

هي عبارة عن معدات تصنع من الحديد أو الجلود يستخدمها المحارب لوقاية جسده من خطر الأسلحة الهجومية، وهي من الأعتدة والمستلزمات الضرورية للمقاتل ولا يستغنى عنها بحيث يمكن الاستغناء عن الترس ويكتفي بالدرع كما يتميز الدرع عن الخوذة بأن الخوذة معرضة لأن تفقد أثناء القتال بعكس الدرع الذي يعد لباساً للمقاتل يصعب خلعه[(٥)].

---

(1) الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسوأ ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداد، ص ١٥. الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٢، ص ١٦٤.

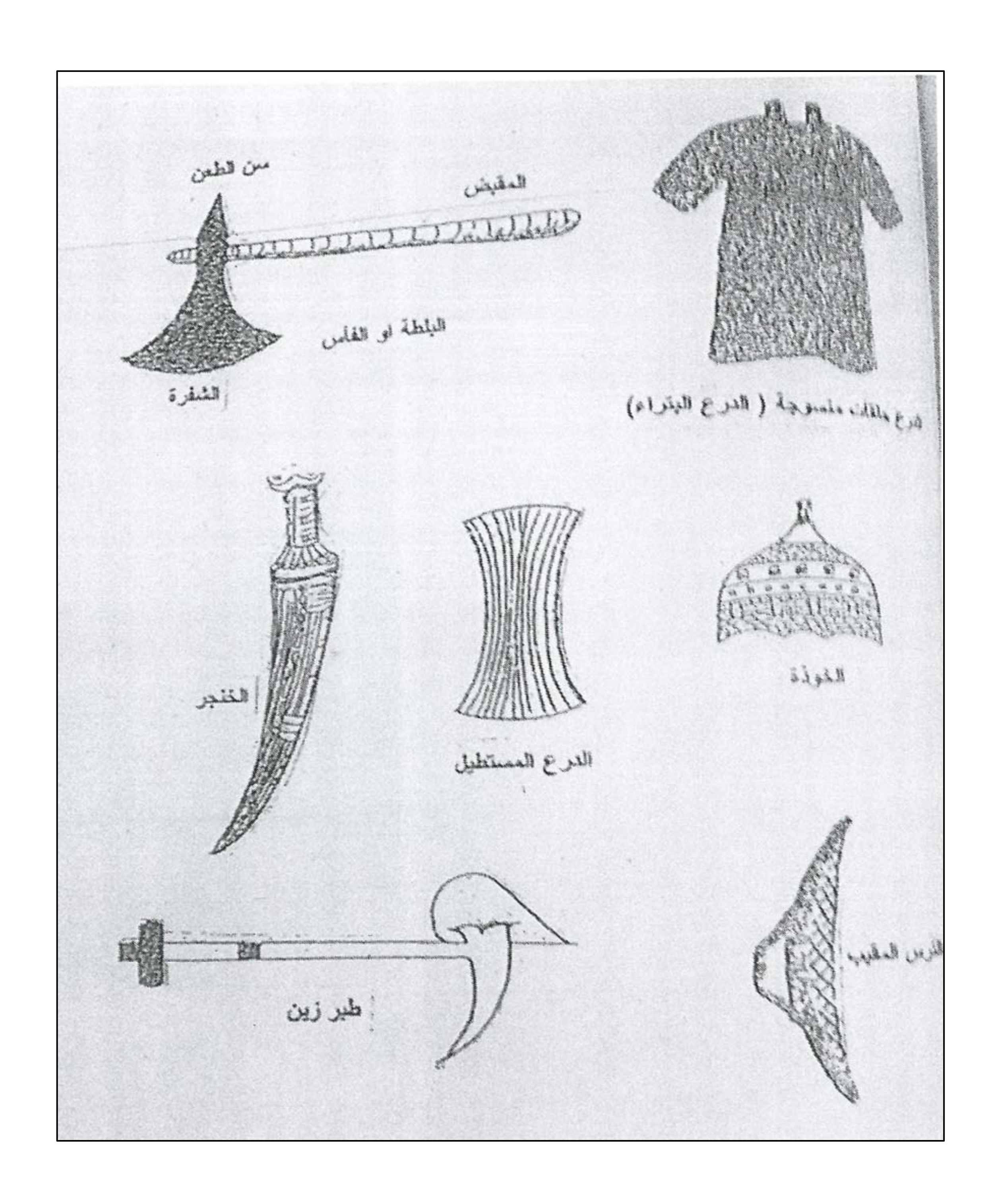
(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، ص ٣٦٣.

(3) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص ٢٤.

(4) كلمة فارسية تعني الخنجر أو السيف الصغير أو السكين المنحنية، ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣، ص ٥، وج ٥، ص ١٣٥.

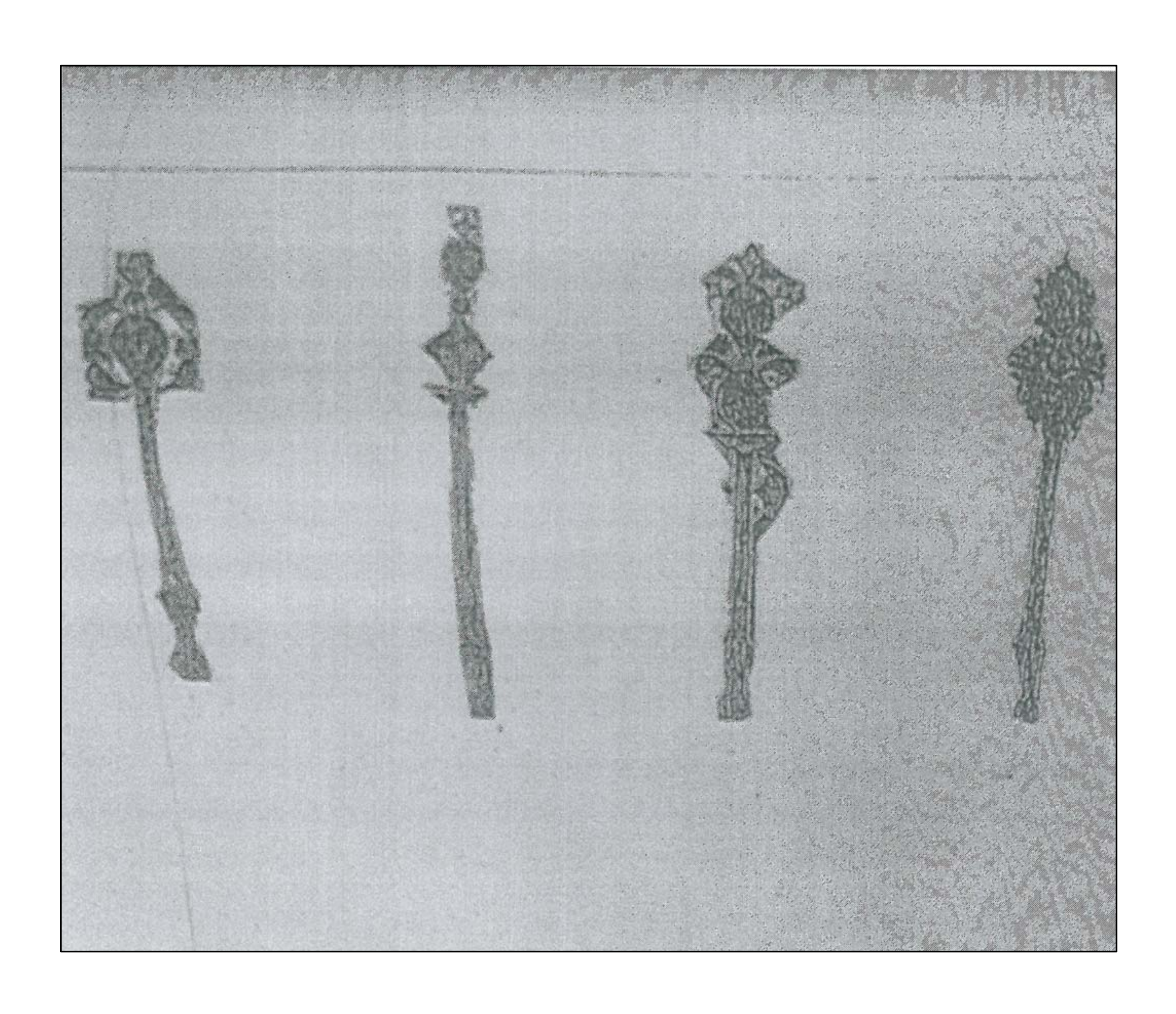
(5) ياسين: عبد الناصر، الأسلحة عبر العصور الإسلامية، دار القاهرة، طبعة أولى القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٢٩.

أنواع الأسلحة المملوكية الفردية[١]



(1) قندولي، الدور العسكري لقادة الخمسة الكبار من سلاطين دولة المماليك الأولى في مواجهة الفرنج والمغول، ص ٢٩٣.

لوحة لمجموعة من الدبابيس قارورة كانت تملأ بالنفوط[1]



(1) الزردكاش، الأنيق في المناجيق، ص ٢١١-٢١٤.

لقد كان لبس الدرع زمن الأيوبيين المماليك امتيازاً خاص وارستقراطياً نوعاً ما، ويوجد ثلاثة أنواع من الدروع قميص الزرد، ودرع الرقائق المعدنية، والبريجاندين، وكان الأكثر شيوعاً القميص المصنوع من الزرد الخالص مع اختلاف الطول حتى أن بعضه كان يغطي ساق الفارس أو المحارب، كما أن بعض أدرعة الزرد الجركسية، كان لها ياقات عريضة تغطي للرقبة(١).

ودروع الزرد هذه، أي القمصان كانت تقوى برقائق مستطيلة من المعدن تداخل أطرافها ببعض ويطلق عليها اسم جوشن، وكثرت في العهد المملوكي الأول ومن بعده عهد الجراكسة الذي اقتصر استعمالهم لها في الغالب على الدروع الثمينة الخاصة بالأمراء الكبار، والدروع مثلها مثل السيف حيث كانت توضع في غرفة قبل الدخول على السلطان والمثول أمامه وذلك كإجراء حتمي للوقاية(٢).

وللدروع أسماء عديدة عرف منها، سابرية، وذائلة وهي طويلة الذيل، التركة ومعناها المستديرة، جوشن يعني الحلقة، حدباء وتعني الدرع اللينة، ودرع دلاص يعني الدرع البراق، ودخاس أي المتقاربة الحلقات(٣)، وكذلك سابغة تعني الدرع الواسعة(٤)، والسلوقية نسبة إلى قرية سلوق في اليمن(٥).

أما أشكال الدروع المملوكية فإنها تنحصر في ثلاثة أشكال:

أ- **الزردية:** هي رداء معدني من حلق الزرد ومزود بصفائح معدنية، وارتدائها يغطي الصدر، ومنها تكون مسبلة تغطي الجسم كله حتى القدمين وللفارس حتى قوائم فرسه(٦).

ب- **الجوشن:** هو رداء مصنوع من حلقات وصفائح معدنية، وقد يكون من الجلد، وهو من أهم الأسلحة الدفاعية المضادة للسهام والسيوف والأسلحة النافذة(٧).

ج- **القرقل:** هو رداء من حلق وصفائح معدنية من الداخل بطبقة سميكة من الديباج الأصفر والأحمر، لكن هذا النوع من الدروع من غير أكمام(٨).

---

(1) ماير، الملابس المملوكية، ص ٦٦.

(2) ماير: المرجع نفسه، ص ٦٨-٧٤.

(3) النويري، اية الأرب في فنون الأدب، ج٦، ص ٢٤١.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ١٥١.

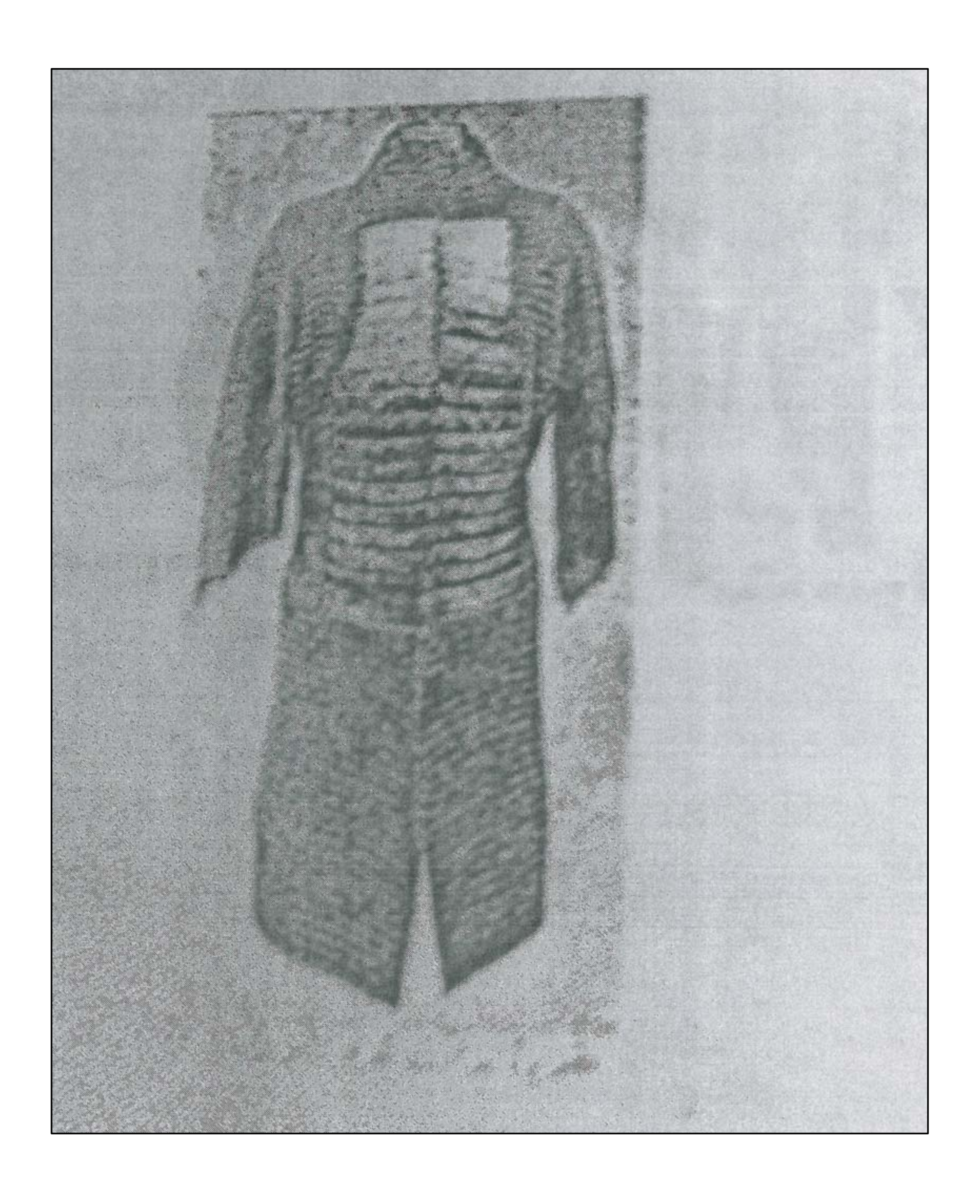
(5) القلقشندي، المصدر السابق، ج٧، ص ٣٨٧.

(6) زكي، السلاح في الإسلام، ص ٢٧.

(7) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ٢٢٥ و٢٢٨.

(8) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٢، ص ٥٣.

رداء من الزرد لحماية الجسم[1]



(1) وتر، معركة عين جالوت، ص ٢٠٩.

٩- واقيات الأيدي:

تصنع من الحديد وتقوس بما يتناسب مع شكل الساعد فكانت تضيق عند الرسغ وتتسع عند الكوع. وكانت هذه الواقيات تزود ببطانة داخلية لتفادي احتكاك الصفائح الواقية بجسم المقاتل. وقد اتخذت بعض واقيات الأيدي شكلاً آخر، تتكون فيه الواقية من ثلاث صفائح مستطيلة الشكل تحف بكل منها صفيحتان جانبيتان أصغر حجماً وتتصل هذه الصفائح ببعضها البعض بواسطة حلق الزرد[١].

١٠- واقيات الأرجل:

تتشابه صناعة واقيات الأرجل مع واقيات الأيدي إنما تكون صفائح الحديد فيها أرفع وأطول لأنها تضم الفخذ والساق والركبة.

تتميز واقيات الأرجل بصنعها من صفائح حديد صغيرة الحجم ومستطيلة وهي تتسع في الأعلى وتضيق في الأسفل من جهة الركبة، وتتصل تلك الصفائح ببعضها بواسطة أشرطة ضيقة من حلق الزرد، فهي تتناسب مع شكل الفخذ وتزود بأحزمة جلدية من الخاف لربط الواقية من الأعلى إلى الأسفل بالفخذ، أما واقية الركبة فكانت تتصل بواقية الفخذ من الأسفل، وهي عبارة عن صفيحة حديدية تتخذ شكلاً نصف كروي وتنسدل فوق حذاء المقاتل الذي غالباً ما يكون من الجلد يصل إلى أسفل الركبة، ويطلق عليه خف.

١١- الترس:

هو مستدير الشكل وتحيطه حافة على شعاعه وله مقبض من الداخل، ويصنع من الخشب أو الحديد، وإذا ما صنع من الجلد السميك فإنه يطلق عليه اسم درقة[٢]. كما أنه يوجد أنواع من التروس مستطيلة الشكل إلا أنه الأكثر شيوعاً واستخداماً الترس المستدير.

وقد أطلق على الترس في العصر المملوكي تسميات مختلفة مثل، بصيرة وجوب، وجحفة وتعني الترس الصغير، وفرض يعني الخفيف، ودرع يسمى قفع ويطلق عليه اسم الحنويات[٣].

١٢- الخوذ:

عبارة عن قلنسوة متناسبة الطول مخروطية الشكل مصنوعة من الحديد، وقد سيطر طرازين من الخوذ على الزي الشائع في عصر المماليك الجراكسة وهما طراز الخوذة الخاص بالسلطان محمد بن قلاوون التي أصبحت أكثر طولاً، وأدخل عليها بعض التعديلات كحماية الأذن والرقبة معاً، وكل

---

(1) علي يوسف: نبيل، موسوعة التحفة المعدنية، مصر منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر العربي، طبعة أولى، ٢٠١٠م، ص ٣٦٩.

(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٦، ص ٢٣٩. ماير، الملابس المملوكية، ص ٨٦-٨٧.

(3) النويري، المصدر نفسه، ج٦، ص ٢٣٩-٢٤٠.

من هذه الواقيات مصنوعة من قطعة معدنية واحدة أدخل عليها الأنفية بالإضافة إلى الشفة العليا الخاصة بحماية العينيين. وهناك طراز آخر يرجع إلى ما بعد عصر برسباي بنصف قرن وظل هذا النوع محتفظاً بشكل الخوذة الطويلة التي تنتهي بقمة مستطيلة(١).

وعند نهاية العصر المملوكي ظهرت الخوذ جميلة وقصيرة ويطلق عليها اسم موائمة بدون القمة المخروطية ولكنها مزودة بمدارئ لوقاية الأذن والرقبة ومزودة أيضاً بحافة عليا لحماية العينين وبأنفيه، وأصبحت هذه الخوذ الأكثر شيوعاً(٢).

وهناك خوذة ذات شكل بصلي وحجم كبير وجدران رقيقة مصنوعة من الفولاذ بالحرارة والطرق من قطعة واحدة، وهي مطلية بالفضة.

أما أنواع الخوذ المملوكية فهي على الشكل التالي:

أ- الخوذة (البيضة):

هي الخوذة التي تأخذ شكل البيضة مصنوعة من الحديد ومن أسماء أجزائها، سابغ الذي يستر العنق، وقوس هو أعلى البيضة من الحديد، ويوصف صاحبها عندما يضعها على رأسه بالمقنع، ومن أسمائها أيضاً التركة أي المستديرة، دورها يقي الرأس من الضربات(٣).

ب- المغفر:

هو كالبيضة، إنما هناك صفيحة تتصل بالبيضة من خلف المقاتل لوقاية أذنه ورقبته وربما جعل منها وقاية لأنفه وغالباً ما تكون تلك الصفيحة مصنوعة من الزرد(٤).

ج- الواقية:

مصنوعة من الحديد والجلد أو الخشب أو الشعر أو الوبر أو الصوف(5)، يرتديها المقاتل أثناء المعارك.

---

(1) ماير، الملابس المملوكية، ص ٧٦ – ٧٧.

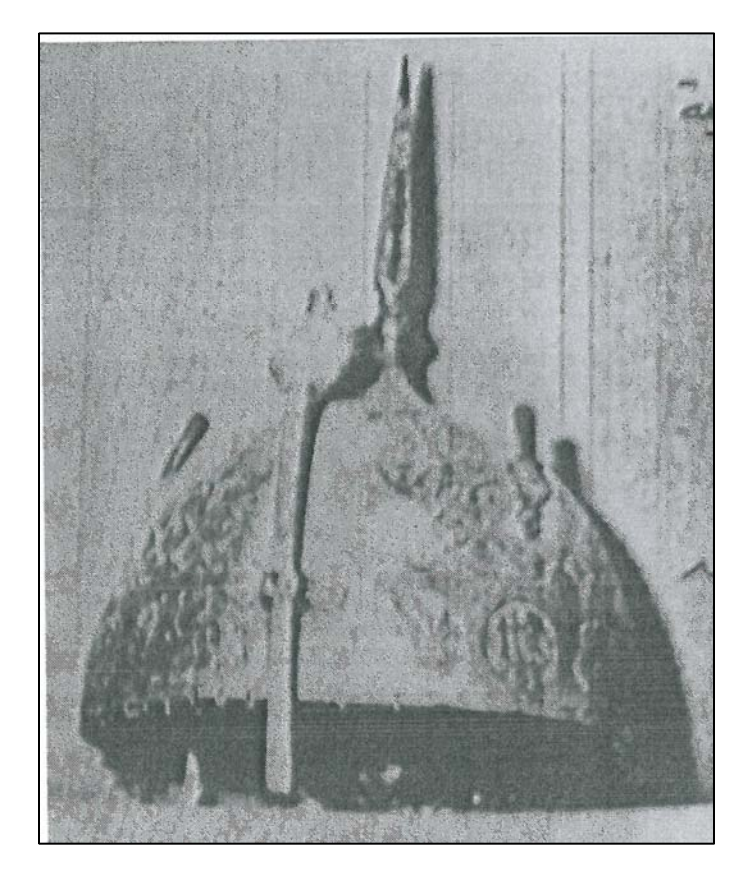
(2) ماير، المرجع نفسه، ص ٨٧.

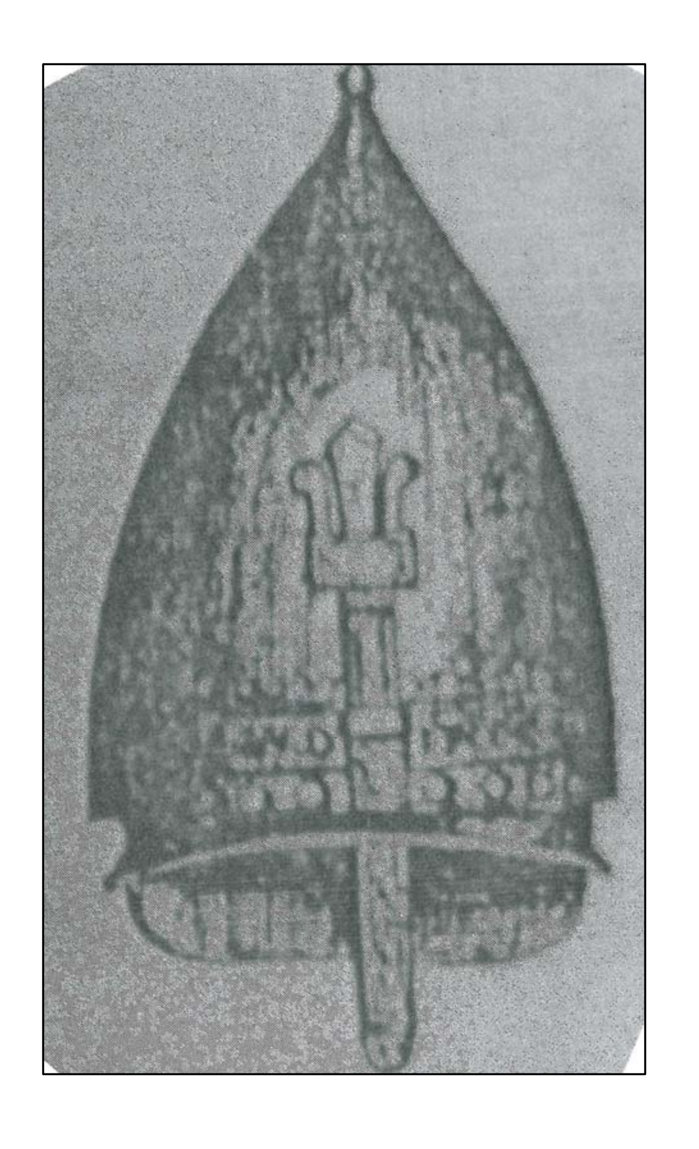
(3) النويري، اية الأرب في فنون الأدب، ج٦، ص ٢٤١.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الأنشا، ج٢، ص ١٥١.

(5) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ٣٢٠-٣٢١.

أنواع من الخوذ المملوكية[1]





(1) وتر، معركة عين جالوت، ص ٢٠٧ و٢٠٨.

المبحث الثاني: صناعة الأسلحة الجماعية:

يقصد بتلك الأسلحة التي تحتاج إلى أكثر من شخص واحد لإدارتها أو العمل عليها نظراً لصعوبة نقلها، كالمناجيق والمدافع ومكاحل البارود والنفط، وسلاح البحر والدبابات واستخدام الخيل على نطاق واسع.

١ - صناعة (المناجيق) وطرق استعمالها:

هو سلاح يستخدم على نطاق واسع خلال العهود التي سبقت المماليك ولا سيما في عهد الأيوبيين لحصار المدن ودك الحصون والقلاع، واستمر العمل به مع المماليك كإحدى الأسلحة الثقيلة، وهو عبارة عن آلة من الخشب لها دفتان قائمتان وبينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه ضعيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر ويجذب حتى ترتفع أسافله إلى أعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه وما أصاب شيئاً إلى أهلكه(1)، والمنجنيق عدة أنواع منها العربي، المبين وهو أتقن مصنوعاتها، كما أنه يوجد نوع آخر هو التركي أقل تكلفة، والإفرنجي أو الرومي، وأفضل أنواع الأخشاب لصناعته من خشب القراصيا أو الأرز(٢) وأيضاً هناك نوع مغربي من المناجيق تعلم المماليك صناعته بسرعة، ومما ذكر عنه أنه كان يرمي حجراً زنته مائة وأربعون رطلاً بالدمشقي(٣).

اعتمد الجيش المملوكي على المناجيق بشكل واسع لاسيما في حربه مع الصليبيين لأن فترة تحريره للمدن المحتلة من قبلهم معظمها كانت محصنة ومنيعة الأمر الذي تتطلب استخدام هذا السلاح الثقيل لدك حصونها وقلاعها وفتحها، حتى أن السلاطين كانوا يتابعون بأنفسهم صناعة المناجيق الكبيرة حول المدن المحاصرة (٤)، التي قد يضطر إلى إقامة مصانع المناجيق بالقرب من الأماكن المحاصرة نظراً لطول أمد الحصار.

---

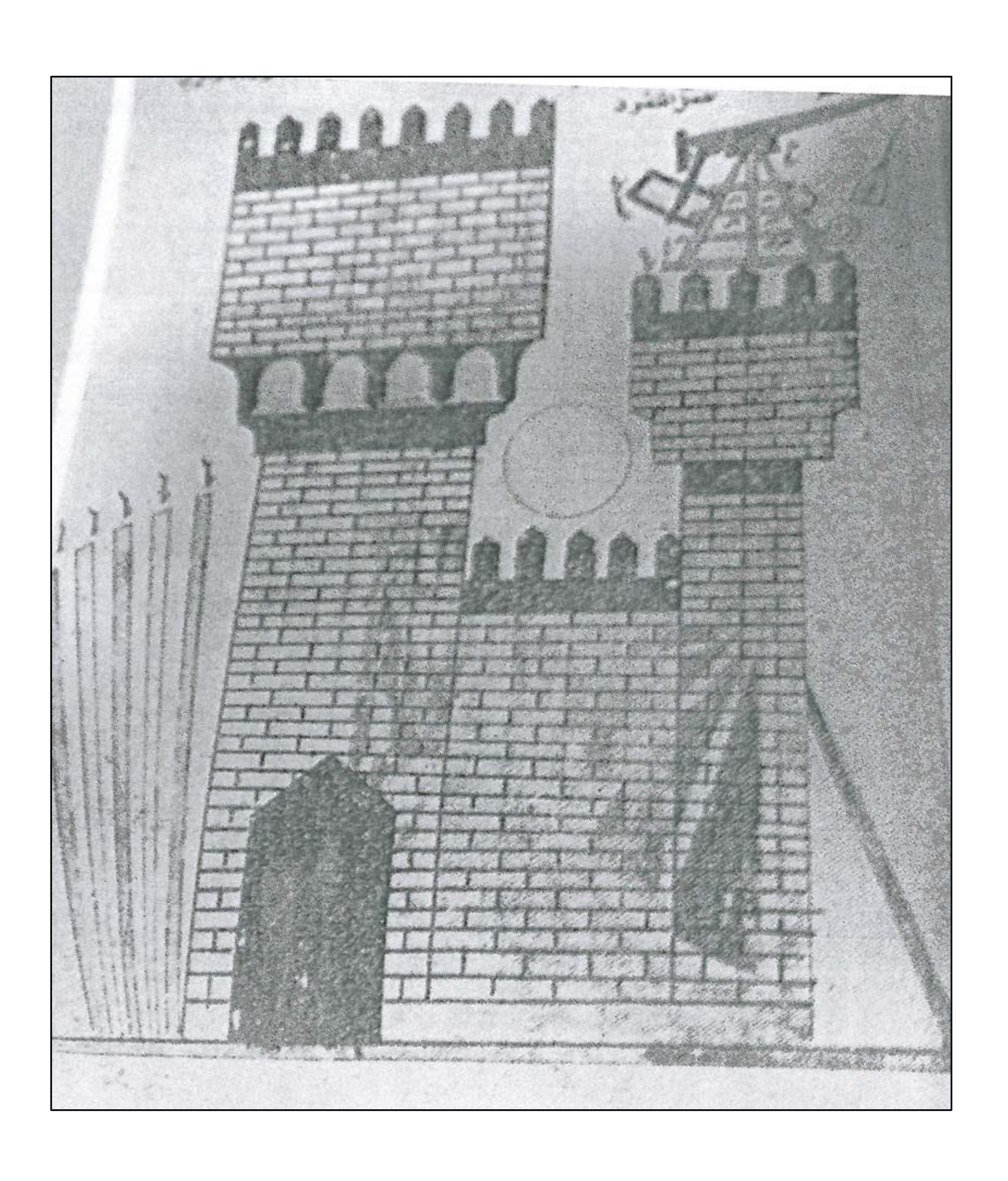
(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ١٥٢ – ١٥٣.

(2) الطرسوسي، تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسوأ ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداد ص ١٦.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٣٢٩. الرطل الدمشقي عند الحنفية يساوي ١٨٧٥ غرام، وعند الجمهور يساوي ١٧٨٥ غرام. جمعة، علي محمد، المكايل والموازين الشرعية، القدس للإعلان والنشر والتسويق، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٩٥.

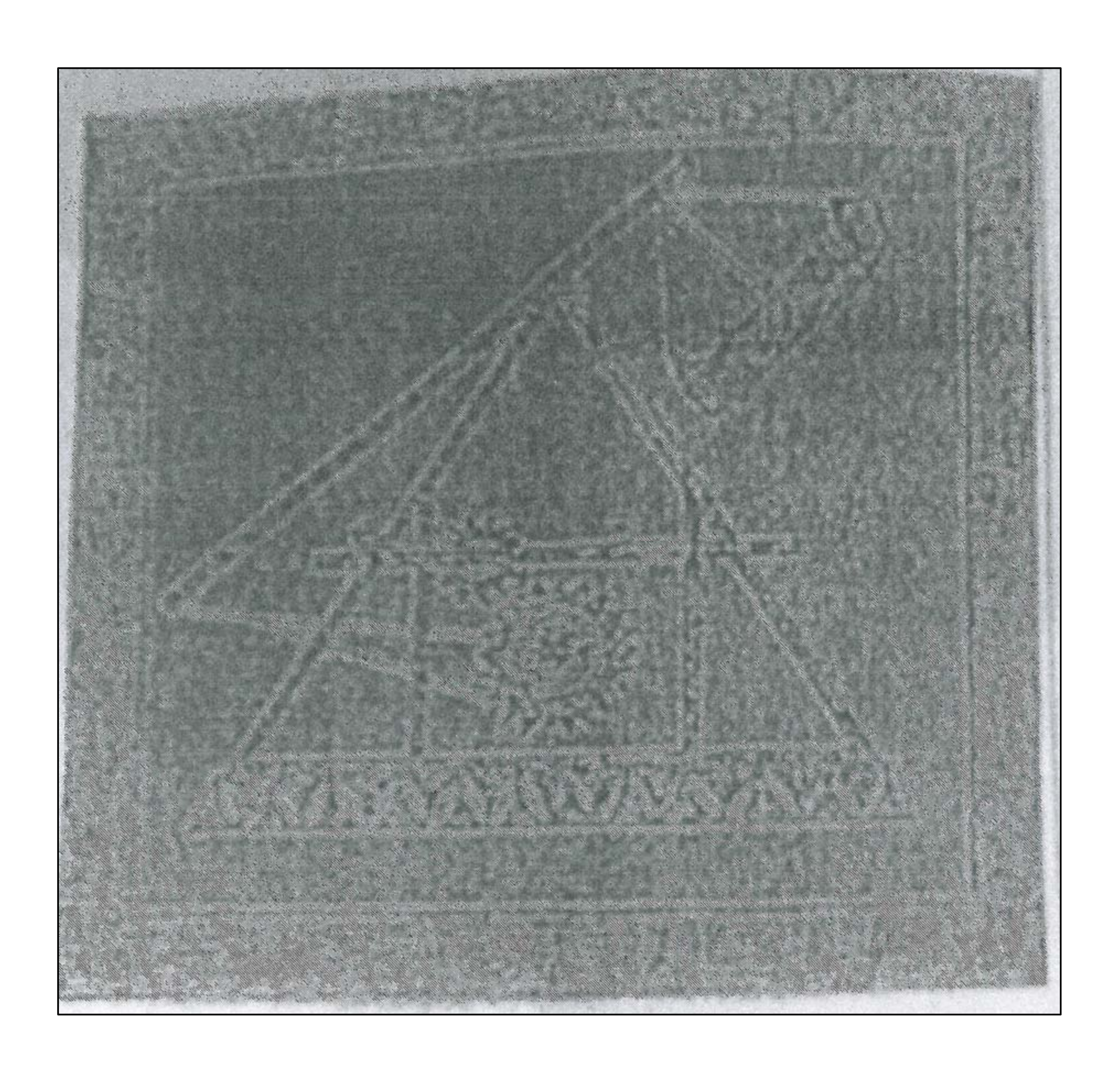
(4) المقريزي، السلوك، ج٢، ص ١٨.

برج خشبي وخلفه برج آخر صغير وعليه منجنيق، وأمام السور الكبير خمسة جسور فإذا وصل إلى الضيق فيضع واحداً بعد آخر[١]



(1) الزردكاش، الأنيق في المناجيق، ص ٨١.

لوحة لأحد أشكال المنجنيقات لحظة الإطلاق(١)



(1) الزردكاش، الأنيق في المناجيق، ص ٢٥.

كانت المناجيق تستخدم في حالتي الدفاع أو الهجوم، وقد نصبت عند حصار المدن العشرات منها، حيث تم نصب سبعة عشر منجنيقاً لحصار مدينة البيرة[1]، وفي ثغر الإسكندرية نشر الشواني ونصب مئة منجنيق لحمايتها من خطر الإفرنج[٢] .

لم يقتصر استخدام المناجيق على الحجارة وحسب بل تعداها إلى رمي وقذف قوارير معبأة بالنفط والنيران، وذلك إلى الحد الذي تم فيه صنع ما يشبه المدفع، حتى أنه في سنة ٨٤٠ هـ/ ١٤٣٦م، أصبح لدى الجيش المملوكي المكاحل التي تجرها العجلات أوما يعرف بالمدافع[٣]، ذلك السلاح كان يسمى مكاحل البارود ويصنع من النحاس والرصاص ويصل مدى قذفه بعيداً، وقد عرف عن تلك المكاحل أنها كان يرمى منها قوارير النفط، والبعض منها يرمي بأسهم عظام التي تكاد تخترق الصخر من قوتها[٤].

أما بالنسبة للعرادات وهي شبيهة بالمنجنيق مخصصة لرمي الحجارة لكنها أصغر حجماً من المنجنيق[٥] .

وهكذا فقد لعبت المناجيق دوراً كبيراً وكانت ذا أثر فعال في ميادين القتال والحصار لتأتي بعدها وسائل متطورة أكثر شدة وأشد خطورة.

٢- صناعة المدفعية:

تطورت هذه الصناعة على عجل في الدولة المملوكية، فقد صنع الجيش المملوكي مكاحل النفط من النحاس والحديد، وقد بلغ الإنتاج في إحدى السنين سبعين مكحلة ما بين كبار وصغار، فكان منها أربعة كبار فقيل أن وزن كل واحدة منها ستمائة قنطار شامي[٦]، وطول أستون كل واحدة منها نحو عشرة أذرع[٧]. وكانت المدفعية بداية تحمل على ظهور الجمال.

(1) المنصوري، مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢ هـ)، ص ٢٩.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٨٣.

(3) ابن آجا، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، ص ٨٨.

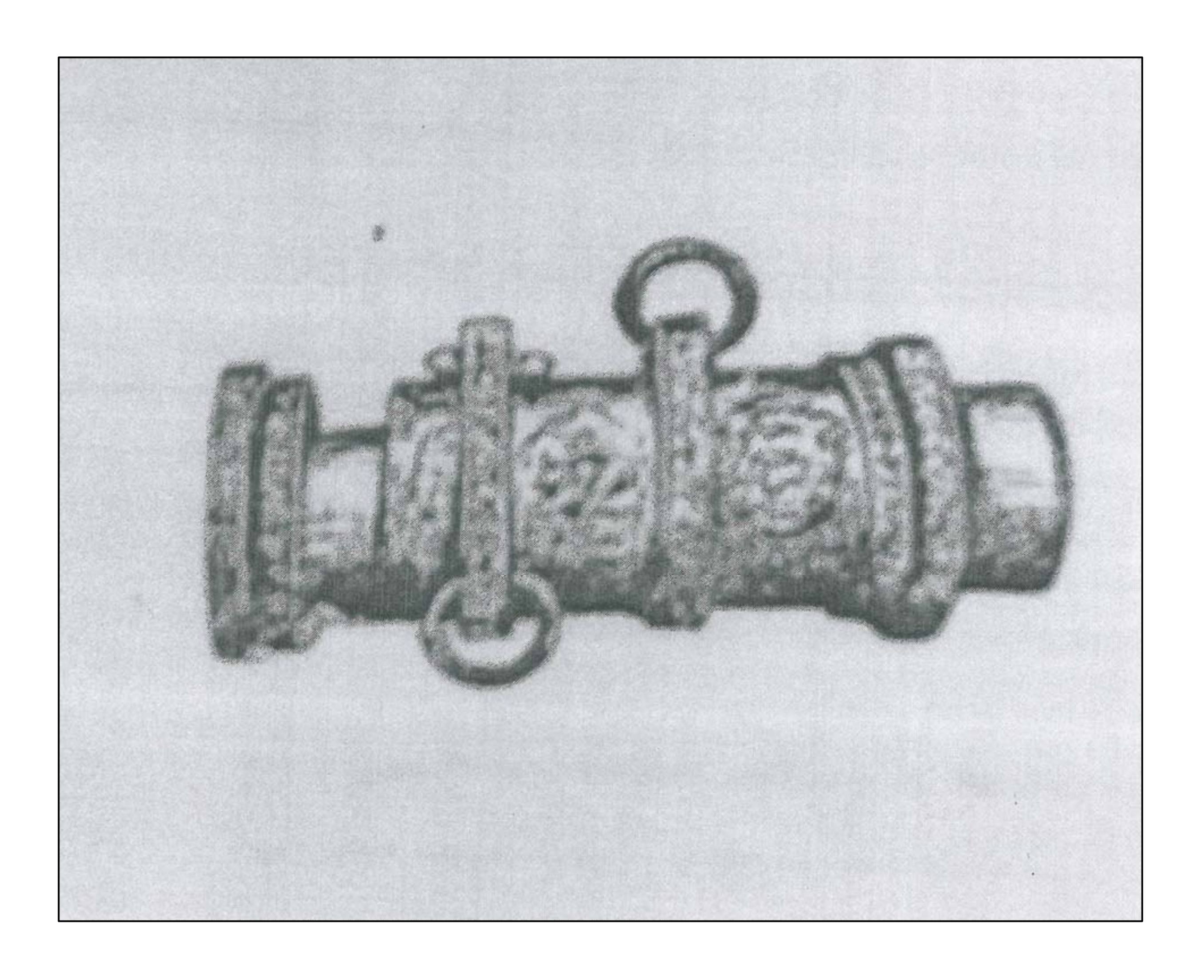
(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ١٥٣.

(5) الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج٢ ص ٦٧.

(6) القنطار الشامي، عند الحنفية يساوي ١٤٩,٧٦ كلغ، وعند الجمهور يساوي ١٤٢,٠٨ كلغ. جمعة، المكاييل والموازين الشرعية، ص ٩٥.

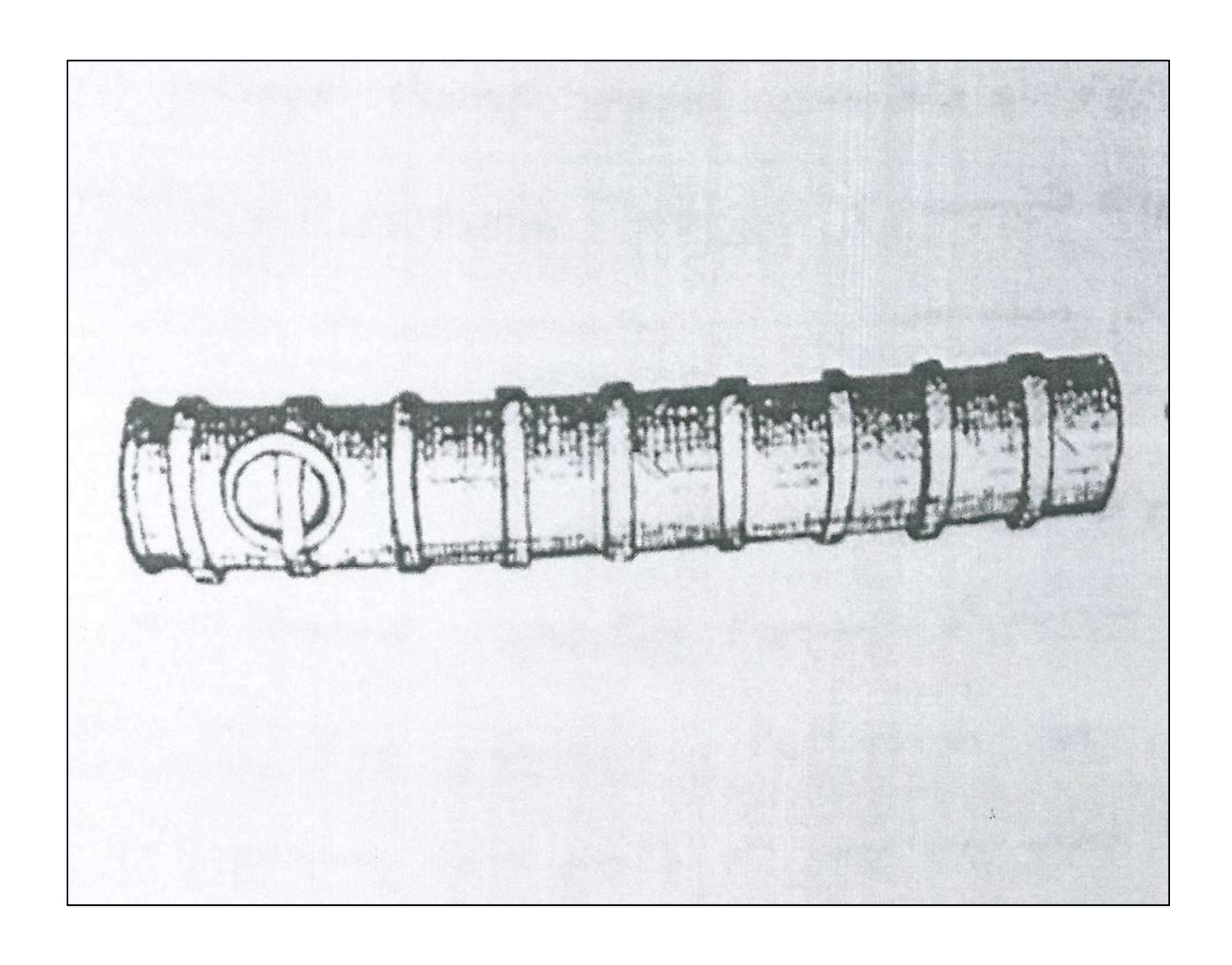
(7) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٤، ص ٢٦٠-٢٦١-٢٦٤.

مكحلة مملوكية[1]



(1) وتر، معركة عين جالوت، ص ٢١٣.

إستون لمدفع مملوكي[1]



(1) وتر، معركة عين جالوت، ص ٢١٤.

وفيما بعد أصبحت تحمل على عجلات تجرها الثيران[1]، وقد كانت ذخائر هذا السلاح عبارة عن أحجار وكرات حديدية متعددة الأحجام، تقذف عن المكاحل بواسطة البارود الذي كان قد زاد من مسافة رميه وقوة تأثيره [٢].

لقد كان لهذا السلاح دور فعال في دك العديد من الحصون والقلاع المحصنة عبر إحداث ثقوب في جدرانها، كما نشر هذا السلاح الرعب والفوضى في صفوف الأعداء نتيجة المقذوفات النارية التي تطلق منه فتحرق كل ما أتت عليه من التجمعات والمؤون[٣] وهذا ما أصاب القوات المغولية في عين جالوت حين جرى استهداف مؤخرة قواتها من قبل الجيش المملوكي بمدافع البارود فاشتعلت الحرائق الكبيرة في المواقع الخلفية المغولية التي كانت تختبئ في أماكن مؤخرة الجيش، والتي كانت مهمتها القيام بهجوم معاكس على الجيش المملوكي، وبالرغم من أن الجيش المغولي يمتلك لمثل هذه الأسلحة، إلا أن سرعة المبادرة التي قام بها المماليك في استخدام السلاح المدفعي كانت سبباً في انهزام المغول، وذلك يعود أيضاً إلى عنصر المفاجأة ووجود القيادة الجريئة التي كان لها الدور الفعال في حسم المعركة[٤].

يعد هذا السلاح من الأسلحة الجماعية الذي يحتاج إلى أكثر من شخص لإستعماله مع طاقم خاص لكل منه، وعند الحصار تشترك العديد من تلك المناجيق في قصف المدن والقلاع المحصنة بشكل جماعي بحيث أنها تعتمد على كثافة القذف والنيران لإرباك العدو وإحداث الفوضى في صفوفه، إلا أن هذا السلاح يفقد عمله حيث تتداخل القوة البرية في القتال.

ويحتاج هذا النوع من السلاح إلى نوعية جيدة من الرجال ممن يتصفون في القوة واللياقة البدنية العالية مما يتطلبه من حمل الأثقال وبذل جهد كبير في استخدامه ونقله من مكان إلى آخر سواء أكان على أكتافهم أو على الدواب.

٣- سلاح النفط والنيران:

لسلاح النفط قوة إحراق هائلة، كان يصنع داخل الدولة المملوكية، وهو يصنع على نار هادئة ويقطر ويوضع عليه كبريت لتزيد في اشتعاله، وكانت الإسكندرية مكاناً لاستخراجه وتصنيعه، كما كانت تصنع المقذوفات بأحجام مختلفة منها ما يرمى بالمنجنيق ومنها ما يرمى بالنشاب، كما صنع المماليك نفط يمشي على الماء لا ينطفئ مخصص لحرق السفن والمراكب[5].

---

(1) الزردكاش، الأنيق في المناجيق، ص ١٩٦، ابن آجا، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، ص ٨٨. ابن أياس، بدائع الزهور، ج5، ص ١٣٤.

(2) الزردكاش، المصدر نفسه، ص ١٥٦- ١٥٧ .

(3) الزردكاش، المصدر نفسه، ص ٤٤-٤٥.

(4) الإسحاقي، أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، ص ١٣٢.

(5) الطرسوسي، تبصرة أرباب الألباب، ص ٢٠-٢١.

ظهر هذا السلاح مترافقاً لظهور سلاح المدفعية وازدادت فعاليته عند اختراع البارود واستخدامها في الحروب، وسلاح النفط والنيران هذا يتألف من المكلفين بمهام قتالية أي (الزراقين)، وهم الذين يطلقون النفط من (زراقة)(1)، وهي عبارة عن أسطوانة خاصة من الحديد يوضع فيها المزيج النفطي والمواد المشتعلة وهي تقذف هذه المواد لمسافات بعيدة.

أما عن الوسائط القتالية في سلاح النفط والنيران، حيث يوجد آلة تسمى الجرخ ترمي النفط المشتعل كما ترمي السهام، وهي من الأسلحة الفردية ويطلق على مستعملها (جرخي)(٢). والسهام الحارقة التي كانت تسمى المخفي والنجمي والرقيق واللزاق(٣) . ومقذوفات النفط التي يتم توجيهها إلى الأهداف البحرية فتشعلها(٤)، والدبابيس الحارقة والشعلات والخلائط النارية المختلفة(5) والمرآة الحارقة التي توجه ضد الأهداف المراد حرقها(٦) . بالإضافة إلى القدور الفخارية التي تعبأ بالنفط وتطلق من المناجيق على الأعداء وكذلك الرماح التي تطلق وتحمل معها شعلة من نفط ونار.

٤- صناعة السلاح الكيميائي:

مشابه لسلاح النفط والنيران، أنما تختلف تركيبته بعض الشيء، بحيث أن مواده الحارقة تتركب من الشحوم والقطران والزيت والجير والبول(٧)، ويتم وضع هذا المركب في أوعية مختلفة الأحجام والأنواع، وتقذف على تجمعات العدو وخيمه ومراكز تموينه والأماكن التي يختبئ فيها الجنود لأن دخانه والرائحة التي تصدر منه عندما يصطدم بالمكان المستهدف فإنه يؤثر في القوى الحية وبأضرار كبيرة بالعتاد(٨).

تشكل القدور المملوءة بالمواد النفطية والكيمائية بعد انكسارها خطراً كبيراً على حياة العسكريين نتيجة الدخان الذي يسد مجاري التنفس عند استنشاقه كما إنه يؤثر في الأعين، وتسبب مواده أيضاً عند قذفه على السفن انزلاقات للعناصر البحرية على متنها، فإن كل ذلك يدخل في حالة إرباك الخصم وعدم قدرته على التركيز عند المواجهة.

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول المملوك، ج٥، ص ١٠٤ و١٠٨.
(2) المقريزي، المصدر نفسه، ج٥، ص ١٠٤ و ١٠٦.
(3) الزردكاش، الأنيق في المناجيق، ص ١٨٥ -١٨٧.
(4) ابن أياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١١٢.
(5) الزردكاش، المصدر السابق، ص ١٩٨ و٢١٠ و٢٢١.
(6) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ١٦٢-١٦٣.
(7) الناصري، المصدر نفسه، ص ١١٩-١٢٠.
(8) العدوي: إبراهيم أحمد، الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط، مكتبة ضة مصر، ١٩٧٥، ص ١٦٣.

نماذج قدور النفط والكيميائي التي كان يستخدمها الجيش المملوكي عبر قذفها بالمنجنيق[1]





(1) ماهر: سعاد، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكتاب ووزارة الثقافة العربية للطباعة والنشر، الجيزة، ١٩٦٧م، ص ٥٠، لوحة ١٧.

لذلك فقد تعددت تركيبة القدور المستخدمة في الأعمال الحربية فمنها القدور المملوءة بالنفط وأخرى بالمواد الكيمائية، وقدور تجمع المادتين معاً، وأهم هذه القدور العراقي والمنتن والمخرم والصنوبر والمختفي والسقوط والمراكب[١] وترمي تلك القدور بوسائط متعددة، أما التي ترمى بواسطة المنجنيق فهي القدور الحديدية والمحرمة والعجمية والمغربية[٢] .

وبتطور أنواع الأسلحة ومدى تأثيرها في الحروب في تلك الحقبة، فقد رافق ذلك تطور في أساليب الدفاع أيضاً وبخاصة السبل الواقية من الدخان الذي يصيب المجاري التنفسية عندما يكون الجنود محاصرين ويتعرضون إلى هذا النوع من السلاح، فإنهم قد ابتكروا كمامات واقية سموها (أزقاق) يدخلون رؤوسهم فيها لتصفية الهواء الملوث[٣].

٥- صناعة الدبابات:

الدبابة بشكل عام هي من آلة الحرب التي تعمل بشكل جماعي، ويتركز عملها في الوصول إلى مسافة حفر الأسوار وجدران القلاع والحصون المطلوب نقبها وتدميرها، وطريقة عملها خطرة بالنسبة للجنود الذين يديرونها نظراً لتعرضهم لرمي الأحجار الثقيلة على آليتهم أو لقدور النفط والنيران من أعلى السور، الأمر الذي كان يشكل خطراً كبيراً على عناصرها، لذلك فقد تم إضافة العديد من وسائل الحماية لتلك الآليات على النحو الذي سيؤمن حمايتها وحماية مستخدميها، وأهم أنواع هذه الدبابات هي:

أ- الظبر: تصنع من الخشب القاسي وتغلف بالجلد أو اللبود وتدهن بمادة ضد النيران، متخذين منها درعاً يقيهم الأعداء من فوق الأسوار، لها عجلات يتم دفعها من الرجال الذين هم بداخلها حتى تصبح ملاصقة بالسور حيث يقومون بمساعدة الآلات الحفر الحديدية على نقض حجارة السور من الموضع الذي أوهنته حجارة المنجنيق، وكانوا كلما نقضوا منه قدراً علقوه بدعائم خشبية حتى لا ينهار السور عليهم، فإذا فرغوا من عمل فجوة متسعة فيه، دهنوا الأخشاب بالنفط ثم يشعلوا فيها النار، وينسحبوا من مكانهم، فإذا احترقت الأخشاب إنهار السور تاركاً ثغرة صالحة للإقتحام[٤].

---

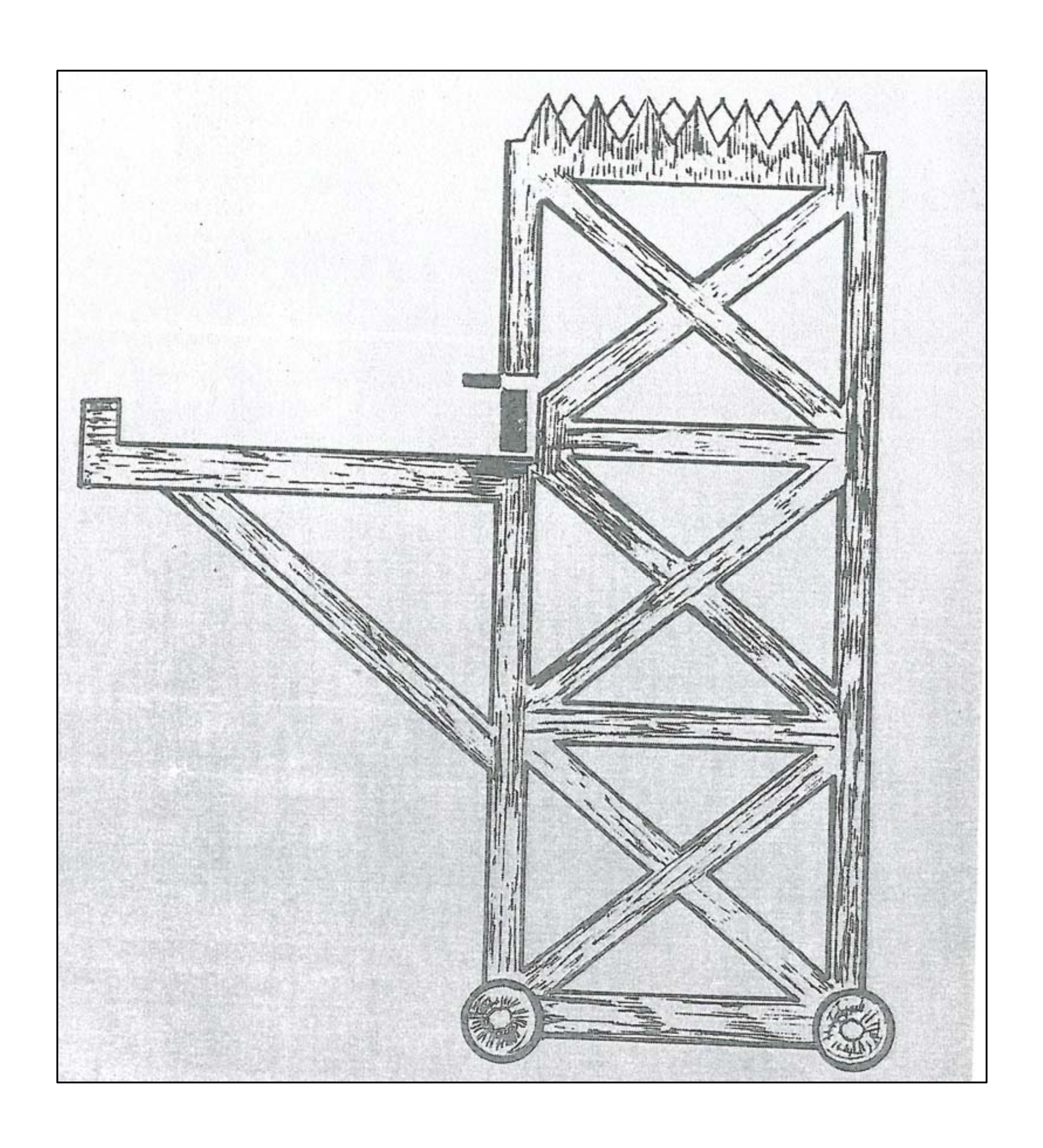
(1) الزردكاش، الأنيق في المناجيق، ص ١٦٩ و١٨٣.

(2) الرماح: نجم الدين حسن، الفروسية والمناصب الحربية، تحقيق أحمد يوسف الحسن، منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، ١٩٩٨ م، :٧٠-٧١.

(3) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ٢٠٥.

(4) خطاب: محمود شيت، العسكرية العربية الإسلامية، كتاب الأمة، سلسلة تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في قطر، ١٩٨٢ م، ص ١٦٤ -١٦٦.

دبابة[1]



(1) خطاب: العسكرية العربية الإسلامية، ص ١٦٧.

تطورت الدبابة بحكم تطور القطاع العسكري والحربي ككل، بحيث صارت الدبابة ضخمة فجعلوا منها برجاً مرتفعاً بارتفاع السور وبداخلها سلالم مستعرضة تنتهي إلى شرفات تقابل شرفات الحصن، فيصعد الرجال إلى أعلاها ويستعلون على السور ويطردون الرماة[١].

ب- رأس الكبش:

عبارة عن كتلة خشبية ضخمة مستديرة، طولها حوالي عشرة أمتار، وقد ركب في نهايتها مما يلي سور العدو رأس من الحديد والفولاذ، وهي تشبه رأس الكبش تماماً بقرونها وجبهتها، وتتدلى هذه الكتلة من سقف البرج أو الدبابة، محمولة بسلاسل أو حبال قوية تربطها من موضعين، فإذا أراد الجند هدم سور أو باب قربوا البرج منه ثم وقفوا داخله يؤرجحون رأس الكبش للخلف والأمام وهو معلق بالسلاسل، ويصدمون به السور عدة مرات، حتى تنهار حجارته فيعملون على نقبه وهدمه، وفي كثير من الحالات كان رأس الكبش يحمل داخل الدبابة الكبيرة ذات البرج، في الجزء السفلي منها، وذلك لاستخدامه عند الحاجة إليه[٢].

ج- صناعة الأفخاخ:

استخدم المماليك المثلثات، وهي قطع حديدية دفاعية تلقى في طريق الأعداء وتكون بمثابة ألغام، سريعة النكاية بالأعداء فهي تسقط الخيول بمن عليها وتهلك من أصابها، وهي تلقى على الأرض التي يسير عليها الأعداء، فتدخل في قدم الفرس فيقلب وراكبه الذي سيقع على أحد المثلثات الملقاة على الأرض وهي كيفما تلقيها على الأرض تؤدي الغرض لأنها كيفما وقعت تظل شوكاتها للأعلى كونها مدببة وشوكية[٣].

٦- صناعة الأسلحة البحرية:

بما أن الدولة المملوكية المترامية الأطراف تطل على شواطئ البحر الأحمر والبحر المتوسط، وبما أن نهر النيل يخترقها من الجنوب إلى الشمال مكوناً دلتا كبيرة على المتوسط والتي كانت منافذه طريقاً للحملة الصليبية السابعة التي وصلت إلى الداخل المصري وهددت الدولة برمتها، فكان من الطبيعي جداً أن تتطلع الدولة المملوكية إلى بناء أسطول يحمي حدودها البحرية من كل الجهات، فبعد فترة وجيزة أصبحت تمتلك السفن البحرية والنيلية[٤] بأعداد كبيرة وتمكنت من الدفاع عن الأراضـي

---

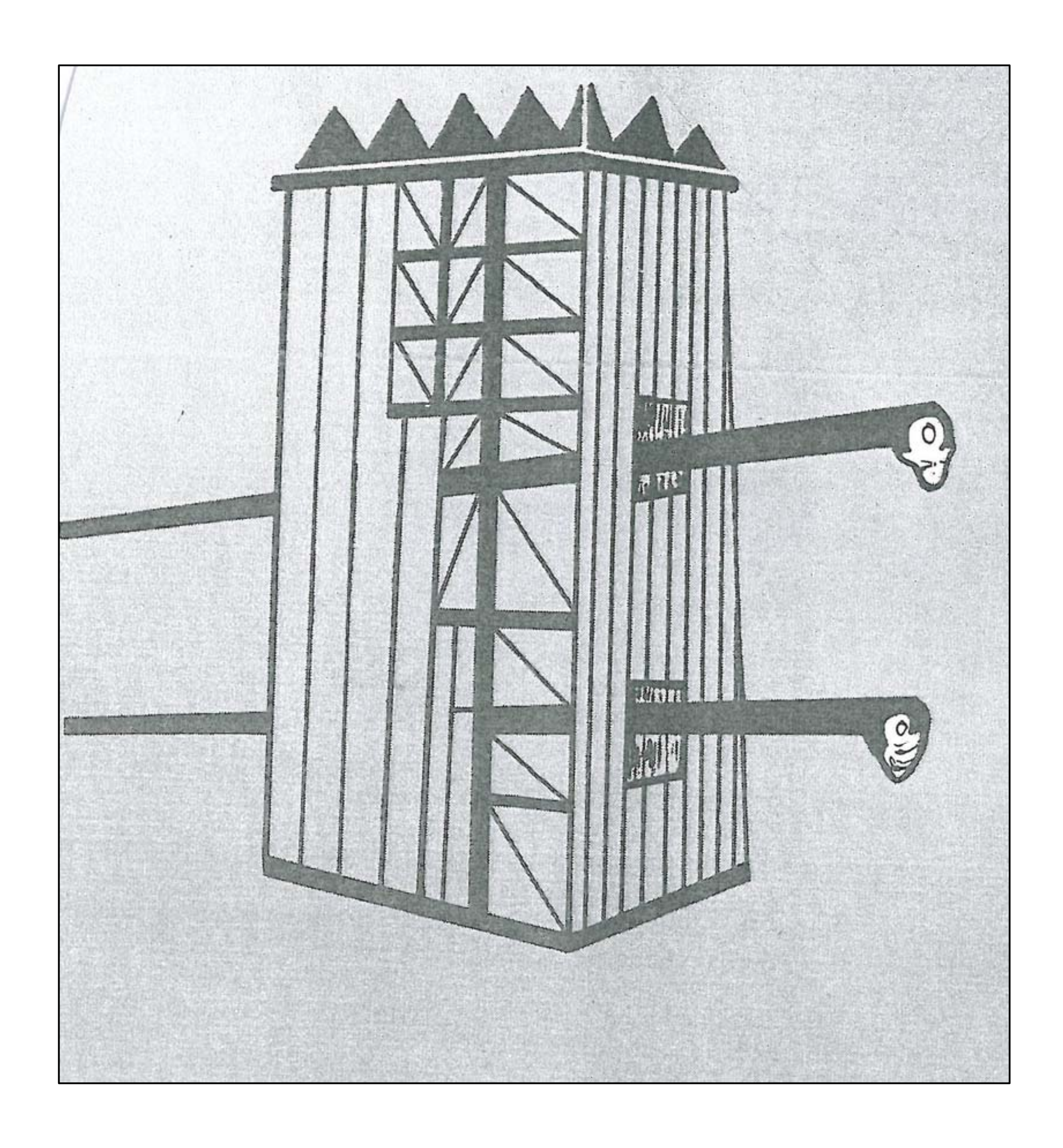
(1) خطاب، العسكرية العربية الإسلامية، ص ١٦٦

(2) خطاب، المرجع نفسه، ص ١٦٦-١٦٨.

(3) الطرطوسي، تبصرة أرباب الألباب، ص ١٩-٢٠.

(4) النيلية هي مراكب خصصت للإبحار داخل مجرى النيل من أعلاه إلى أسفله، ومعدة لنقل الغلال والبضائع وكافة أعمال النقل الداخلي، أما بقية السفن فهي حربية تشحن بالسلاح وآلات الحرب والرجال وتمر من ثغر الإسكندرية ودمياط إلى جهاد الأعداء من الروم والإفرنج، المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٣٣١.

رأس الكبش [1]



(1) خطاب، العسكرية العربية الإسلامية، ص ١٦٩.

الإسلامية من ناحية، وساهمت في تنشيط وحماية الحركة التجارية من الداخل والخارج من ناحية أخرى، أما عن صناعة السفن الحربية المملوكية فقد كان لها دور صناعة متخصصة وأهم هذه الدور هي:

أ- دار صناعة الروضة:

اهتم الظاهر بيبرس بتعمير وتنشيط هذه الدار وعمر فيها الكثير من الشواني، حتى أصبحت السفن الحربية والتجارية تصنع هنا تارة ومن دار صناعة الفسطاط أو مصر تارة أخرى وقد ظل الاهتمام بهذه الدار قائماً طوال العصر المملوكي الأول والثاني(١).

ب- دار صناعة مصر – الفسطاط:

أسست هذه الدار منذ زمن الدولة الأخشيدية وبقيت حتى قيام الدولة المملوكية وقد كانت هذه الدار مخصصة لصناعة السفن الحربية لحماية السواحل الإسلامية في مصر والشام أيام الدولة الأيوبية، وقد كانت هذه السفن تخرج بعد صناعتها محملة بآلات الحرب والمقاتلة من النيل إل الثغر الشمالي كالإسكندرية أو رشيد أو دمياط أو الفرما(٢).

وفي العهد المملوكي استمرت هذه الدار في عملها ونشاطها، فالظاهر بيبرس أمر بإنشاء عشرين شونة سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م وقد واكب ذلك بنفسه، وكذلك اهتم الأشرف خليل بن منصور قلاوون بدار صناعة مصر وأمر وزيره السلعوس بالإشراف على إنشاء أسطول قوي بلغ حوالي الستن شينياً(٣). وفي عام ٧٠٢ هـ/١٣٠٢م، أنشأ الناصر محمد أسطولاً في دار صناعة مصر غزا به أرواد، وقد تم تدشينه بالتدريبات والمناورات الحية عقب صناعته(٤) كما كانت هناك أيضاً داراً لصناعة السفن في الإسكندرية ودمياط (٥). ودار صناعة المقس(٦).

ج- دار صناعة بيروت:

كانت هذه الدور تعج بكافة أرباب الحرف المتخصصين في بناء السفن كما النجارين والحدادين والقلافطة وغيرهم من ذوي الحرف المختلفة التي تدخل في صناعة السفن، وكانت لهؤلاء الحرفيين نظم وقوانين يسيرون عليها، بحيث أنه ينبغي أن يشرف عليهم عريف ثقة، اي أن يحصلوا على ترخيص معين من السلطان أو ما ينوب عنه.

---

(1) عدوان: أحمد محمد، العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي، عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٥م، ص ٩٩-١٠٠.

(2) عدوان، المرجع نفسه، ص ١٠٠.

(3) المقريزي، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٣٤٠-٣٤١.

(4) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص ٣٠٩.

(5) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٣١٨.

(6) المقريزي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٣٤.

لقد اشتهر الأقباط بهذه الصناعة وكذلك العراقيين بعد قدومهم إلى مصر، وكذلك استخدم المماليك المغاربة لمهاراتهم في قيادة السفن والملاحة أيضاً. وقد كثر المغاربة في الصناعة البحرية المملوكية وكان رئيس دار صناعة الإسكندرية المغربي إبراهيم التازي(١).

أما أهم السفن التي أنتجتها المصانع المملوكية فهي على الشكل التالي:

- الشواني: وهي سفن حربية كبيرة ذات أبراج وقلاع تستعمل للدفاع والهجوم وتجهز في أيام الحرب بالسلاح والنفط وتشحن بالمقاتلة والجنود البحرية.
- الحراريق: سفن حربية أصغر من الشواني وتستخدم في حمل الأسلحة النارية، كالنار الإغريقية، وبها مواضع خاصة تلقى منها النيران، وكذلك كانت تستعمل لنقل الأمراء ورجال الدولة في الإستعراضات البحرية الرسمية.
- الأغربة: مهمتها حمل الجيش وهو مزود بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويقاتلون بالأساليب البرية.
- البطس: تستعمل لحمل المجانيق والسلاح وسائر آلات الحرب، وهي كبيرة الحجم تتسع لحوالي سبعماية رجل ولها أسطح عالية وطبقات متعددة.
- القراقير: هي سفن إمداد تقوم بمهمة تموين الأسطول بالزاد والمتاع والسلاح ومنها ما يحتوي على ثلاثة ظهور.
- العشاريات: تنقل البضائع والرجال من الساحل لأن القراقير لا تقف إلا في المياه العميقة، وفي بعض الأحيان تستخدم لنقل الجند أيام الحرب.
- الطرايد: مفتوحة المواخير بأبواب تفتح وتغلق، وهي معدة لحمل الخيل في أوقات الحرب وتتسع لعدد يتراوح ما بين أربعين وثمانين فرساً(٢).
- الشيطي: سريع الحركة مهمته كشف العدو، وعمله استطلاعي.
- الحمالات: مخصصة لنقل المؤن والرجال.
- السنبوك: سفينة كبيرة تبلغ حمولتها ما بين ثمان وثمانون إلى مائة وثمانون طناً، وهي مكشوفة وليس لها ظهر مدببة المقدمة عريضة المؤخرة(٣).

د- الأسلحة المستخدمة على ظهور السفن:

هي عبارة عن كلاليب تستعمل عند لقاء المراكب لجذبها ومد جسور خشبية يمرون عليها للمقاتلة، ولمقاومة الكلاليب تستخدم الفؤوس لقطع الحبال حيث يبطل عملها.

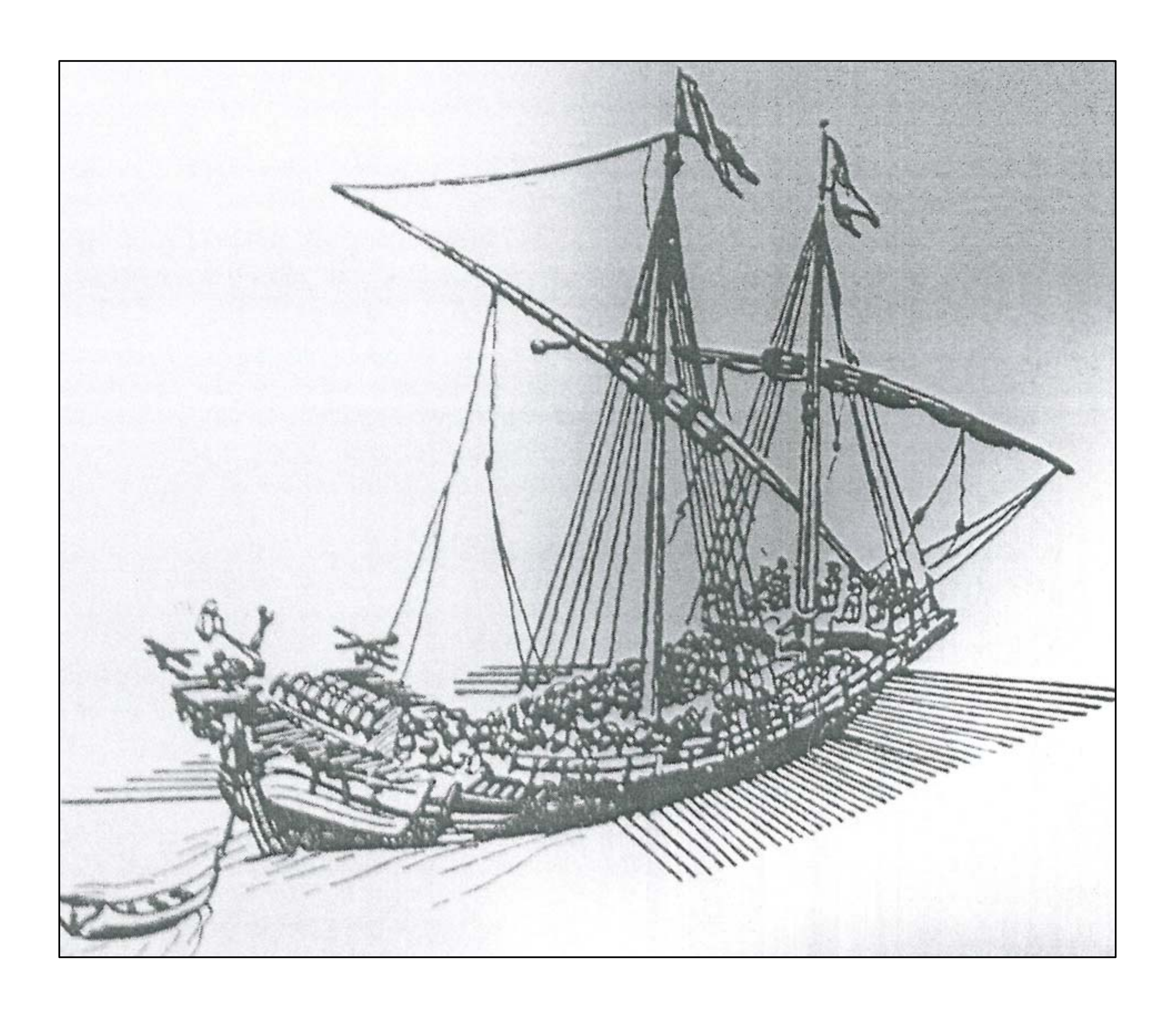
---

(1) عدوان: المرجع السابق، ص ١٠١-١٠٢.

(2) عدوان، العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي، ص ١٠٣-١٠٤.

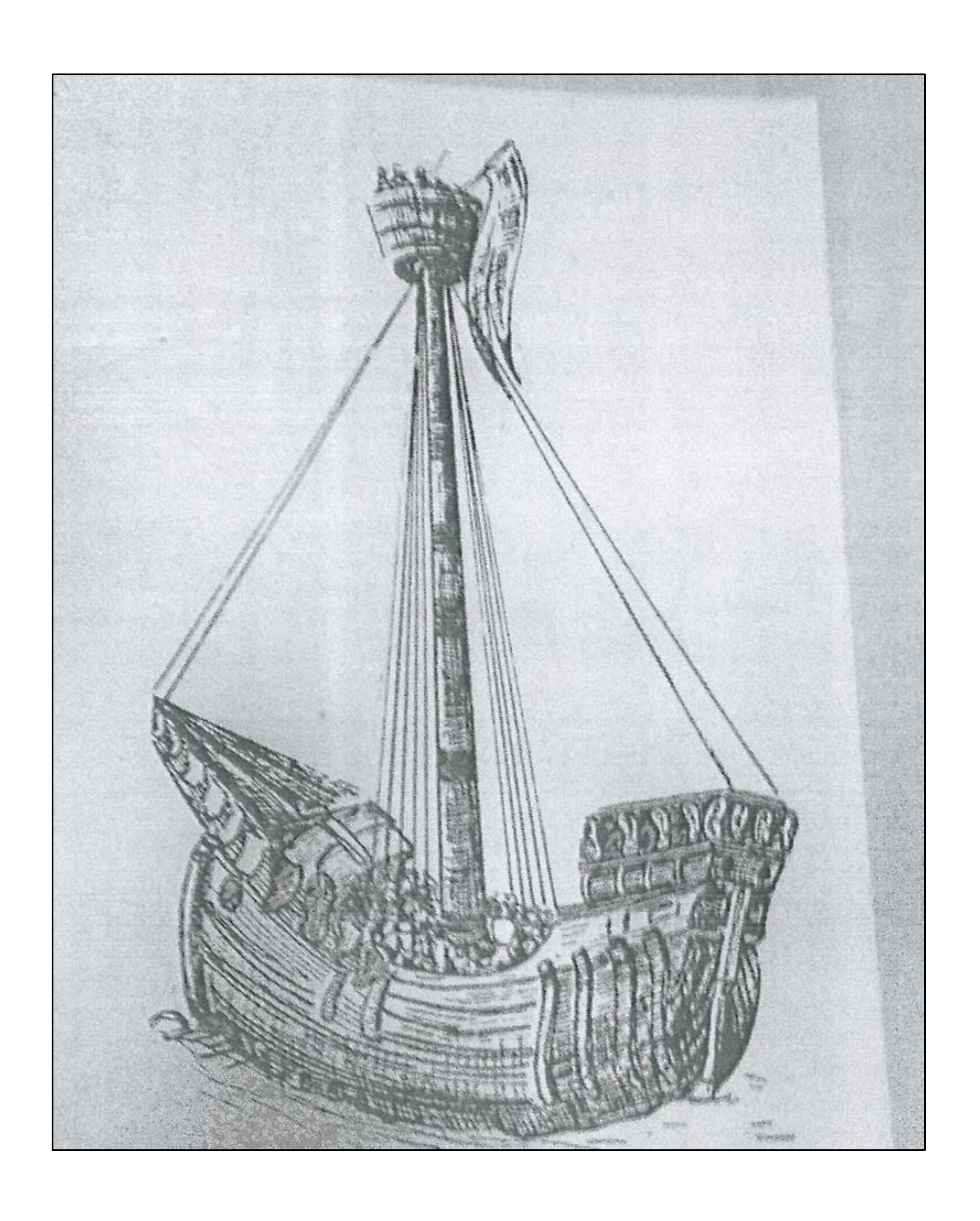
(3) عدوان، المرجع نفسه، ص ١٠٥-١٠٦.

نموذج لسفينة الشيني[١]



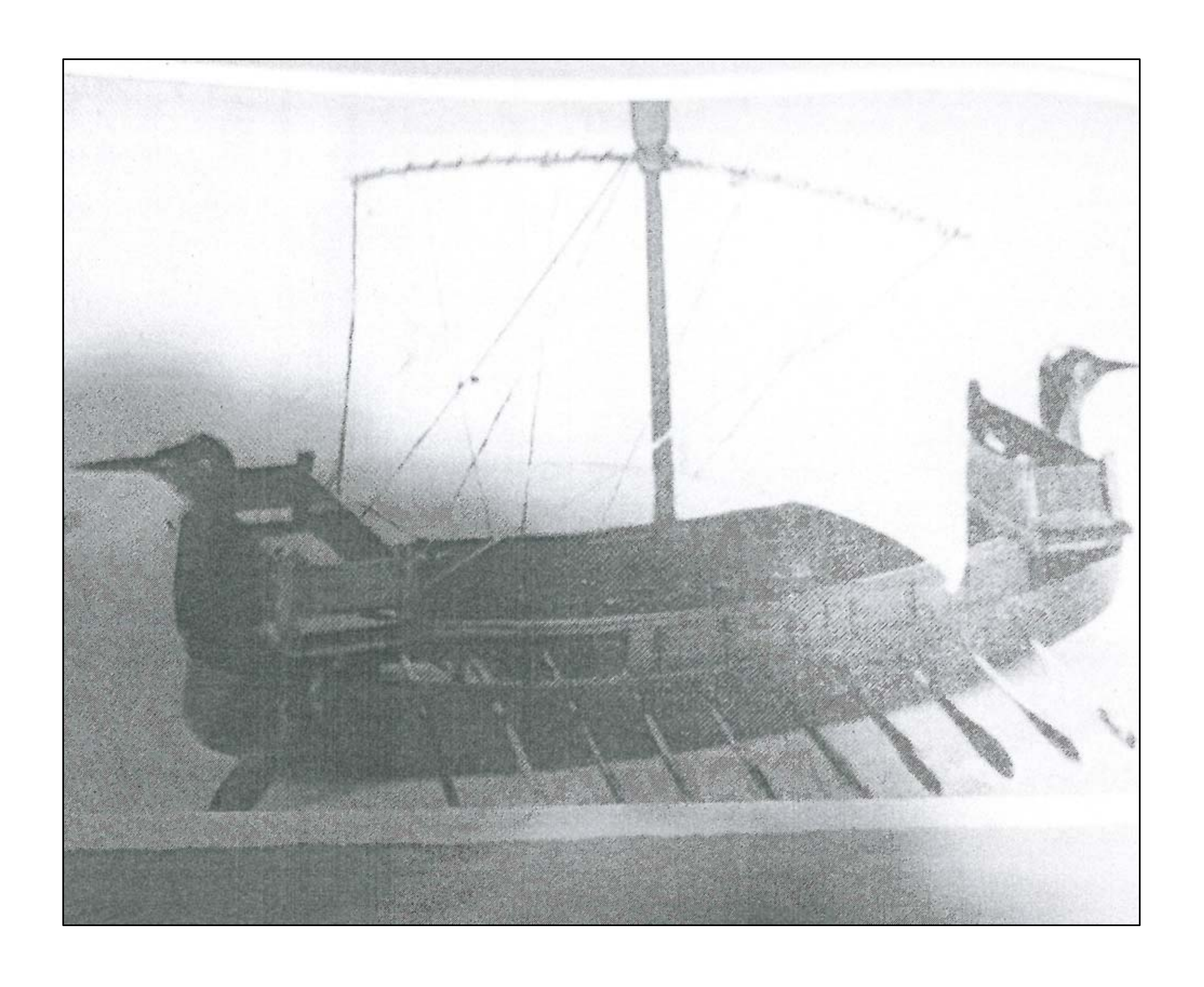
(1) ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص ٤٧١.

نموذج لسفينة الحراقة(1)



(1) ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص ٤٧٢.

نموذج لسفينة الغراب [1]



(1) ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، ص ٤٤٩.

ومن الأدوات المستخدمة أيضاً في السفن اللجام الذي يوضع في مقدمة السفينة، وهو مكون من حديدة طويلة مسننة الرأس يستعمل لطعن المراكب وإلحاق الأضرار بها، واستخدم التابوت أيضاً وهي صناديق معلقة بأعلى الصواري ومعهم قطع من الحجارة وقوارير النفط أو جرار وحين يرمون المقذوفات يحتمون في التابوت، ويوجد نوع آخر من السلاح المستخدم على ظهر السفن يعرفون بالباسليقات وهو عبارة عن سلاسل تنتهي عند رؤوسها برمانة من الحديد تشبه الدبوس نوعاً ما بخلاف السلاسل فقط، كما استخدمت تلك السفن المدافع والمجانيق، وقد اعتاد المماليك على طلاء مراكبهم باللون الأزرق وذلك لخداع العدو. في حين أن العاملون في صناعة الأسطول كانوا يصنعون كل على حسب فنه ومهنته فمنهم النجارون والحدادون والمقلفطون والزراقون والنفاطون ورجال المجانيق والمدافع[١].

٧- سلاح الفرسان:

يعتبر الفرس من أهم أدوات القتال في العصور السالفة، وجوده هو من يحدد مصير المعارك لما يتصف فيه من السرعة والقوة والقدرة على التحمل، على أن لا ننسى دور الفارس في كيفية تطويع الفرس والبراعة العالية في استخدامها.

اعتمد الجيش المملوكي اعتماداً تاماً على الخيل إذ تعد من الأسلحة الهجومية وهي شبيهة بالدبابات أو الأسلحة البرية الهجومية في عصرنا الحالي، ومن شدة اهتمام المماليك بها فقد دفعوا بها أغلى الأثمان، حتى كان الفرس يثمن بأثمن أو بأزيد من قيمته على السلطان عشر مرات غير الخلع[٢]. ومما يذكر عن السلطان الناصر محمد كان إذا جاءه شيء من الجلب قام وقلبه بنفسه، فإذا أعجبه فرس دفع فيه العشرة والعشرين والثلاثين ألف درهم هذا فضلاً عن آلاف المثاقيل من الذهب[٣].

نظم الجيش المملوكي للخيل ديواناً يشرف على إحصائها وصفاتها وأسمائها، وأقام لها الإصطبلات، وعين لها أمير أخور وناظراً وكاتباً، واعتنى قادة الجيش بإنتاج الخيل وتدريبها، وقد ترك السلطان برقوق من الخيل ما يقارب من ستة آلاف فرس[٤].

وقد كان أغلب الفرسان في الجيش المملوكي يحبون ركوب الفحل في الحروب[٥]، والجنائب[٦].

(1) عدوان، العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي، ص ١٠٧-١٠٨.

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٨١.

(3) المقريزي، المصدر نفسه، ج٣، ص ٣٩٧.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٢، ص ١٠٦.

(5) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج١، ص ٢٠٥.

(6) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج١٣، ص ٣٦٦.

وكان مما ذكر عن السلطان برقوق في رسالة التهديد إلى تيمورلنك، "نحن خيولنا برقية، سهامنا عربية، وسيوفنا يمانية، ولبوسنا مصرية، وأكفنا شديدة المضارب وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب"[1]. في هذا ما يدل على إقتنائهم للخيل البرقي أي من برقة حيث نالت إعجاب السلاطين.

كذلك اشتهرت خيول آل مهنا في الشام فقد بلغ سعر الفرس عندهم ستين وسبعين ألف درهم ومنها ما وصل إلى مائة ألف درهم[2].

ويتضح لنا عن مدى اهتمام المماليك بالخيول والصرف عليها، فالظاهر بيبرس كان يصرف على دوابه ودواب من يلوذ به في كل سنة ثمانمائة ألف درهم، حيث بلغ من العلوفات خمس عشر ألف عليقة في اليوم الواحد منها ستماية أردب[3] في مصر وحدها. وكذلك بلغ عليف خيول السلطان برقوق وأمرائه في الشهر الواحد ثلاثة عشر ألف أردب شعير[4].

لذلك فقد حرص السلاطين المماليك على اقتناء أفضل الخيول وألا يحضر منها الجعفاء والعاجزة[5]، وحتى أن جند الجيش المملوكي كانوا يركبون الخيل المرتفعة الأثمان، والخيل ثلاثة، وهي على الشكل التالي:

- العراب، وهي أفضلها وأعلاها قيمة وأغلاها ثمناً، وتطلب للسباق واللحاق، وقد كانت الملوك تتغالى في أثمانا وتعدها لمهام الحرب، تنتشر أماكن وجودها في بلاد العرب كالحجاز ونجد واليمن والعراق والشام ومصر وبرقة وبلاد المغرب وغيرها.
- العجميات، وهي تعرف بالبراذين ويقال لها الهماليج، وتعرف الآن بالأكاديش وهي تجلب من بلاد الترك وبلاد الروم ومعظمها مشقوقة المناخر وتطلب لكونها تصبر على السير وسرعة المشي.
- نوع آخر هي المولد بين العراب والبراذين، فإن كان الأب أعجمياً والأم عربية قيل له هجين، وإن كان العكس قيل له مقرف، وهي تكون في الجري والمشي متوسطة بين النوعين[6].

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ٥١.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص ٣٠٤.

(3) الإردب كيل مصري كبير يستعمل في مصر لتقدير الحبوب ويزن حوالي مائة وخمسين كيلو غرام. الجليلي: محمود، المكاييل، والأوزان والنقود العربية، دار الغرب الإسلامي، طبعة أولى، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ١١٥.

(4) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج١٢، ص ١٠٧.

(5) العسقلاني، الفضل المأثور في سيرة السلطان الملك المنصور، ص ١٢١.

(6) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٢، ص ١٧.

لقد جرت عادة السلاطين والمماليك أن ينعموا على أمرائهم بالخيول مرتين في كل سنة، المرة الأولى عند خروجه إلى مرابط خيوله في أواخر الربيع فينعم على أمرائه من الخيول على قدر مراتبهم، حيث تكون خيول المقدمين مسرجة ملجمة، وخيول أمراء الطبلخات غير مسرجة ومن غير قماش، والمرة الثانية عند لعبة الكرة بالميدان، وتكون خيول أمراء مقدمين الطبلخانات مسرجة ملجمة بفضة يسيرة، وكذلك يرسل إلى نواب الممالك الشامية، ولم يكن لأمراء العشرات في ذلك حظ إلا ما يتفقدهم به على سبيل الإنعام(١).

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٥٦.

استنتاجات:

انسحب التطور العسكري والتصنيع الحربي على مجمل القطاعات والتشكيلات في الجيش المملوكي، وانتشرت مراكز التصنيع في جميع أنحاء السلطنة ولم تقتصر على مصر وحدها بل تعدتها إلى جميع النيابات وبلاد الشام، وبما أن الدولة المملوكية دولة عسكرية فقد تجاوزت صناعتها العسكرية خارج حدود جيشها وسمحت بامتلاك السلاح لجميع المواطنين وذلك بقصد أن يكون مهيئاً للقتال عندما تقرع طبول الحرب وذلك على غرار معركة عين جالوت حيث استدعي كل من هو قادر على حمل السلاح للقيام بواجبه في الدفاع عن الأرض والدين.

لم تكتف الصناعات العسكرية المملوكية على صناعة الأسلحة التقليدية بمفهوم ذلك العصر ألا وهو السيف والرمح والترس والقوس والنشاب بل تعدت في ذلك إلى تصنيع الأسلحة الثقيلة أو ما يعرف بالأسلحة الجماعية كصناعة المدافع والصناعات النفطية والكيمائية التي أحدثت انقلاباً جذرياً في نتائج المعارك، وقد ظهر ذلك جلياً عند استخدام المدفع الأول مرة في معركة المنصورة وما نتج عنها، وأيضاً ما أصاب المغول من هزيمة في عين جالوت عندما استخدم المماليك المدافع والمكاحل وقذائف النفط والنيران.

لقد تم تخزين السلاح في المخازن أوما يعرف بخزانة السلاح أو السلاح خاناه، وفرض المماليك الرقابة الصارمة المشددة على تلك المخازن لناحية الصيانة الدورية على جميع أنواع الأسلحة للتأكد من جهوزيتها وحسن اشتغالها، لم تتوقف الصناعات العسكرية المملوكية عند الأسلحة البرية وحسب، إنما تعدتها إلى تطوربارز ولافت في الصناعات البحرية من خلال انتشار مراكز بناء السفن في جميع أنحاء الدولة مع ما أنتجته تلك المراكز من سفن قتالية لحماية سواحل السلطنة من الغزوات البحرية الخارجية، كما لا يمكننا تجاهل سلاح الخيل الذي يعد القوة الضاربة والركيزة الأساسية في العمليات العسكرية لناحية حسم المعارك وذلك لما اتصف به الجيش المملوكي في البراعة والمهارة في استخدام الخيل على نطاق واسع، وقد اعتنى المماليك جيداً بهذا النوع من أداة الحرب وعملوا على انتقاء أفضلها وأحسنها.

الفصل السابع
الجهاز الإداري للجيش المملوكي

المقدمة:

المبحث الأول: مصادر التمويل للجيش

١- مصادر الأموال الشرعية.

٢- مصادر الأموال الغير شرعية.

المبحث الثاني: التموين (الطعام والمياه)

المبحث الثالث: المخازن

١- مخازن الأسلحة

٢- مخازن الطعام

٣- مخازن المهمات

٤- مخازن المفروشات

٥- مخازن الرواحل

٦- مخازن الأدوية والأشربة المختلفة

٧- المخزن الخاص

٨- مخازن الكتب

المبحث الرابع: لباس الجيش

١- لباس الرأس

٢- لباس الجسم

٣- لباس الأرجل

٤- لباس المراسم والتشريفات

المبحث الخامس: الإقطاع والرواتب

المبحث السادس: الأشغال والهندسة العسكرية

المبحث السابع: وسائل النقل والمواصلات

المبحث الثامن: الخدمات الطبية

استنتاجات

الفصل السابع

الجهاز الإداري للجيش المملوكي

المقدمة:

تشكل القاعدة المادية الأساس الذي تقوم عليه الدول لضمان استمرارها، قديماً وحديثاً، وبقدر ما تكون خزانة الدولة مليئة بالأموال، بقدر ما تكون قادرة على مواجهة كافة المشاكل والصعاب لأن المال هو بمثابة عصب الدولة ومحركها وينسحب ذلك على مجمل أوضاعها السياسية والإقتصادية والإجتماعية بحيث أنه يكون السبب في نهوضها وتطورها، وبما أن الدولة المملوكية هي دولة عسكرية بإمتياز فإن معظم مقدرات الدولة المالية كانت تتجه للإنفاق على الجيش الذي يعد الأساس في وجودها وظهورها على مسرح الأحداث في تلك الحقبة.

مع تكون الجيش المملوكي فقد رافقه قيام جهاز إداري يتولى أمور التنظيم والإعداد والتأمين المادي والمالي والطبي والنقل والطعام والملابس والإيواء والسكن والسلاح وما شابه ذلك من الضرورات والوسائط المادية التي يحتاجها المقاتل المملوكي في المعركة، بحيث أنه يتوقف تقدم القوات أو تأخرها، نجاحها أو فشلها على مدى فعالية وقدرة ذلك الجهاز على أمداد وتموين الجيش والحفاظ على خلفيته ودورها في ثبات وصمود القوى العسكرية.

المبحث الأول: مصادر تمويل الجيش:

أما عن مصادر الأموال التي تدخل خزينة الدولة ويصرف منها على الجيش فهي تأتي من مصدرين إحداهما شرعي والآخر غير شرعي وهما على الشكل التالي:

١ - مصادر الأموال الشرعية:

أ- مال الخراج: هو ما يؤخذ عن أجرة الأرض (الوجه البحري والقبلي)(1).

ب- دخل الدواوين السلطانية وديوان الوزارة والديوان الخاص وديوان المفرد وديوان الأملاك(2).

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٥١٩ و٥٢٢.

(2) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٣، ص ٥٢٤.

ج- ما تستخرجه الأرض من معادن مثل الزمرد[1]، والشب[2]، وغيره من المعادن الثمينة.

د-الزكاة: التي تؤخذ من التجار وغيرهم، وما يدخل إلى البلاد من الذهب أو الفضة فإنهم يأخذون على مائتي درهم خمسة دراهم، وأيضاً ما يؤخذ على المواشي.

هـ - الجوالي: هو ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم كل سنة[3].

و- المواريث الحشرية، هي مال من يموت وليس له وارث خاص.

ز- محصلات الثغور(دمياط والإسكندرية): هو ما يؤخذ من تجار الإفرنج الواصلين في البحر إلى الديار المصرية أخذ العشر من بضائعهم التي يقدمون بها من دار الحرب إلى بلاد الإسلام[4].

ك- محصلات دار ضرب النقود المضروبة بها من ذهب وفضة ونحاس، إذا كان يؤخذ الضريبة من صاحب تلك المعادن مقابل ضرب معدنه وتحويله إلى دنانير أو دراهم أو فلوس من نحاس، وقد كان في الديار المصرية داران للضرب إحداهما في القاهرة والأخرى في الإسكندرية[5].

ل-محصلات الإقطاعات: وهي في كل البلاد بالوجهين البحري والقبلي، المقطوعة للأفراد والمماليك على قدر رتبهم ودرجاتهم، فمن الأمراء من يحصل على إقطاع بلد واحد ومنهم من يجمع أقطاع نحو عشرين بلد، أما المماليك السلطانية يشترك الإثنان في بلد واحد، أو أن ينفرد بإقطاع بلد واحد بذاته[6].

٢- مصادر الأموال الغير شرعية[7]:

كالمكوس التي تدخل في خزينة الدولة أيضاً، وهي على الشكل التالي:

أ- هو ما يؤخذ من التجار الواردة ببضائعهم إلى موانئ بحر القلزم (الأحمر) من الشرق ومن جهة اليمن والحجاز، وكذلك على واصل التجار من بلاد الشام إلى الديار المصرية عبر المتوسط[8].

---

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ص ٢٧٦.

(2) المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص ١٨٥.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٣، ص ٥٢٩-٥٣٠.

(4) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٣، ص ٥٣١، ٥٣٢.

(5) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(6) القلقشندي، المصدر السابق، ج٣، ص ٥٢٥.

(7) القلقشندي، المصدر السابق، ج٣، ص ٥٣٦.

(8) القلقشندي، المصدر السابق، ج٣، ص ٥٣٦-٥٣٧.

ب- محصلات ضرائب من التجار الواصلين في البر من الشام والعراق وما والاهما وهي أكثر الجهات متحصلاً وأشدها على التجار تضييقاً.

ج- هو ما يؤخذ من محصلات بحاضر الديار المصرية بالفسطاط والقاهرة، وهي جهات كثيرة يقال أنها تبلغ اثنتين وسبعين جهة، منها ما يكثر متحصله ومنها ما يقل.

د- مكوس متفرقة بالديار المصرية التابعة للإقطاع والدواوين السلطانية ويعبر عنها في الدواوين بالهلالي، كما يعبر عما يؤخذ من أجرة الأراضي بالخراجي[١].

تلك هي مصادر داخل الدولة المملوكية التي كانت تمول الجيش وتمده بكل ما يحتاجه من المال والعتاد.

تأرجحت القاعدة المادية للدولة المملوكية وذلك حسبما كانت مداخيل الدولة من التجارة والخراج والعشور وما شابهها، وعندما تختل تلك القاعدة يضعف الجيش على النحو الذي حصل في نهاية الحكم المملوكي، إذا أصاب المواد الأولية نقص كبير وبخاصة الأخشاب والحديد، وضرب حصار اقتصادي من قبل البابا، الأمر الذي دفع بالقيادة العامة للجيش المملوكي أن تلتمس تلك المواد الناقصة من الدولة العثمانية في أيام السلطان النوري، وقد وصلت بعض الإمدادات إلى ميناء بولاق[٢]. غير أن تلك المواد لم تكن تفي بالغرض المطلوب لقلتها ولعدم ضمان استمرارها، وهو ما ينعكس على سياسة الدولة ومستقبلها، فقد أصبحت منذ زمن السلطان قايتباي تنتهج سياسة دفاعية مع أعدائها بدلاً من الهجوم وبخاصة مع العثمانيين[٣].

ليست التجارة والمحصلات الضرائبية في حال ركودهما السبب الرئيس في تقاعس الجيش وانعدام توازنه، إنما يعود إلى الهدر بين السلطان والأمراء دون أن يكون للشعب الشيء اليسير من القاعدة المادية، إذ عندما يحتاج الجيش إلى العتاد والأسلحة عمد السلطان والأمراء إلى شراء ما يخصهم وقووا أنفسهم دون بقية القوات المسلحة، الأمر الذي خلق تناقضات وخلافات بين الجيش والشعب[٤].

وللعودة إلى الجهاز الإداري للجيش المملوكي وما قدمه من دعم متواصل للقوى العسكرية أثناء التحضير للمعركة أو خلالها، فإننا نرى أنه بذل كل ما بوسعه لإنجاح عمله، وأهم تلك الأعمال هي:

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٥٣٨-٥٣٩.

(2) اليوزبكي: توفيق، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المملوكي، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٧٥، ص ١٢٣-١٢٤.

(3) زكي، الجيش المصري في العصر الإسلامي، ص ١٩٣.

(4) مبارك، الخطط التوفيقية، ج١، ص ١٤.

المبحث الثاني: التموين: (الطعام والمياه):

أطلق على مصلحة الإطعام في عصر المملوكي اسم "الإقامات" وتشمل كل المواد والعتاد التي تخص المقاتل وما يتبعها أيضاً من العلاف وأكل الدواب المرافقة للجيش(١)، وتتولى تلك المصلحة كافة أمور الطعام ومسؤولية حفظه وتخزينه وإيصاله إلى الجند، وعرف من موظفي ذلك الجهاز أيضاً " الخوان سلار"(٢)، والمرقدار(٣)، والمهتار(٤)، و"شادي الشراب" أي بمعنى الساقي(٥).

انتشرت المطابخ بشكل واسع في العصر المملوكي، وقد كان للسلطان عدة مطابخ وكذلك للأمراء لكي يطعموا المماليك الذين هم تحت أمرتهم، وقد كان الجندي المملوكي يحصل على طعامه مجاناً طالما هو في القلعة، وحين تدق طبول الحرب (الكوسات) كان السلطان يمنح المقاتلين المبالغ اللازمة، والطعام الناشف والعليق لدوابهم، وقد كان عدد المطابخ في مصر وحدها أكثر من الستين، وأشهرها البسيري، والأمير يوسف الدين أكديمي، والأمير فارس الدين أقطاي، والذخيرة ومطبخ سيف الدين زيني(٦).

تنوعت الأطعمة في تلك المطابخ وازداد الإنفاق عليها، كما وأن نيرانها لا تنطفئ أبداً ليلاً ونهاراً، وعرف من الأطعمة السفرجلية والملوخية والمكمور(٧) وغيرها، وقد بلغت نفقات أحد المطابخ في عهد الملك الظاهر بيبرس نحو عشرة آلاف رطل وتوابلها، عشرون ألف درهم يومياً(٨). وفي عهده أيضاً فقد صنع له الأمير "قمر بغا المنجكي" شراباً من الزبيب سمي بإسمه"تمر بغاوي" وقد أقبل السلطان على شربه مع الأمراء(٩). وهناك أيضاً شراب "القمز" المصنوع من لبن الخيل ويذكر أن السلطان بيبرس كان قد أحب هذا النوع من الشراب وكان يكثر الشرب منه(١٠).

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٥، ص ٤٣.
(2) رئيس الطباخين في المطبخ السلطاني، المقريزي، السلوك لمعرفة دولة الملوك، ج٣، ص ٣٦٢.
(3) المسؤول عما يوحيه المطبخ من الطعام وحفظه وتقديمه، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٤١.
(4) هو لقب المسؤول عن من كان يعمل في البيوت كمهتار الشراب خاناه ومهتار الطست خاناه، ومهتار الركاب خاناه، وأصل الكلمة فارسية، القلقشندي، المصدر نفسه، ج٥، ص ٤٤١.
(5) هو لقب الذي يتولى مد السماط وتقطيع اللحم وسقي المشروب بعد رفع السماط، القلقشندي، المصدر نفسه، ج٥، ص ٤٢٦.
(6) الظاهري، زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك، ص ١١٥.
(7) الظاهري، المصدر نفسه، ص ١٢٥.
(8) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص ١٩٨.
(9) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج١٢، ص ٦٢.
(10) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ١٠٣.

وعند توجه الجيش للقتال كان الجندي يحمل زاد يسمى "البقسماط" [١]، الذي يحتوي على الخبز المجفف واللحم المقدد، وعندما يستنفذ الجندي زاده خلال سيره فإنه يعوض ذلك من المحطات التي كان يصلها للاستراحة وقد أعدت لتلك الغاية، وقد حرص الجيش المملوكي أثناء مسيره إلى أي معركة أو لتحرير أي مدينة أن يختار النزول في المناطق التي تسد حاجة الجيش من المؤن، بل والتي يوجد فيها مراعي للخيل، كما حدث مع الظاهر بيبرس وجيشه سنة ٦٦٧م/١٢٦٩م حين أمر النزول بأرسوف شمال فلسطين على ساحل البحر المتوسط[٢].

لذلك فقد كان على المقاتل المملوكي أن يحمل معه من الزاد ما يخف حمله وتكون به منفعة كبيرة وأن لا يتناول أي وجبة إلا عند الحاجة الضرورية، وقد حرص السلاطين وبشكل شخصي في الإشراف على نوعيات المؤنة، وعلى إطعام الجيش أفضل أنواع الأطعمة كاللحوم بشكل يومي والزيت والخبز وغيرها من المأكولات، كما أنه يأمر بتوزيع العليق والشعير والبرسيم للخيول، وإن هناك منحاً طعامية إضافية توزع في الأعياد وشهر رمضان وفي نهاية كل تدريب، وفي بدء العمليات الحربية والنجاح في المعارك وغيرها[٣]، حتى أن الدولة كانت ترسل للجيش في ميادين القتال الفواكه والحلويات[٤]، ومعظم الأطعمة التي كانت تنتج في المطابخ المملوكية كانت تخضع لتفتيش مفاجئ من السلطان نفسه، فضلاً عن القادة الذين يشرفون على ذلك مسبقاً.

ولقد توفرت في الأسواق ولا سيما في مصر والشام أنواع من الأطعمة الجاهزة التي لا تحتاج إلى تحضير وبخاصة لحوم الدجاج، الأمر الذي يسهل على المسؤولين في إدارة المطابخ حينما يقومون بتزويد الجيش بالزاد المخصص للحروب[5].

أكثر الأيوبيين وخلفائهم المماليك في بناء الخانات أو المحطات التي يستريح فيها المقاتل ويتزود بالماء والكلاء ومن ثم ينتقل إلى المحطة التي تليها. وقد كانت تلك المحطات على طول الشريط الساحلي لفلسطين والتي استفاد منها كثيراً الجيش المتوجه إلى عين جالوت لمواجهة المغول. أولاً، والصليبيين فيما بعد، وأهم هذه المحطات، عكا، عسقلان، قيسارية، صور، وغيرها نظراً لغناها بالمراعي والمياه.

---

(1) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٩، :١٦٣.
(2) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ص ٣٢٣.
(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٣٧٧.
(4) ابن تغري بردى، المصدر السابق، ج٩، ص ١٨٢- ج١، ص ٣٨.
(5) أبو البقاء: عبدالله بن محمد البدري المصري بدمشق (ت٨٥٠هـ/١٤٤٦م)، نزهة الأنام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، مصر، ١٩٢٢ م، ص ١٠٤-١٠٥.

أما بالنسبة للتزود بالمياه فقد كان الجيش المملوكي يملأ القرب الكبيرة وتحمل على ظهور الجمال والبغال والحمير التي تعد من وسائط نقل هذه المادة الإستراتيجية .

كما كانوا يتزودون بها أثناء مسيرهم الطويل من الآبار التي يتم حفرها مسبقاً قبل تحرك الجيش وتكون محمية ومؤمنة من قبل دوريات الاستطلاع.

اهتمت الدولة المملوكية كما يجب بالجندي المملوكي وقدمت له أفضل الطعام وأفخر اللباس والأعطيات والنقود كونه يخاطر بحياته، لذلك فمن واجب الدولة تأمين كل ما يحتاجه هذا في وقت كانت فيه الدولة في أوجه ازدهارها وعطائها وخاصة لجهة المال المتوفر في الخزينة، أما في عهد الجراكسة زمن السلطان فرج بن برقوق فقد منعت اللحوم وصار يعطى للجندي المملوكي عشرة دراهم لا تكفيه لشراء الفول لسد رمقه[١].

المبحث الثالث: المخازن:

هي الأمكنة المخصصة لتخزين المواد والعتاد، وهذا النوع من المخازن يكون مركزياً، إذ لا توجد مخازن على مستوى الجيش أو التشكيلات المقاتلة وهي على الشكل التالي:

١- مخازن الأسلحة:

هو ما يعرف بخزانة السلاح أو "السلاح خاناه" أو بيت السلاح.

وقد قيل " الزرد خاناه"، ومعناها بيت الزرد لما فيها من الدروع الزرد[٢]، والسيوف والقسي العربية والنشاب والرماح والقرقلات المتخذة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر، وغير ذلك من الأطبار وسائر أنواع السلاح، وللمخزن خازن وصانع وعدد من الجنود يشرفون على صيانته وإصلاحه وتجديد المستعمل منه، ويسمى صانعه " بالزردكاش"[٣]، وتوزع تلك المخازن في مصر لدى السلطان والأمراء وقادة الجند[٤]، وكانت القلاع أيضاً تستعمل كمخازن لكافة أنواع الأسلحة.

٢- مخازن الطعام:

تسمى أيضاً "خزانة للطعام" أو "الحوائج خاناه"[٥]، وهي تحتوي على الأرزاق الناشفة المخصصة للجند أثناء الحرب، ويوجد فيها الدقيق والحبوب والزيت وغيرها،في حين أن الأرزاق ذات

---

(1) المقريزي، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والأثار، ج٣، ص ٣٧٣.

(2) ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، مطبعة الكتب المصرية، ١٩٧٢ م، ج٤، ص ٣٢و٨٠.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١١.

(4) زكي، السلاح في الإسلام، ص ٣٠.

(5) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٢، ص ١٣٩.

الاستخدام اليومي فإنها تشترى بحسب الحاجة اليومية لها. وقد كانت مخازن الحبوب منتشرة في جميع أنحاء مصر والولايات التابعة لها ويطلق عليها اسم"الإهراء"[(١)].

٣- مخازن المهمات:

يطلق عليها اسم "الطشت خاناه"[(٢)] وهي تحتوي على جميع أنواع الألبسة العسكرية والخلع والأقمشة الفاخرة[(٣)].

٤- مخازن المفروشات:

يطلق عليها في الجيش المملوكي اسم " الفراش خاناه" وتحتوي على الخيم والبسط والسجاد والمفروشات، وهي كغيرها من المخازن لها فراشين يقدمون بما يترتب عليهم من أعمال الحفظ والصيانة والتسلم والتسليم[(٤)].

٥- مخازن الرواحل:

تعرف "بخزانة السروج" أو "الركاب خاناه" وهي عبارة عن قاعدة كبيرة بالقصر يحتوي على كافة أنواع السروج واللجم من الذهب والفضة وسائر آلات الخيل مما يختص بالخليفة، وفيها ما هو وسط برسم من هو من أرباب الرتب العالية، ومنها ما هو دون ذلك برسم من هو برسم العواري أيام المواكب لأرباب الخدم[(٥)]، ويتبع هذه المخازن الإصطبلات ومهمتها إيواء الخيول وكافة الدواب الأخرى والاهتمام بها، والإبقاء عليها في جاهزية دائمة وكاملة عند إعلان الحرب، والإشراف عليها لناحية الطعام والخدمة البيطرية، وقد كان للإصطبلات جهاز خاص يرأسه أمير آخور يشرف على شؤون الخيل وكافة الدواب[(٦)]. وقد عرف منهم السقاء[(٧)]، والسواس[(٨)]، والهجان[(٩)]، والمكارية[(١٠)]، للبغال، والأوجاقية[(١١)]، والسلاخورية[(١٢)]، وقد اختص كل واحد منهم بمهمة.

---

(1) الظاهري، زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك، ص ١٢٤. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، :٥٢٣.

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٣٩٧.

(3) القلقشندي، المصدر نفسه، ج١١، ص ١٦٧.

(4) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٤، ص ١٠ وج١١ ص ١٦٨.

(5) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٣، ص ٥٤٧. الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ١٢٤.

(6) القلقشندي، المصدر نفسه، ج١١، ص ١٦٩

(7) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٥٤.

(8) المقريزي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٥٤.

(9) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص ١٧.

(10) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ٤١٣.

(11) هم العاملون في الإصطبلات والمهتمين بشؤون الخيل، ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٥٦.

(12) ابن تغري بردى، المصدر نفسه، ج١٠ ص ١٢.

٦- مخازن الأدوية والأشربة المختلفة:

وكانت تسمى "خزانة للشراب" أو "الشرب خاناه" وفيها كل أصناف وأنواع الأشربة والأدوية، والمعاجين النفيسة، والمربيات الفاخرة، والعطريات التي لا توجد إلا فيها، وتحتوي أيضاً على الآلات النفيسة والأواني الصينية من الزبادي والصحون[١].

٧- المخزن الخاص:

وتسمى "خزانة التجمل" وهي من حقوق خزائن السلاح ويخرج منها القصب والفضة برسم تشريف الوزير والأمراء أرباب الرتب العالية[٢].

٨- مخازن الكتب:

فيها من المصاحف الشريفة، ومن الكتب ما يزيد على مئة ألف مجلد مشتملة على أنواع العلوم مما يدهش الناظر ويحيره، وربما اجتمع من المصنف الواحد فيها عشر نسخ، وكان فيها أدراج منظمة ومبوبة ومفهرسة[٣] وقد عرفت باسم" خزانة الكتب" وكانت موجودة بقلعة الجبل، وقدم لها ناصر الدين محمد البارزي كاتب السر خمسماية مجلد، قيمتها ألف دينار فأقر ذلك بالخزانة وأنعم على ابن البارزي بأن يكون خطيباً وخازن المكتب هو وذريته من بعده[٤].

أن مثل هذه المخازن لا يمكن الاستفادة منها بشكل مباشر إلا إذا كانت معارك الجيش المملوكي قريبة منها نوعاً ما، وهذا ما لم تكن تسمح به القيادة المملوكية العليا بأن تكون المعارك على تماس من مخازن الإمداد، فقد اعتمد المماليك إستراتيجية قتال الأعداء خارج الحدود وبعيداً عن عقر دارهم، فإن ذلك يحتم عليهم الاعتماد على وسائط نقل الإمداد إلى خارج الحدود أو الاعتماد على المحطات والخانات التي كانت قد بنتها والتي تتواجد على خطوط المواصلات التي يسلكها جيشها، هو والحالة هذه فإن الجيش المملوكي يتعمد عند قتاله أعدائه بأن يستدرجهم إلى المكان الذي يراه مناسباً له كي لا يتأثر بعملية الإمداد إذا ما دعت الحاجة لذلك.

المبحث الرابع: لباس الجيش:

أنفقت الدولة المملوكية الشيء الكثير على لباس الجيش، وتفننت في الألوان والتطريز والوشي والإشارات والعلامات التي تميز فيها أزياء السلطان وأمرائه عن بقية الجند وخاصة أثناء الحروب، وقد ارتبط اللباس وزينته بمكانة المملوك نفسه، ويختلف اللباس في وقت السلم منه عن وقت الحرب،

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٥٤٦.

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٣٥٧.

(3) القلقشندي، المصدر السابق، ج٣، ص ٥٤٥.

(4) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٤، ص ١٤٣.

كما يختلف أيضاً عند الاحتفال بالانتصار والعروض العسكرية، ولقد اثر اللباس المميز في ترتيبه ونوعيته بجيش العدو، ففي عين جالوت حينما ظهر الجيش المملوكي بمظهر الأخاذ وزينة خيوله أحدث اضطراباً في معنويات التتار الذي كانوا ينتظرون مواجهته.

وأهم ألبسة الجيش المملوكي:

١- لباس الرأس:

حافظ المماليك وخاصة الجنود على لباس الكلوته الصوفية الصفراء[١] وهي لباس الرأس وقد ضربت بالقطن وفوقها عمامة دكناء تدعى "الناصرية"[٢] في أيام الناصر، ثم تغير لونها إلى الصوف ذي اللون الأحمر في عهد السلطان قلاوون، كما ازداد حجمها في زمن الملك الأشرف وسميت "بالطرخانية"[٣] وقد زودت تلك الطاقية بكلاليب أو كليندات تعقد تحت الذقن لتثبت لباس الرأس، وقد كانت شعورهم مضفورة مدلاة خلفهم بدبوقة[٤] وهي كيس إما حرير أحمر أو أصفر[٥].

وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون استحدثت العمائم الناصرية وقد كانت صغيرة كي لا تعوق الجندي أو تشتت انتباهه أثناء القتال وأصبح لبس العمائم أمراً شائعاً حتى صار نزعها بمثابة العار، ولكن كان قد أبطل إرخاء ذوائب الشعر حين حلقها الناصر محمد عندما أصبح في أواخر حكم دولته، فقام الأمراء والجنود بتقليده وحلقوا رؤوسهم[٦].

استخدم المماليك أيضاً لباس للرأس يسمى الشربوش وقد لبسه الأمراء بدلاً من العمامة وهو مخصص لهم، ويشبه التاج ومثلث الشكل يوضع على الرأس بغير عمامة، ويلبس معه على قدر رتبته ثوباً فاخراً، وقد بطل لبس الشربوش في عهد الدولة الجركسية[٧]. واستعملت الطاقية وقد لبسها العسكريون من جميع الطبقات وهي شبيهة بالكوفية وبغير عمائم، وعرفت باسم الشركسية[٨].

٢- لباس الجسم:

ارتبط الملبس بالمنح والعطايا أيضاً، فقد كان السلطان ينعم على المتميزين من الجيش المملوكي وبخاصة الفرسان منهم "بالقباء"[٩]. وهو ثوب يلبس فوق الثياب، وتغيرت تسميته بتغيير

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٤، ص ٢٩١.
(2) المقريزي، المصدر نفسه، ج٣، ص ١٧٩.
(3) الظاهري، زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك، ص ٨١.
(4) السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢، ص ١١١.
(5) ماير، الملابس المملوكية، ص ٥٢.
(6) ماير، المرجع نفسه، ص ٥٣.
(7) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٦٤ و١٨٠.
(8) المقريزي، المصدر نفسه، ج٣، ص ١٨٨.
(9) ابن آجا، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، ص ٩٧.

وتبدل الملوك فكان يعرف أيضاً "بالسلاري" أيام الملك الناصر بن محمد، وكان لونه أبيض أو مخططاً بالأحمر والأزرق ومرصعاً بالجواهر(١).

وفي عهد المنصور قلاوون أدخلت الأقبية التترية إلى الخدمة ولبسها معظم الأمراء والمقدمين وأعيان الجند ومن فوقها القباء الإسلامي" ويشد عليه السيف من جهة اليسار، والقباء قصير الأكمام أقصر من القباء التحتاني(٢)، ويشد القباء الذي هو على شكل معطف ويضمه إلى الجسم" كمر" وهو الحزام المفرغ من وسطه لوضع الأول في داخله، و"للكمر" حلق "وإبزيم"(٣)، كما كانت توضع الحياصة على وسط الجندي وكان لها سوق يدعى "الحوائصيين (٤) تباع فيه بأسعار متفاوتة.

أما الصولق أو "الصوالق" (٥)، يصنع من الجلد يضعها المقاتل في حزامه من الجهة اليمنى، يوضع فيه الزاد للمقاتل من كافة الأطعمة(٦) وهي تتسع لنصف "ويبة"(٧)، أما عن لباسهم في فصل الصيف فكان أبيض من النصافي ونحوه وتشد فوق القباء الإسلامي، في حيث أنه في فصل الشتاء يكون لباسهم من الصوف الملون النفيس والحرير الفائق تحتها الفراء(٨).

تصدرت الصناعات المصرية في صناعة الملابس المحلية، وقد كان يصدر منها إلى الخارج، كما كان هناك سوقاً للفرائين(٩).

٣- لباس الأرجل:

انتعل جند المماليك الخف "البرغالي" وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذيب(١٠)، وهذا الخف من الصوف ويلبس فوقه خف مبطن من الكتان، ويخفف في الصيف فلا يلبس الصوف من الداخل،

---

(1) مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومد ا وبلادها القديمة والشهيرة ج١، ص ١٣٨.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٤١، ٤٢،

(3) الإبزيم، هو ما يكون في رأس المنطقة وأشبهه، وهو ذو لسان يدخل فيه الطرف الآخر، السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ج٢، ص ١١١.

(4) مبارك، الخطط التوفيقية، ج١، ص ١٣٨.

(5) القلقشندي، المصدر السابق، ج٢، ص ١٤٠.

(6) تسيترشتين: ك، ف، تاريخ سلاطين المماليك في أعوام ٦٩٠-٧٤١هـ، بديل ليدن ١٩١٩م ص ٢٧.

(7) الويبة، هي كيل من الأكيال المصرية تساوي (١٢) كلغ. فالتر: هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة عن الألمانية كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، طبعة أولى، ١٩٧٠م، ص ٨٠.

(8) القلقشندي، المصدر نفسه، ج٤، ص ٤٢.

(9) المقريزي، المواعظ والإعتبار، ج٣، ص ١٨٧.

(10) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ٢٥٩، ج٥، ص ١٧٨.

ويطلقون على الخف "سقمان" وهو خف ثان[1]، كما كانوا يلبسون المهماز على الأخفاف منه ما هو حديد، ثم أصبح من الفضة ثم صار من الذهب[2].

٤- لباس المراسم والتشريفات:

إتخذ الأمراء الخاصون وقادة الجند المقربون أنواع فاخرة من الثياب يرتدونها في أوقات الاحتفالات والاستعراضات ومن تلك الثياب نوع يقال له " طرد وحش" وهو على شكل جاد من جلود الحيوانات ذات فراء كثيف، ويطرز بألوان زاهية ومذهبة، وأطلس ذات ألوان تتناسب ورتب الأمراء[3]،إلا أن السلطان المنصور قلاوون كان قد غير تلك الألبسة، وابتكر ألبسة جديدة غيرها [4]، وقد أضاف السلطان أشرف على العمامة علامة خضراء لكل الأشراف من عائلته في جميع أراضي المملكة وصار يعرف " الشريف" من هذه العلامة[5]، وقد أضاف إلى مقدم المماليك السلطانية الطواشي سابق الدين مثقال قباء حرير أزرق صاف مطرز ومزركش عريض أسوة بالأمراء الخاصكية، وإلى مقدمي الألف الخاصكية أقبية حرير بفرو وأطواق سمور مطرزة ومزركشة، منها ما هو بفرو سناجب وفراء حيوانات أخرى[6]. وقد كان للسلطان تاج يلبسه في المواكب والمراسم والتشريفات مكان العمامة التي تلبس في الأيام العادية، وللتاج جوهرة نفيسة تسمى اليتيمة زنتها زنة سبعة دراهم، وحولها جواهر أخرى دونها حجماً[7].

المبحث الخامس: الإقطاع والرواتب:

اتخذت دولة المماليك من الإقطاع أساساً لتسيير أمورها وتنظيم شؤونها، على غرار ما كان متبعاً لدى الأيوبيين والذي يعد مورداً من موارد الدولة بما يمنحه الإقطاع من نقد ومحصول.

لم يخضع الإقطاع في العرف المملوكي لحق الملكية أو لحكم الوراثة، فكان المقطع يحل في الإقطاع محل السلطان ويتصرف بإرادة فقط، لأنه بمجرد انتهاء المدة المتفق عليها لاستغلاله يعود الإقطاع إلى السلطان، أو بسبب وفاة المقطع ما إذا كان الإقطاع مدى الحياة[8].

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ١٧٩

(2) المهماز هي آلة حادة تكون في رجل الفارس فوق كعبه وفوق الخف، وهي محددة الرأس يستعملها الفارس لينخر فيها الفرس فتسرع، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ١٤٤.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٢٥٣.

(4) مبارك، الخطط التوفيقية، ج١، ص ١٣٥.

(5) الشرقاوي، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين، ص ١٣٨.

(6) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٥٨.

(7) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ١٠٧.

(8) القلقشندي، المصدر السابق، ج١٣، ص ١٢٣.

يأمر السلطان ناظر الجيش بالكتابة عندما يختار من سيوليه الإقطاع على ورقة تسمى "المثال" وهي عبارة عن وثيقة رسمية تصدر عن ديوان الجيش إلى كل جندي أو مملوك فتحدد حصته من الإقطاع ويبين حدودها وموقعها واسم الإقليم أو القرية. وعندما يوقعه السلطان يرسل إلى ديوان النظر لتسجيله وحفظه فيه، ويكتب ذلك بما يسمى في اصطلاح العصر المملوكي باسم "مربعة"(١). وهي ورقة مربعة الشكل يكتب فيها اسم المعين على الإقطاع ورتبته وعدد أجناده، ومن بعدها ترسل المربعة إلى ديوان الإنشاء فيحولها كاتب السر على من يكتب بها "منشور" الإقطاع(٢).

كانت إقطاعات الحلقة التي تخرج بها منشورات من ديوان الجيش وقفاً على أجناد الحلقة دون سائر طوائف الجيش المملوكي، كالمماليك السلطانية الذين كانوا يمنحون الرواتب المنتظمة، ومماليك الأجناد الذين كانوا يعيشون في كنف أساتذتهم، ولقد كانت أرض مصر مقسمة إلى أربعة وعشرين قسماً أو قيراطاً، وهي أربعة قراريط للسلطان، وعشرة للأمراء، والعشر الباقية للأجناد، ولما آلت السلطنة إلى المنصور حسام الدين لاجين سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م كانت الإقطاعات قد اضطربت منذ عهد السلطان خليل بن قلاوون فأمر لاجين بمسح البلاد المصرية للمرة الأولى في دولة المماليك وللمرة السادسة في تاريخ مصر، حيث عرفت "بالروك الحسامي" ويرجع السبب في قيام هذا المسح بسبب ما لحق الأجناد من غبن جراء ما يأخذه الأمراء من أقطاعاتهم، الأمر الذي لم يرضى الأمراء عنه، عندما جعل للأمراء والأجناد أحد عشر قيراطاً ووزع عشرة منها، وأبقى القيراط الحادي عشر لزيادة إقطاع من يتضح فيما بعد أنه قد حاق به شيء من الغبن. وجعل للسلطان أربعة قراريط، وخصصت القراريط التسعة، الباقية ليكون بها فرقاً جديدة في الجيش(٣). ويعد هذا الروك من أحد الأسباب التي دفعت الأمراء إلى قتل السلطان لاجين ونائبه منكوتمر.

أما الروك الثاني في تاريخ دولة المماليك والسابع في تاريخ مصر الإسلامية، فكان سنة ٧١٥هـ/١٣١٥هـ حين شرع السلطان الناصر محمد بن قلاوون في العمل به والذي عرف بالروك الناصري"(٤)، والذي جعل فيه حصة الأمراء والأجناد أربعة عشر قيراطاً، بعد أن كانت إحدى عشر وخصصت العشرة قراريط الباقية للسلطان ومماليكه. ومما ذكره المقريزي عن هذا الروك بأن الناصر لم يراع الدقة في توزيع المثالات بحيث أنه كان يعطي المثال كيفما وقعت يده عليه، كما أن إحجام الأمراء أيضاً عن تبليغ السلطان بإستياء الأجناد من هذا الروك وما لحق بعض أتباعه من التعذيب على أثر إبلاغ مولاه أمر هذا الإستياء.

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٣٧٩.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١، ص ٢١٨.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ٢٨٩-٢٩٠.

(4) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٩، ص ١٧٧.

وقد وزعت بعض إقطاعات الأمراء والجند من خلال الروك الناصري في أماكن متباعدة إضعافاً لهم وإتعاباً للجندي وتكثيراً للتكلفة وذلك لضمان السلطة بين يدي السلطان، ويعد هذا العمل من تدبير الأقباط ومكرهم وقد قربهم الناصر إليه، وهكذا فقد عمت الفوضى وساد الفساد فيما بعد في آلية توزيع الإقطاعات على الأمراء والأجناد حتى أنه بين الفنية والأخرى كانت تخرج من قصر السلطان تجريدة أو مرسوم لإقطاعات جديدة للأمراء المقربين والجنود[1].

إن سوء إدارة الإقطاع من قبل السلطان قد أضر كثيراً ببنية الجيش المملوكي وخاصة أجناد الحلقة عصب الجيش وقوته الضاربة وذلك بسبب استيلاء السلطان نفسه وأمراء الدولة على معظم دخل الإقطاعات، حتى أن إقطاع السلطان كان قد وصل إلى نصف خراج مصر[٢]. الأمر الذي أدى فيما بعد إلى تدهور النظام العسكري المملوكي جراء تلك السياسة.

أما الرواتب فقد كانت تسمى جاميكيات، وقد كان لها ديوان يقوم بصرفها، وهي ما تعرف بالرواتب الجارية في كل يوم أو كل سنة من اللحم والتوابل والخبز والشعير والزيت والشمع والسكر[٣].

وقد كانت الرواتب تصدر بمنشور سلطاني يحدد فيه الرواتب والطعام والعليق والخيل والملابس وكافة التعويضات المستحق لعامة أفراد وضباط الجيش[٤].

لم يحصل المملوك طوال فترة إقامته في الطباق على راتب معين إلا بعد تخرجه، وقد كان يتراوح بين ثلاثة وعشرة دنانير فضلاً عما كان يستحصل عليه من الطعام المجاني[5]. أما عن الرواتب السنوية أو مخصصات الأمراء من مستغلات الإقطاعات التي كان يتقاضاها الأمراء والجنود في الجيش المملوكي سنوياً حسب رتبهم فهي على الشكل التالي:

- أمير مئة ومقدم ألف من ثمانين ألف إلى مائتي ألف دينار.
- أمير طبلخانه من ثلاثة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألف.
- أمير العشرين والعشرة يصل حتى تسعة آلاف دينار.
- مقدم حلقة الأجناد يصل حتى ألف وخمسماية دينار.
- الجندي لا يتجاوز راتبه مائتي وخمسين ديناراً.

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص ١٦٩-١٧٠.

(2) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٤، ص ١٣٩و١٧٨.

(3) ابن آياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٤، ص ٣٦٩-٣٧٠.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٥٢.

(5) المقريزي، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٣٧٤.

- أولاد الأمراء ويخصص لهم راتباً من لحظة ولادتهم[١].

لا يتلقى المملوك الكتابي أي راتب أو تعويض أو سلاح خلال فترة تدريبه أو تعليمه، لكنه وفي حالة استثنائية فإنه يتقاضى راتباً عندما تسود البلاد أزمة سياسية، يأمر خلالها السلطان بتخريج المماليك من الطباق قبل إنهاء فترة تدريبهم ويلحقهم بالقطاعات المقاتلة[٢].

أما في الحالات التي كان يقطع فيها الراتب عن الجندي هو في حال غيابه دون إذن أو مبرر رسمي عن مدة غيابه[٣]. كما كان يقطع جزء من الراتب في حال حصوله على إقطاع فإذا كان راتبه ألف دينار أقطع منه بعد ثلاثة أشهر بحيث يحسم من الراتب أجرة ربع سنة أي مائتان وخمسون ديناراً[٤].

عند إعلان الحرب كانت الدولة المملوكية تقوم بالدفع إلى كل عسكري ومن مختلف الرتب منحة مالية وذلك للمهمة المكلف بها أفراد هذا الجيش، فقد كان يعطى أمراء الألف مبالغ كبيرة ومن بعدهم أمراء الطبلخانات ثم أمراء العشروات ثم الخمسوات ثم الجنود لشراء كل ما يحتاجه الجندي، وقد ظهر ذلك التفاوت واضحاً وكبيراً بين الأمراء والجنود من هذه المنح، وعند إلغاء التجريدة أو تدبير الحرب فكان على الجنود الذي استلموا تلك المنحة أن يردوها بأمر من السلطان بشكل كامل أو جزء منها، وفي حال قام أحد من الجنود والأمراء بصرف شيئاً من المنحة فإن ما كان قد صرف كان يقطع من راتبه [٥].

إن تلك المنحة التي كان يمنحها السلطان لأفراد جيشه للتزود والتمون وهو في طريقه إلى معركة ما، وفي حال كان مسيره طويلاً فإنه سيصاب بنكسة في حال امتنعت المناطق التي سيمر بها عن إعانته أو تزويده بما يحتاج، ولا يمكن للجيش أن يغامر في هكذا أمر إلا إذا كان واثقاً من مساره وما يمكن أن يتوقعه في هكذا أمر.

إن إستراتيجية الجيش المملوكي في ذلك الزمن كان تحتم عليه أن يجر وراءه ذيلاً إدارياً، أو ما يسمى اليوم دعماً لوجستياً يكون حاضراً ومكتمل التجهيزات، لأنه وبمجرد تفكير المقاتل بطعامه وسائر احتياجاته العسكرية سيحرفه عن مهمته القتالية المكلف بها، كما أن ضمان الطرق والمحطات التي يتحرك بها الجيش ويتمون منها بحرية وأمان تخفف عنه عبأً كبيراً في حماية مؤخرة الجيش حيث تكون مخازنه المتنقلة معه.

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ٥٢.

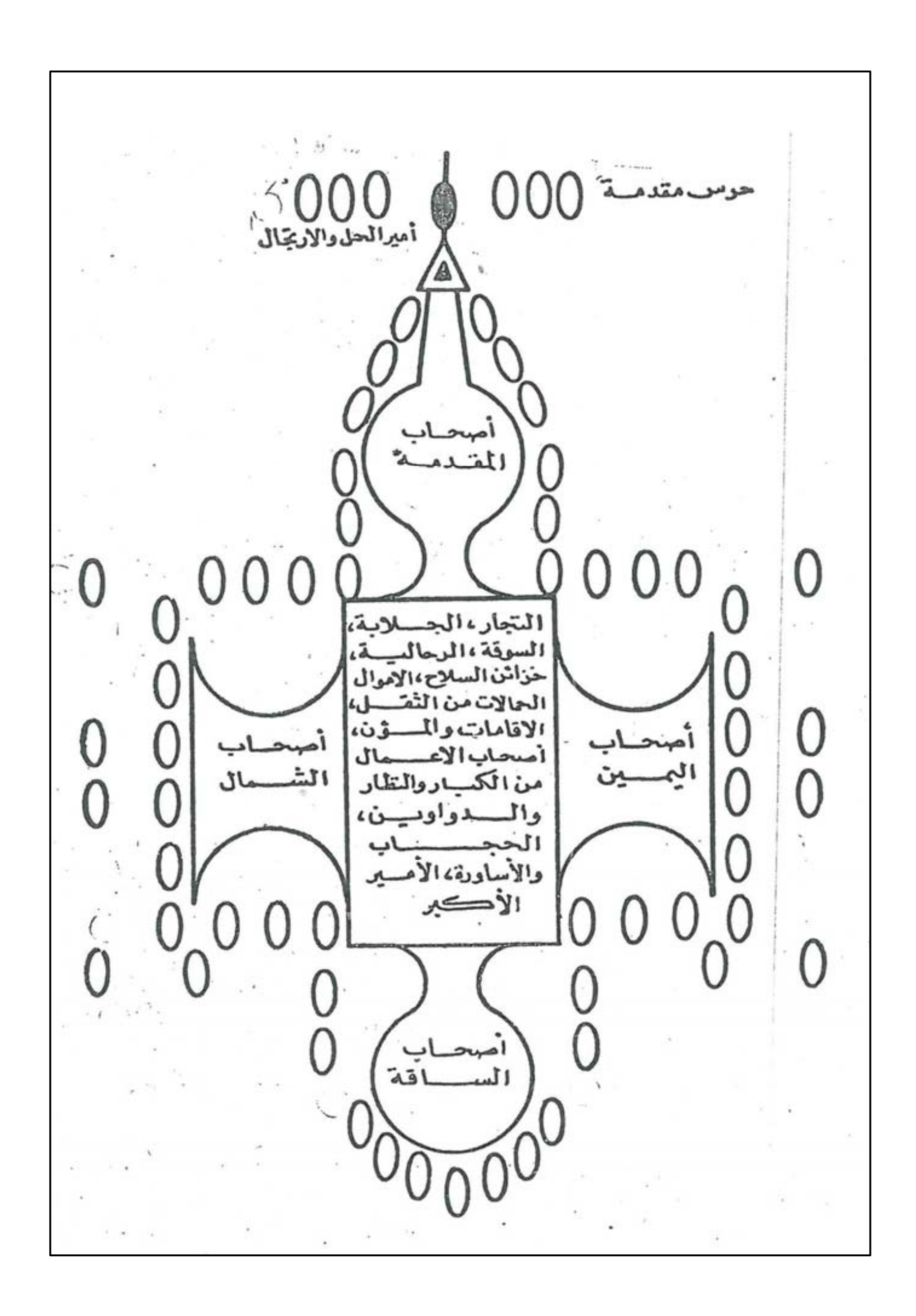
(2) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١١، ص ٢٦٧.

(3) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣، ص ٢٤.

(4) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٢١.

(5) ابن أياس، المصدر السابق، ج٣، ص ٨ و٢٢.

نظام مسير الجند إلى الحرب يرافقه ذيلاً تموينياً وإدارياً[1]



(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ١٦٦.

عند إعلان الحرب فالواجب الشرعي يلزم كل قادر على حمل السلاح أن يلتحق بالجيش وأن يلبي نداء السلطان، إلا أنه كان هناك بعض المتخلفين لأسباب قاهرة يضطرون للتخلف، وفي هذا الصدد على المتخلف عن القتال دفع غرامة مالية يدفعها نقداً، وهذه المبالغ التي اختلف مقدارها من زمان إلى آخر كانت تصرف لصالح الجيش الذي خرج للقتال(١).

ومن ضمن النفقات التي كانت تصرف على الجيش أيضاً، راتب تقاعدي الذي كان يمنح بسن معين للأمراء أو الجندي الذي لم يعد في حالة تسمح له الاستمرار في العمل، وكان يلتمس من السلطان أن يجعله "طرخاناً"(٢)، ويعين له مبلغاً من المال، ولما مسح السلطان الناصر محمد بن قلاوون الأراضي المصرية عام ٧١٥هـ/١٣١٥م، جعل جهة مكس إقطاعاً لضعفاء أجناده الذين لا يستطيعون الاستمرار في العمل وجعل لكل منهم ثلاثة آلاف درهم(٣).

المبحث السادس: الأشغال والهندسة العسكرية:

يعتبر هذا الجهاز والذي يتألف من العديد من المهندسين والنجارين والبنائين الداعم الحيوي للجيش المملوكي في التمهيد للعمليات العسكرية، فهو المسؤول عن تمهيد الطرق للجيش أثناء مسيره في أي مهمة كان قد كلف بها، ومن أعماله شق الطرقات وصيانتها ومد الجسور فوق الأنهار وإصلاح القلاع وإنشاء السدود(٤)، ومن أعماله أيضاً بناء الأسوار وإنشاء المستودعات للأسلحة والذخيرة وتشيد الأبراج المخصصة للمراقبة البحرية(٥)، وحفر الآبار وجر المياه عبر السواقي(٦)، ويعمل كل هذا من أجل الجيش وضمان تحركه كي لا يعترضه أي شيء يعيق تحركه أو مسيرته. وقد كانت تستخدم الآلات والجرافات والقطاعات للقيام بما تم ذكره من أعمال، كما تم صنع الآلات هندسية بأشكال مختلفة لاستخراج المياه أو الحفر وتعميق الخلجان(٧).

يشرف على هذه الأعمال والمنشآت القائد الأعلى أو القائد العام للجيش فيجري التفتيشات المفاجئة على الجسور والأبراج والأسوار والقلاع والحصون للتأكد من متانتها وقوة بنائها ويعطي التوجيهات اللازمة بهذا الخصوص كما أنه يحضر أي القائد العام أعمال تدشين كافة المشاريع

---

(1) الهمذاني، جامع التواريخ، ج٢، ق١، ص ٢٣٨.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٥٢.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص ١٧٠.

(4) الدواداري، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ج٩، ص ٨٠-٨١.

(5) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ٣١، ٣٢.

(6) الشهابي، الضرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان، ص ٤٣٩.

(7) الناصري، الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب، ص ٢٨٢-٢٨٧.

المخصصة للجيش[1]، ويعود لجهاز الأشغال والهندسة الدور في بناء الطباق وكافة المنشآت العسكرية الخاصة بالجيش المملوكي[2].

المبحث السابع: وسائل النقل والمواصلات:

استخدمت الدولة المملوكية في حروبها كافة الوسائل المتاحة لأعمال نقل العتاد والسلاح والمؤن أسلحة الحصار والمدافع والمراكب[3]، وقد كانت الجمال إحدى وأهم وسائل النقل في حينها لما تتحمله في سفرها الطويل من الصبر على الطعام والشراب، وقد أطلق عليها المماليك الهجن وكانوا يعولون عليها في الحروب بشكل واسع[4]، في حين أنه لم يستخدم الخيل إلا في الحروب والسباق والاستعراضات، وباقي الدواب كالبغال والحمير والإكديش استخدمت أيضاً في وسائل النقل.

أما طرق المواصلات فلها أهمية كبرى للجيش خلال تحركه داخلياً وخارجياً سواء أكان داخل مصر وخارجها، والطرق هي عبارة عن محاور يستخدمها الجيش في كافة الاتجاهات للتنقل السريع وللإمداد الذي يحتاجه، وللجيش مؤخرة التي تحمل بعض المؤن والعلاف ولا تعود هذه المؤخرة إلى قاعدة الإمداد الرئيسية من حيث انطلقت كما تموّنت مؤخرة الجيش من عكا أثناء توجهه إلى عين جالوت[5]، لذلك فإن تأمين وسائل نقل جيدة وسريعة، واستحداث طرق مواصلات سهلة هي من أهم الركائز التي يستند عليها الجيش لبلوغ النصر.

عدا عن طرق المواصلات داخل مصر، فقد كان هناك طرق خارجية تمتد عبر الأراضي الفلسطينية إلى غزة ثم إلى عين جالوت عبر الساحل، وطريق بري آخر يصل مصر بدمشق مروراً بالعريش وغزة، بالإضافة الطرق البحرية والنيلية التي تنقل خلالها البضائع من سوريا إلى مصر إلى ثغر دمياط ليتم نقلها فيما بعد عبر مراكب النيل إلى الداخل المصري.

المبحث الثامن: الخدمات الطبية:

بقدر ما أنفقت الدولة المملوكية على جيشها المال والكساء والطعام والرواتب والإقطاع والإعطيات، فقد كانت حريصة أيضاً كل الحرص على سلامته وتوفير العناية والرعاية الصحية لجميع

---

(1) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٣ ص ١٤٣ أو ج ٤، ص ٢٤٦.

(2) شبولر: برتولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى راجعه سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، طبعة أولى، دمشق، ١٩٨٢، ص ١٠٨و١٣٩.

(3) Gauolefroy. Suppl, P:255.

(4) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٥١٦.

(5) المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص ٥١٦.

أفراد الجيش، وكان أول من اهتم من السلاطين المماليك في هذا الأمر الظاهر بيبرس، حيث اعتنى بهذه المهنة وخصص أطبائها بالرعاية البالغة[(١)].

اهتمت الدولة المملوكية بالطب والطبابة على أوسع نطاق، وقد رافق الجيش بحملاته العسكرية أطباء باختصاصات مختلفة ومتنوعة كالجراحين والصيادلة وأطباء العظام، ومعهم كافة المعدات والتجهيزات الطبية التي كانت مبتكرة في ذلك الزمن، بالإضافة إلى الأدوية ونقالات الجرحى، ومن الطبيعي أن تقام المراكز الطبية والمستوصفات الميدانية داخل خيم وبعيدة نوعاً ما عن ميدان المعارك وفي ظل حماية شديدة لتتم عملية إسعاف المصابين بعناية وبعيداً عن أنظار ومرمى العدو، وحدث مرة أن كسرت قدم الظاهر بيبرس وهو على فرسه سنة ٦٦٤ هـ/١٢٦٦م وقد تمت معالجته داخل إحدى الخيم[(٢)].

اهتم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالطب والأطباء أيضاً، وكان قد بنى بيمارستان في القاهرة ما بين سنتي ٦٨٢-٦٨٤هـ/١٢٨٢-١٢٨٤م[(٣)]، وقد انفق عليه الكثير، وإلى جانب الطب الميداني العسكري كان هناك طب خاص وطب أهلي، فالطب الخاص كان مقتصراً على الملوك والأمراء وقادة الجند حيث لكل واحد منهم عدد من الأطباء المهرة الذين يشرفون على مرض الملك وحاشيته وأولاده[(٤)]. أما الطب الأهلي فكان متطوراً أيضاً وفيه الكثير من الاختصاصات الطبية والعلاجية، كما كانت المشافي والبيمارستانات متوفرة لديه[(٥)].

عرف من الأطباء المشهورين في دولة المماليك فتح الدين فتح الله بن المعتصم بن نفيس الداودي التبريزي الحنفي الذي كان في منصب رئاسة الطب في حينها[(٦)]، وابن أصيبعة الذي كان من كبار وأمهر الأطباء وله مؤلفات كثيرة في هذا المجال، أشهرها طبقات الأطباء[(٧)]، والطبيب رشيدالدين أبو حليقة الذي كان طبيباً خاصاً للملك الظاهر بيبرس[(٨)]، وقد خصص للأطباء الخاصين بالسلطان راتب شهري يقدر بحوالي خمسين ديناراً، ولمن دونهما من الأطباء برسم المقيمين بالقصر، لكل واحد منهم عشر دنانير[(٩)].

---

(1) ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يوسف الخزرجي، (ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٥٨٦.

(2) المنصوري، التحفة المملوكية في الدولة التركية، ص ٥٩.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص ١٢٠. المنصوري التحفة المملوكية في الدولة التركية، ص ١١١.

(4) العبادي، قيام دولة المماليك في مصر والشام، ص ٥٦.

(5) عيسى: أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٣٩ م، ص ١١-١٢.

(6) الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٤، ص ١٢٢، المقريزي، المواعظ والإعتبار، ج٣، ص ١١٥.

(7) الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص ٣٧٨.

(8) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٥٩٠-٥٩١.

(9) المقريزي، المواعظ والإعتبار، ج٢، ص ٢٧٨.

استنتاجات:

يعتبر الجهاز الإداري في الجيش المملوكي، المنظم الفعلي والعملي لأداء الجيش في أوقات الحرب والسلم على السواء، فهو المسؤول عن تأمين كل ما يحتاجه المقاتل من الطعام والشراب والكساء والسلاح والرواتب والعناية الصحية وتعويض نهاية الخدمة، وبقدر ما يكون هذا الجهاز منظماً ونشطاً ويلبي متطلبات وحاجات الجيش على أكمل وجه، بقدر ما يكون الجيش متماسكاً وصلباً في أداء المهمات الموكلة إليه.

تعتبر مصادر التمويل بالنسبة للجهاز الإداري إحدى أهم الركائز التي يستند عليها للاستمرار بمهامه، خاصة حينما يتعلق الأمر بالجيش الذي هو بمثابة صمام الأمان للدولة المملوكية وعلة وجودها، وجرياً على ما كان متبعاً من الخطط والأساليب حول مسير الجيوش إلى ميادين المعارك فقد كان يرافق الجيش ذيلاً إدارياً كبيراً في حال كانت المعركة بعيدة عن مخازن الإمداد الرئيسية، حيث كان يسير في تشكيل يؤمن له الحماية الكاملة من كافة الجهات، إلا أن من سلبيات ذلك المسير المثقل بالمؤون والإمداد، هو إذا ما تعرض الجيش لخسارة ما أو انكفاء فإن ذلك سيشكل عبئاً كبيراً عليه في كلتا الحالتين، هذا فضلاً عن ثقل حركته أثناء المواجهة نظراً للمسؤولية الملقاة عليه في إداء دوره القتالي من جهة، وتأمين حماية الذيل التمويني من جهة أخرى. لذلك فإن لجوء الجيش المملوكي إلى سياسة عسكرية تقتضي بالاعتماد على المحطات أثناء مسيره للتزود بالمؤون، أو أن يكتفي الجيش بما يحمله من مواد خفيفة وضرورية لحاجاته، وبالطبع يعود ذلك إلى تقدير القيادات العليا وتقييمها لحجم ومتطلبات المعركة قبل الإقدام عليها.

الفصل الثامن

أهم المعارك التي خاضها الجيش المملوكي

مقدمة

المبحث الأول: حروب الإسترداد المملوكية للمدن والإمارات الإفرنجية

١- جبهة الفرنجة في عهد الظاهر بيبرس

أ- تحرير مدينة أنطاكية

ب- تهديد بيبرس طرابلس الشام

٢- جبهة الفرنجة في عهد أسرة قلاوون

أ- تحرير حصن مرقب

ب- تحرير حصن مرقية

ج- تحرير برج اللاذقية

د- تحرير مدينة طرابلس

هـ- استعداد قلاوون لتحرير عكا

و- تولي الأشرف خليل بن قلاوون الحكم وتصميمه على فتح عكا

المبحث الثاني: إستراتيجية المماليك في مواجهة المغول

١- قطز في مواجهة المغول في عين جالوت

٢- جبهة المغول في عهد السلطان الظاهر بيبرس

أ- معركة البيرة

ب- معركة إبلستن

٣- جبهة المغول في عهد أسرة قلاوون

أ- تحرير ثغر(الكختا)

ب- تحرير قلعة قطينا

ج- الإغارة على بلاد سيس

د- تحرير قلعة الروم

هـ- معركة وادي خزندار

و- معركة عرض

ي- معركة شقحب

المبحث الثالث: مواجهة المغول في عصر دولة المماليك الثانية

١- المماليك الجراكسة يحررون قبرص ويغزون رودس

٢- الحرب المملوكية العثمانية

أ- معركة مرج دابق

ب- معركة الريدانية وسقوط دولة المماليك الثانية

٣- الأسباب التي ساهمت في سقوط دولة المماليك

استنتاجات

الفصل الثامن
أهم المعارك التي خاضها الجيش المملوكي

مقدمة:

تعرض المشرق العربي الإسلامي لخطرين خارجيين ألا وهما الإفرنجي والخطر المغولي، وقد عملا منفردين ومعاً على ضرب وتقويض دعائم الحضارة العربية الإسلامية. وقد تصدى لهذين الخطرين السلاطين والأمراء من غير العرب، فتولى الأتابكة الأتراك ثم الأيوبيون الأكراد مواجهة الخطر الصليبي، في حين تولى المماليك الأتراك مهمة مواجهة المغول والفرنجة في آن معاً.

وهكذا فقد وقع على عاتق المماليك الذين أسسوا دولتهم في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م،مهمة مواجهة الخطرين الفرنجي والمغولي، فحطموا أسطورة المغول في عين جالوت، وأجبروا الفرنج على الجلاء النهائي عن المنطقة[1].

المبحث الأول: حروب الاسترداد المملوكية للمدن والإمارات الإفرنجية:

بانتهاء الحملة الصليبية السابعة التي اقترنت أحداثها بنهاية الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية والتي عملت هذه الأخيرة على دفع أخطار شديدة عن مصر بصفة خاصة والإسلام بصفة عامة، حيث أخذت تظهر للعلن سياسة الحزم التي انتهجها القادة المماليك ضد الفرنج بدءاً من معركة المنصورة وانتهاءً بآخر معقل لهم في بلاد الشام.

أبحر لويس التاسع وأتباعه من عكا سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م وهو يجر وراءه أذيال الخيبة والهزيمة التي تلقاها هو وجنوده على أيدي الجيش المملوكي ولقد تلت الفترة بين رحيل لويس التاسع إلى تولي الظاهر بيبرس السلطنة على مصر والشام أن ساد الهدوء والمسالمة بين الصليبيين والمسلمين بسبب انشغال كل فريق منهم بمشاكله الداخلية، حيث كانت الدولة المملوكية في طور التأسيس وتثبيت دعائمها، إلا أن هذا الهدوء لم يلبث أن تبدل تماماً في عهد الظاهر بيبرس وخلفائه، فنجد أن الإستراتيجية العسكرية المصرية نحو الفرنج في الشام قد أخذت طابع العنف والقسوة وذلك لتعاون الفرنج مع مغول فارس ضد المماليك الذين كانوا قد اجتاحوا الشرق الإسلامي.

عمل الفرنجة كإدلاء ومرشدين لجيوش المغول المغيرة على الأراضي الإسلامية، ولم يقتصر الأمر على لذك إنما سمحوا لعدد كبير من الحاميات المغولية أن تفرض إرادتها على الصليبيين،

(1) اشبارو، السلاطين في المشرق العربي، ص ٣٣.

وصارت تملي عليها إرادة الخان المغولي في تبريز، فكان من الطبيعي والحالة هذه أن ينتهج المماليك إستراتيجية القوة والعنف ضد الفرنج، وإلى المضي قدماً في سياسة حرب الاسترداد لجميع المدن والمعاقل التي استوطنها الفرنج وطردهم نهائياً من المشرق العربي[١].

ما إن اطمأن الظاهر بيبرس إلى تماسك جبهته الداخلية، وجهوزية جيشه من عدة وعتاد اتجه ببصره إلى القوى المتربصة شراً بدولة المماليك الناشئة، وتطلع إلى أن ينهض بمسؤولية الدفاع عنها وعن الإسلام، ولم يكن هناك أشد خطراً فيها من الفرنجة والمغول حيث قاد ضدهما وخلفائه من بعده حروباً لا هوادة فيها ولا رحمة، ومعتمداً في الوقت عينه على سياسة المهادنة مع بعض أطراف النزاع ليتفرغ إلى قتال آخر حيث تدعو المصلحة العامة للدولة.

١ - جبهة الفرنجة في عهد الظاهر بيبرس:

اتبع بيبرس إستراتيجية عسكرية قائمة على ضرب الإمارات والمدن الصليبية الواحدة تلو الأخرى، متبعاً بذلك في استخدام أسلوب الخرشوفة[٢]، على نحو خطط القضم التي تنفذها الجيوش الحالية، تفادياً لاستخدام الجيش على نطاق واسع اقتصاداً للقوى والجهد والمال.

كانت أولى الضربات التي سددها بيبرس إلى"بوهيمند السادس"عبر تحرشه بإمارة أنطاكية سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م، فأرسل الأمير شمس الدين سنقر الرومي للإغارة على المدينة، التي كادت أن تسقط لولا النجدة المغولية الأرمنية المشتركة التي قادها "هيثوم" فاضطر الجيش المملوكي إلى فك الحصار[٣].

شارك الظاهر بيبرس جنوده في حصار القلاع والحصون، وفي نصب آلات الحصار ويعلمهم طرق ومبادئ الحصار، وقد كان قدوة لجنوده، حيث أنه كان يقتحم الصعاب ويشق الصفوف أمامهم ويزج نفسه في أتون المعارك بكل شجاعة وإقدام[٤].

فتح الظاهر بيبرس مدناً وقلاعاً كثيرة، أهمها المدن الإفرنجية الحصينة ساحلية كانت مثل يافا وأرسوف وقيسارية وأنطاكيا، أم داخلية مثل طبرية وصفد والقرين والشقيف[5]. وكان قد اتبع في فتحها

---

(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ١٨٢-١٨٣.

(2) الخرشوفة، نوع من النبات يقطعون ورقة كلما سنحت لهم الفرصة إلى أن يبقى الثمار بدون ورقة وجاهز للطهي.
فهيم، المرجع نفسه، ص ١٨٩.

(3) العسلي: بسام، الظاهر بيبرس و اية الحرب الصليبية القديمة، دار النفائس، بيروت طبقة خامسة، ١٩٩٢م، ص ٢٤.

(4) الصفدي، أمراء دمشق في الإسلام، ص ١٩.

(5) الكتبي، فوات الوفات، ج١، ص ٢٤٢.

خطة الجيوش المتلاقية، وحاصرها من جميع جهاتها البرية، ووجه إليها الأسلحة الثقيلة والبعيدة المدى كالمناجيق والسهام(١).

مارس الظاهر بيبرس أسلوب الحرب النفسية أيضاً في حصاره للقلاع والحصون فقد كانت جيوش المماليك تأتيهم من الأماكن التي لا يتوقعونها أبداً كالسراديب والممرات المتخفية، وقد اتبع السرية التامة في تحركاته العسكرية ضد الفرنجة وغيرهم من المغول والأرمن، وكان متميزاً عن غيره من القادة في سرعة التخطيط والتنفيذ واعتماد عنصر المفاجأة، والانقضاض الصاعق، ففي سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥ م تظاهر الظاهر بيبرس بالتلهي في رحلة صيد في التلال الواقعة وراء أرسوف، إلا أنه ظهر فجأة وبصورة مباغتة أمام قيسارية فسقطت على الفور وكذلك فتح حصن شقيف أرنون سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م(٢).

استأنف الظاهر بيبرس حملاته على المعاقل الإفرنجية سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م، فخرج من مصر جيشان مملوكيان، ظهر الأول بقيادة الظاهر بيبرس عند أسوار عكا لفتحها، لكن الكتيبة الفرنسية المدافعة عنها، كانت قد تلقت منذ عهد قريب دعماً أرسله " لويس التاسع" ملك فرنسا، لما اكتشف بيبرس أن الحامية المدافعة عن المدينة قوية، حول هجومه فجأة إلى صفد التي كانت تحت سيطرة فرسان الداوية الذين عرضوا على بيبرس تسليم القلعة له مقابل السماح لهم بالانسحاب إلى عكا دون التعرض لهم بعد عجزهم عن مقاومة الجيش المملوكي المحاصر لها، فتم فتحها دون أي خسائر تُذكر(٣).

أما الجيش الثاني الذي خرج من القاهرة، فكان بقيادة قلاوون الألفي، وقد قام بعمليات عسكرية في منطقة الشمال تمهيداً لإنزال العقاب بمملكة أرمينيا الصغرى وإمارة أنطاكية، وإمارة طرابلس، وقد حرر القليعات وحلبا وعرقة وهي من المراكز الثلاثة التي تحمي طرابلس من جهة الشمال والشمال الشرقي، وشكل تحريرهم تهديداً مباشراً لإمارة طرابلس(٤).

أ- تحرير مدينة أنطاكية:

تابع بيبرس سير حملاته العسكرية وخرج بنفسه من دمشق سنة٦٦٦هـ/١٢٦٨م، قاصداً طرابلس حيث أقام في مخيم جنده في جهتها الشرقية وأخذ في مناوشة أهلها وقتالهم، إلا أنها استعصت عليه فقام بتخريب ربضها وقطع أشجارها وغَوّر أنهارها وهدم كنائسها(٥).

(1) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١٣، ص، ٨٥.
(2) العسلي، الظاهر بيبرس، ص ٢٨-٢٩.
(3) العسلي، المرجع نفسه، ص ٣١.
(4) ابن عبد الظاهر: محي الدين عبدالله بن رشيد بن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، طبعة ثانية، ١٩٧٦م، ص ٢٥١-٢٥٢.
(5) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص٢٤١، المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٤٩.

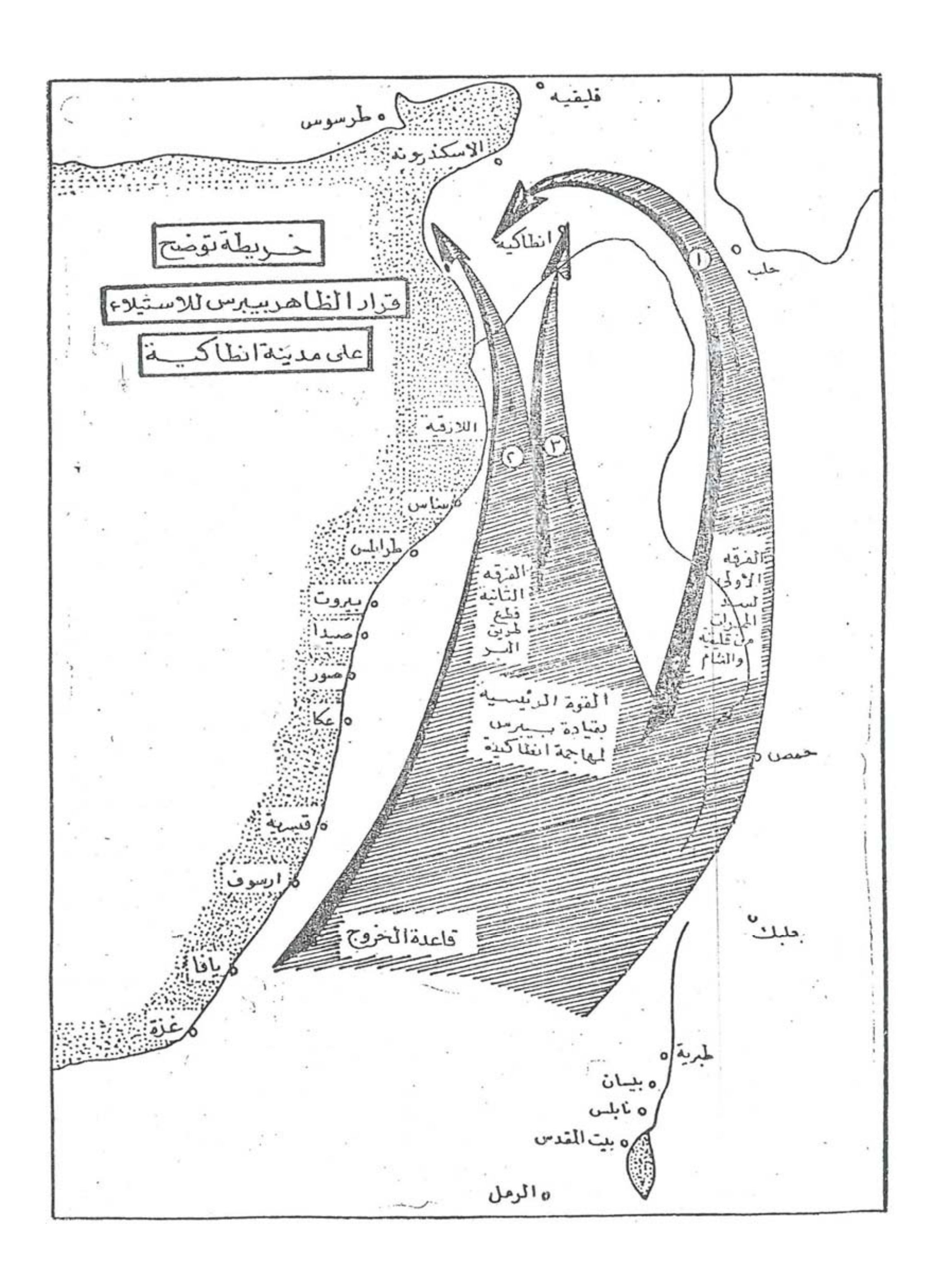
توجه بيبرس إلى حصن الأكراد، ونزل بالبرج الذي تحته، فحضر إليه رسول من الحصن يحمل الهدايا، فردها بيبرس وطلب من أصحاب الحصن مائة ألف دينار دية رجل من أجناده كانوا قد قتلوه ورحل عنه إلى حمص ثم حماه فأفامية، إلا أن بيبرس استعمل خدعة ماكرة مع أمير أنطاكية الذي كان في أنطاكية، فبينما كان بيبرس يحاصر طرابلس، أرسل أهلها إلى أميرهم يطلبون النجدة، علم بيبرس بواسطة جواسيسه بالأمر، فقرر الهجوم المفاجئ على إنطاكية بإتباعه السرية التامة في تحركه، فأمر جيشه أن يتركوا الخيام منصوبة والنيران مشتعلة، لذلك وبينما كان هو بطريقه إلى أنطاكية، كان بوهمند في طريقه إلى طرابلس بحراً[١].

هاجم بيبرس أنطاكيا بثلاث فرق عسكرية واضعاً خطة محكمة للإطباق عليها ومنع وصول الإمدادات إليها، فالفرقة الأولى بقيادة الأمير بدر الدين الخازندار توجهت إلى ميناء السويدية لقطع الاتصال بين إنطاكية والبحر، بينما الفرقة الثانية بقيادة الأمير عز الدين إيغان تحركت باتجاه دروب الشام لسد الممرات بين بلاد الشام وكليكيا، وأيضاً لمنع وصول إمدادات أرمينية من كيليكيا لنجدة المدينة، في حين أن الفرقة الثالثة هي بقيادة السلطان بيبرس وهي القوة الضاربة لتدمير العدو والقضاء عليه مركزها القلب[٢].

(1) رنيسمان: ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧ م، ج٣، ص٥٥٧.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٤٩.

خارطة توضح سير العملية العسكرية لتحرير إنطاكية[١]



(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ١٨٦.

في ظل غياب بوهمند السادس تولى الكونت سيمون مانسل الدفاع عن إنطاكية[١]. ولم تكن تلك الحامية من حيث العدد تستطيع أن تحمي كافة أسوارها ولم يكن سيمون من حيث الخبرة العسكرية قادراً على مواجهة المماليك، فقد خرج من المدينة لملاقاة الجيش المملوكي خارجها إلا أنه وقع في الأسر، فاستخدمه بيبرس وسيلة لإجبار المدينة على الإستسلام لكن المفاوضات حالت دون ذلك الأمر الذي دفع الجيش المملوكي إلى اقتحام المدينة من جميع المنافذ المؤدية إلى داخلها فسقطت وغنم المسلمون غنائم وافرة من النقود والأسرى[٢]. وقسمت النقود بالطاسات فلم يبق غلام إلا وله غلام وبيع الصغير بإثنى عشر درهماً والجارية بخمسة دراهم، وأقام السلطان يومين وهويباشر قسمة الغنائم[٣].

عرض المغول بقيادة "أبغاخان" المساعدة على الفرنجة بناءً على طلب الأمير بوهيمند السادس، فأمدهم بعشرة آلاف مقاتل مغولي إلا أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً أمام قوة المماليك الصاعدة[٤].

أظهرت خطة الهجوم على إنطاكية مدى ما وصل إليه الفن الحربي من رقي للإستراتيجية العسكرية المملوكية ودقة التخطيط والتجهيز للمعركة.

ب- تهديد بيبرس طرابلس الشام:

بعد الانتصار الذي حققه الظاهر بيبرس في إنطاكية ساد الذعر جميع المدن والقلاع التي ما زالت بيد الإفرنج، وقد أخذ يمارس سياسة الترهيب وإلقاء الرعب في نفوس المجتمع الإفرنجي عامة، وقد ظهر ذلك جلياً لا سيما بعدما فتح بيبرس حصن عكار وصافيتا سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١ م آخر الحصون الأمامية عن كونتية طرابلس، وأصبح الطريق ممهداً لفتحها، حيث عمل بيبرس على توجيه رسالة إلى بوهميند السادس وينذره، وحمل أحد فرسان الإسبتارية رسالة شفوية يقول فيها " أين تروح مني، والله لا بد أن أخذ قلبك وأشويه وأنت تنظر، وما ينفعك أبغا بن هلاوون".

أحدثت هذه الرسالة ذعراً شديداً لدى بوهميند فامتنع عن الخروج من المدينة وهو الذي كان مولعاً بالركوب والصيد،وعندما بلغ ذلك بيبرس زاد من تهكمه له وسير إليه غزلاناً مذبوحة وضبعاً حياً ورسالة يقول له فيها: " لما اتصل بنا امتناعك من التصرف خوفاً على نفسك وهجرانك للصيد الذي هو غاية مرامك، بعثنا إليك نصيباً من الإجحاف بك والميل عليك"[٥].

---

(1) رنيسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص ٥٥٧.

(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٣٠٧-٣٠٩.

(3) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٥٠.

(4) العلبي: أكرم حسن، معارك المغول الكبرى في بلاد الشام، دار المأمون للتراث، دمشق، طبعة أولى ١٩٨٨م، ص ٣٨-٣٩.

(5) الدوداري: أبو بكر عبدالله ابن أيبك، الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرح مارمان، القاهرة، ١٩٧١م، ص ١٥٧-١٥٨.

لقد بدا واضحاً بعد الانتهاء من حصن عكار، أن بيبرس أصبح جاهزاً للسير نحو طرابلس لفتحها، فانحدر بعساكره إلى المرج (سهل عكار) وأخذ يفتح القرى الواقعة في طريقه(1)، وأثناء حصاره لطرابلس أبلغ بيبرس عن وصول حملة إفرنجية جديدة إلى عكا بقيادة إدوار الأول ملك إنكلترا، قرر حينها بيبرس تأجيل فتح طرابلس وأجاب لطلب بوهميند السادس إلى طلب الصلح وعقد هدنة مدتها عشر سنوات(٢)،والجدير بالذكر أنه وأثناء المفاوضات بين رسل بيبرس وبوهميند السادس، أن بيبرس نفسه كان مندساً بين أعضاء الوفد الممثل لبلاده ومتنكراً في زي خادم لكي يتاح له حرية التنقل بين حصون طرابلس ومعرفة مواضع القوة والضعف فيها تمهيداً لفتحها فيما بعد، وكان من أحد شروط الهدنة أو الصلح أن موت أحد الطرفين المتعاقدين ينقض ما أبرم من صلح بينهما واستمر الوضع على حاله إلى وفاة بيبرس(٣).

٢- جبهة الفرنجة في عهد أسرة قلاوون:

لم يبق للصليبيين في عهد قلاوون من المدن سوى المرقب ومرقية واللاذقية وطرابلس وعكار، وبعض المدن الصغيرة في ساحل لبنان، وإذا كان قلاوون قد تريث في إنزال ضربته ضد القرى الإفرنجية الموجود في بلاد الشام، فإنما اضطره لذلك الغزو المغولي الذي حصل أوائل حكمه، ولرغبته أيضاً في الاستفراد بكل عدو على حدى، يضاف إلى ذلك أنه كان يفتقر إلى أسطول بحري للإستناد إليه في محاربة المدن الإفرنجية الساحلية، وهذا ما جعله يجدد المعاهدات مع هذه المدن منتظراً الوقت المناسب للتصدي لها(٤).

بدأ الاحتكاك بين قلاوون والإفرنج سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، حين كتب قلاوون إلى سيف الدين بلبان الطباخي نائب حصن الأكراد بغزو الإفرنج في المرقب، وذلك بسبب مساعدتهم المغول عندما هاجم هؤلاء حلب، ولكن هذه الغزوة لم تكن لصالح المسلمين، إذ انتصر الإفرنج عليهم. فما كان من قلاوون إلا أن خرج بنفسه سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م من مصر، وسرعان ما أذعن الإفرنج للصلح وطلب الهدنة عندما أدركوا من جدية قلاوون في المواجهة، ونظراً لانشغال قلاوون في مواجهة المغول فقد قبل بتوقيع الهدنة مع مقدم الإسبتار وسائر الإسبتارية بعكا لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشر أيام وعشر ساعات(5).

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢ ص ٤٤٨. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٧٠.

(2) المقريزي، المصدر نفسه، ج٢، ص ٧٠.

(3) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ١٨٩.

(4) M. Michaud: Histoires des croisades ,Paris.1828,vol5.p148.

(5) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ١٣٧-١٣٩.

أ- تحرير حصن مرقب:

كان السلطان المنصور قلاوون يتحين الفرصة لتحرير هذا الحصن لأهميته الإستراتيجيةخاصة وأن أهله قاموا بأعمال توجب نقض الهدنة التي أبرمت سابقاً، ولم يتراجعوا عن أعمالهم المناقضة للإتفاق، فأخذ في تجهيز عساكره وأدوات الحصار في كل من مصر وبلاد الشام بطريقة سرية حتى أنه خرج من مصر دون أن يدري أحد إلى الهدف من خروجه(1)، وهو يريد بذلك مباغتة العدو، وفي سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م، حاصرت قواته هذا الحصن ووجهت المناجيق عليه وأحدثت ثقوباً عديدة به، عندها طلب الإفرنج الصلح والإستسلام، فقبل قلاوون ذلك مع الإبقاء على هذا الحصن لمنعته وموقعه المهم، واشترط على أهله أن يخرجوا منه دون سلاح(٢).

ب- تحرير حصن مرقية:

استشار قلاوون امراءه ومقربيه في تحرير حصن مرقية، لأن بقاءه يشكل خطراً على المسلمين، وقد ظهرت مشكلة أمام قلاوون نتيجة لموقع هذا الحصن الاستراتيجي المنيع في قلب البحر، إذ رأى أن السيطرة عليه تكون بحسن السياسة وليست بقوة الجيش " إن افتتاحه بجنود التدبير لا بالجنود"(٣) فأرسل السلطان قلاوون إلى صاحب طرابلس كتاباً طالباً فيه أن يهدم هذا الحصن كونه هو الذي بناه أوساعد في بنائه(٤)، وإلا اضطررنا لأخذ قسم من بلادك، أدرك حينها صاحب طرابلس مدى جدية تهديد قلاوون له، فأوعز إلى صاحب الحصن بتسليمه، فتم ذلك بواسطة الإبرنس صاحب طرابلس سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م دون إراقة نقطة دم(٥).

ج- تحرير برج اللاذقية:

يقع هذا البرج وسط البحر حيث يشكل خطراً كبيراً على سواحل بلاد الشام عامة، أرسل قلاوون سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، الأمير حسام طرنطاي على رأس جيش كبير مجهز بالمناجيق لهدم هذا البرج، وقد مد إليه جسراً من الحجارة يصله إلى الأماكن المثقوبة بفعل ضربات المناجيق، فرأى أهله

---

(1) ابن عبد الظاهر محي الدين عبدالله بن رشيد الدين (ت٦٩٢هـ/١٢٩٦م)، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهر، طبعة أولى١٩٦١م، ج١، ص ٧٧.

(2) أبو الفداء: الملك المؤيد تقي الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة الرابعة، دون تاريخ، ج٤، ص ٢١.

(3) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ج١، ص ٨٧.

(4) M. Michaud: Suppl, Vol5, P:153.

(5) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ج١، ص ٩٠.

أنه ليس من مصلحتهم المقاومة ففضلوا الاستسلام بشروط، هو أن يخرجن بأمان على حياتهم وأموالهم، وأن يتركوا ما به من سلاح، ثم بدأت عملية هدمه حتى أزيل من الوجود[١].

د- تحرير مدينة طرابلس:

بعد سقوط المرقب ومرقية واللاذقية في يد قلاوون والتي كانت تشكل إزعاجاً لتحركات الجيش المملوكي، وجه جهده واهتمامه نحو المراكز الكبيرة التي مازالت في أيدي الصليبيين مثل طرابلس وعكا، وكان لا يتردد أبداً في مهاجمة أية قوة كبيرة إفرنجية إذا سمع أنها خرقت الهدنة المعقودة معه وهذا ما حصل مع طرابلس إذ جاءه كتاب سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م.، من نائب الشام يقول فيه بأن الإفرنج نقضوا الهدنة، وأنهم واعتقلوا عدداً من التجار، علماً بأنه لما ملك السلطان قلاوون قلعة المرقب قد بعثوا إليه هدية وصالحوه على ألا يتركوا عندهم أسيراً ولا يتعرضوا لتاجر ولا يقطعوا الطريق على مسافر، ونتيجة لما حصل في طرابلس فقد قرر السلطان مهاجمتها وتحريرها[٢].

وصل قلاوون إلى جوار طرابلس تتقدمه آلات الحصار والمناجيق في سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م. وطبق عليها الحصار من جهة الشرق لأن البحر يحيط بغالبيتها، وقدم دام حصارها المعزز بالرمي بالمناجيق ليلاً نهاراً طيلة ٣٤ يوماً، حيث نجحت تلك الرمايات في تهديم برج الأسقف الواقع في الركن الجنوبي الشرقي من السور، وبرج الاسبتارية الواقع بين برج الأسقف والبحر مع السور الممتد بينهما[٣]، نتيجة الضغط المتواصل من الجيش المملوكي على طرابلس بالإضافة إلى اضطراب وضعها الداخلي وأمام إصرار قلاوون على فتحها، ففي صبيحة يوم الثلاثاء الواقع في ٤ ربيع الأول ٦٨٨هـ/ الأول من نيسان ١٢٨٩م. اقتحمت جيوش المسلمين المدينة واستولت عليها بسرعة فائقة، وقد قام المهاجمين عقب ذلك بنبش قبر «بوهيمند السادس» المدفون بداخلها، والقوا بعظامه في الطرقات[٤].

ولما انتهى السلطان من تحرير المدينة أمر بهدمها فسويت بالأرض، ثم أمر بإنشاء مدينة جديدة على بعد ميل من شرقها بعيداً عن الشاطئ خشية من تهديد الأساطيل الأجنبية[٥].

وهكذا تم تحرير طرابلس من الإفرنج بعد أن استمروا فيها نحو ١٨٥ سنة، والتي كانت تعتبر من أقوى القواعد الإفرنجية في الشرق، كما كان لسقوطها بيد المسلمين بمثابة ناقوس آخر دق للتنبيه بأن البناء الإفرنجي في الشام على وشك الانهيار التام، ولا عجب أن نرى بعض ما تبقى من القوى

---

(1) ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٤٠.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٢٠٨.

(3) الدوداري، الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية، ص ٣٨٤.

(4) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج ٢، ص ٣٨٠. المقريزي، المواعظ والاعتبار ج٧، ص٣٢١.

(5) المقريزي، المصدر نفسه، ج ٧، ص٣٢٢.

الإفرنجية تستسلم الواحدة بعد الأخرى نهائياً للسلطان والبعض الأخير يلجأ إلى استرضائه وكسب عفوه ووده، فقد استسلمت بعد سقوط طرابلس كل من جبلة وما حولها من حصون(١).

هـ - استعداد قلاوون لتحرير عكا:

هكذا لم يبق أمام قلاوون إلا مدينة عكا الحصينة التي كانت مازالت بيد القوى الإفرنجية في الشرق، ولكنها أصبحت بحكم الساقطة عسكرياً بعد زوال المراكز الإفرنجية الأخرى في بلاد الشام، وأمام نشوة الانتصار في طرابلس، كان قلاوون بحاجة إلى ذريعة أو مبرر لمهاجمة عكا وفتحها، فكان له ما أراد فإذا بأهل عكا ينقضون الصلح المبرم مع قلاوون بقتلهم جماعة من تجار المسلمين داخل المدينة سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م.، وكان مما يبدو أن حكام عكا قد أصابهم الفزع من جراء ذلك فأسرعوا ينتحلون الأعذار ويلتمسون العفو مدعين أن هذا العمل لا دخل لهم فيه وإنما فعله الإفرنج الغرب وأنه ليس برضاهم، فلم تفلح الأعذار والحجج أمام تصميم قلاوون على فتح المدينة، فكتب إلى ولاة البلاد الشامية بأن يجهزوا أنفسهم لحصار عكا(٢). خرج قلاوون من القاهرة ونزل وعسكر بمسجد «تبر». بظاهر القاهرة ولكن ما لبث أن أصابه المرض الذي اشتد عليه وتزايد، فمات في هذا المخيم في ليلة السبت السادس من ذي العقدة سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م(٣)، تاركاً شرف فتح عكا لإبنة الأشرف خليل.

و- تولي الاشرف خليل بن قلاوون الحكم وتصميمه على فتح عكا:

لم يكن لوفاة قلاوون الأب أي أثر في تبدل الموقف السياسي المملوكي في القضاء على ما تبقى من الإمارات الإفرنجية في بلاد الشام، وقد أصر الأشرف خليل على إتمام ما كان قد بدأه والده في إخراج الإفرنج من المشرق العربي نهائياً.

قرر الأشرف خليل المسير إلى عكا لتحريرها، وقد حاول بارونات عكا إرسال وفد محملاً بالهدايا إلى القاهرة لإقناع الأشرف خليل في العدول عن موقفه اتجاه عكا، فما كان منه إلا أن رفض مقابلة الوفد وقام بحبسهم(٤).

خرج الأشرف خليل من القاهرة في صفر ٦٩٠هـ/شباط ١٢٩١م، في طريقه إلى دمشق وأرسل في الوقت عينه إلى كل ولاة الشام بإمداده بكل وسائل النقل لنقل الذخائر والجنود. احتشدت الجيوش عند قلعة الحصن في جبال الساحل الشامي ثم انضم إليها جيش مصر الذي خرج به الأشرف خليل من القاهرة(5). انضمت أربعة جيوش يقودها السلطان، جيش دمشق يقوده الأمير حسام الدين

---

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٢١١.

(2) ابن الفرات، تاريخه، ج٨، ص٩٣.

(3) المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص ٢١٧.

(4) العسلي، الظاهر بيبرس و اية الحروب الصليبية القديمة، ص ١١٠.

(5) الشيال: جمال الدين، تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.ج ٢، ص ١٦٨.

لاجين، وجيش حماه يقوده المظفر تقي الدين وصحبه المؤرخ أبو الفداء[1]، كما خرج جيش من طرابلس يقوده سيف الدين بلبان الطباخي[2]، أما الجيش الرابع فقد كان من الكرك وعل رأسه المؤرخ الأمير بيبرس الدودار[3].

وصل الجيش المملوكي إلى عكا في ربيع الأخر سنة ٦٩٠هـ/ نيسان ١٢٩١م.، وضرب عليها حصاراً مركزاً بآلات الحصار التي كانت تشمل إثنين وتسعين منجيقاً، وبعض العرادات الضخمة التي كانت تحمل إسماً مثل «المنصوري» «والغاضبة»، كما كانت هناك مناجيق أصغر حجماً ولكن ذات قوة تدميرية هائلة إسمها «النيران السوداء»[4]، واجتمع لدى السلطان على حصار عكا من العدد ما لا يحصر من كثرته، حيث كان المتطوعة أكثر من الجند ومن في الخدمة[5].

تناست الطوائف الدينية الإفرنجية خلافاتها القديمة وتكاتفت للدفاع عن المدينة، وقد حشد فرسان الداوية والإسبتارية كل قادر على حمل السلاح من سكان عكا ليقم بدوره في الدفاع، فبلغ مجموع ما حشده الفرنجة ما بين ثلاثين وأربعين ألفاً منهم ثمانمائة فارس وأربعة عشر ألفاً من المشاة والباقين من العامة[6].

أخذت القوات المملوكية في مهاجمة الأسوار بالمناجيق والعرادات التي أطلقت الأحجار الثقيلة والنيران، وراح رماة السهام من المسلمين يمطرون المدافعين من الفرنجة المتمركزين فوق الأبراج والأسوار[7].

نجح منقبو الأشرف خليل في إحداث ثقوب في الأبراج، فإنهار برج الملك هيو وتبعه البرج الإنكليزي وبرج الكونتيسة «دبلوا» بعد إشعالهم بالنيران، وقامت القوات المملوكية بهجوم مركز على باب القديس أنطوان تصدى له فرسان الداوية والإسبتارية، وفي فجر يوم الجمعة الموافق ١٧ جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ/١٨ أيار ١٢٩١م. سمع الفرنجة في المدينة دقات طبول القوات المملوكية، وبدأ المسلمون بالزحف الشامل على عكا وعلى طول امتداد أسوارها، تحت هدير دقات الطبول التي حمل على ثلاثمائة جمل لإنزال الرعب في قلوب الفرنجة داخل عكا[8].

---

(1) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٢٤.

(2) للمقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢٠٨.

(3) المقريزي، المصدر نفسه، ج١، ص ٢٥٧.

(4) العسلي، الظاهر بيبرس و اية الحروب الصليبية القديمة، ص ١١٠.

(5) ابن تعزي بري، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٨، ص ٥.

(6) رنيسمان، الحروب الصليبية ج ٣، ص ٦٩٦ -٦٩٧.

(7) العسلي، المرجع السابق، ص ١١٤.

(8) ابن تعزي بردي، المصدر السابق، ج ٨، ص٦.

قبل أن يحل الليل من ذلك التاريخ، كانت مدينة عكا قد صارت في يد القوات المملوكية حيث عادت إلى المسلمين بعد حصار دام أربعة وأربعين يوماً[1]. ومن المصادفات أيضاً أن يستعيد الأشرف خليل مدينة عكا بعد قرن كامل وفي نفس اليوم والشهر على سقوطها بيد الصليبيين الذين استولوا عليها من صلاح الدين الأيوبي في يوم الجمعة ١٧ جمادي الثانية سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م[2].

وهكذا فقد كانت معركة عكا آخر المعارك الفاصلة في الحروب الصليبية التي عرفها المشرق العربي الإسلامي طيلة قرنين من الزمن، وبعد تحرير عكا سقطت كل من صور وعتليت وصيدا وبيروت وحيفا[3]. وكذلك جزيرة أرواد الذين ضلوا الإفرنج محافظين عليها طيلة اثنتي عشر عاماً، ولم يغادروها إلا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، وتحررت جبيل أيضاً[4].

حرص المماليك على تطهير الأراضي العربية الإسلامية من الوجود الصليبي، إضافة إلى حرصهم أيضاً على مواجهة وصد الغزو المغولي، لقد انتهج المماليك إستراتيجية عسكرية حازمة في التعامل مع الأعداء وذلك من خلال استخدامهم لعنصر المباغتة الذي كان له دور كبير في حسم المعارك لصالحهم، كما إن اتخاذ خطوات مسبقة لكل عملية عسكرية تخضع للتخطيط والتدقيق والتمحيص والدقة كان من شأنه أن يعزز ثقة الجيش المملوكي بنفسه وبقيادته الجريئة في اتخاذ القرارات المناسبة. من هنا جاء فرض القيادة المملوكية على حشد القوة المناسبة لحجم العملية وإلى إتخاذ ترتيبات ضرورية لجهة ضمان أمن القوات المملوكية، وأن يكون لديها خطط معدة سلفاً خلال المواجهة وتتصرف فيها على جناح السرعة في حال قام العدو بوضع مخططات مضادة لخطتها، وأن يكون المكان والزمان المناسبين لتنفيذ العمليات القتالية هو من خيار القيادة العليا وحدها[5].

المبحث الثاني: أساليب المماليك في مواجهة المغول:

اتبع المماليك إستراتيجية جديدة في مواجهة المغول، ذلك أن حكام المسلمين ابتداءً من الدولة الخوارزمية شرقاً حتى بلاد الشام جنوباً قد إلتزموا مبدأ التحصن داخل مدنهم انتظاراً لهجوم المغول عليهم ومحاولة صده فقط، إلا أن المماليك انتهجوا سياسية ومنازلة العدو بعيداً عن الديار بما معناه القيام بحرب استباقية ومباغتة العدو في أرضه وتحصيناته مواقعه، وكان خير من سار على هذا النهج

---

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٢٢٤.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٨، ص ٨. شبارو، السلاطين في المشرق العربي، ص ٣١.

(3) المنصوري، مختار الأخبار، ص ٩٢.

(4) رنيسمان، الحروب الصليبية، ج ٣، ص ٧١٢.

(5) العسلي الظاهر بيبرس و ا ية الحروب الصليبية القديمة، ص ٢٠٦.

من المواجهة أو الرؤية العسكرية هو المظفر قطز ومن سيخلفه الذين من بعده من السلاطين المماليك الذي كانوا بحق حالة عسكرية فريدة من نوعها طوال فترة حكمهم في المشرق العربي الإسلامي.

١ - قطز في مواجهة المغول في عين جالوت:

أدرك المظفر قطز أول السلاطين عدم جدوى الأساليب الدفاعية عبر التحصن داخل المدن والقلاع، وقرر مواجهة المغول قبل وصولهم إلى الأراضي المصرية واختار لذلك النزال مكان مناسباً خارج دولته الناشئة هو منطقة عين جالوت في فلسطين. كما أن اختيار هذا المكان في بلاد الشام لمنازلة المغول. يعطي بحد ذاته دفعة قوية لتلك الجموع الشامية الهاربة منهم إلى مصر والتي انضمت إلى جيش المماليك، للإستبسال والتفاني في الجهاد وطمعاً في العودة مرة أخرى إلى بلادها، خاصة وأن هناك أمراء أيوبيين في هذه الجيوش كان المظفر قطز قد وعدهم بإعادتهم إلى إماراتهم بعد طرد المغول من بلاد الشام[١].

وبقصد التأثير النفسي والعملي على حركة ونشاط الجيش المغولي أثناء المواجهة، فقد اعتمد قطز في بعض خططه إختيار توقيتاً مناسباً للمعركة كان قد أجبر المغول عليه إذ تعمد أن تكون المعركة الفاصلة بينهما في شهر آب الذي تكون فيه الحرارة مرتفعة بعكس ما تعود عليه المغول في منغوليا الباردة[٢].

تمكن قطز من الوصول إلى المعركة في عين جالوت قبل القوات المغولية وحلفائها بيوم واحد[٣]، وكان هدفه من ذلك إخفاء قواته في التلال القريبة، ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها «الظاهر بيبرس» وبهذه الخطة جرى تطويق الجيش المغولي فجأة بعد أن وقع القائد المغولي في الفخ.

بهذه الخطة تمكن قطز من شل قدرات الجيش المغولي البشرية وتدميره «وقهر القوة التي لا تقهر»[٤] مما يدل في ذلك إلى رقي القيادة العسكرية المملوكية في إتباع إستراتيجية عالية المستوى واستخدام أصول الفن الحربي بما يخدم مصلحتها ويظلل أعدائها.

لقد دخل قطز معركة عين جالوت وهو مستبشراً بأن النصر محقق، وأخذ في ترتيب صفوف تشكيلاته القتالية بما يتناسب مع وضع العدو وإمكاناته وأسلحته المستخدمة، وطبق خطة الدفاع

(1) الصلابي: علي محمد محمد، السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، مصر، طبعة أولى، ٢٠٠٩م، ص ١١٨.

(2) عبد العزيز: فهمي عبد السلام، تاريخ الدولة المغولية في إيران، القاهرة، ١٩٨١م، ص١٢.

(3) العباس الصفدي: الحسن بن أبي محمد عبدالله الهاشمي، نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، ص ١٤٩.

(4) العسلي، المظفر قطز ومعركة عين جالوت، ص ١٦٥و١٦٧.

المتحرك كسروا فيها المغول كسرة شنيعة، حيث أحاطت بهم العساكر وأفنوهم قتلاً وأسراً[1]. وقد أحسن قطز ُأسس الشؤون الإدارية في الجيش، إذ استطاع أن ينظمها بما يتعلق بحركتها وخفتها وقد ظهر ذلك جلياً عندما حدد لصاحب حماه كيفية ونوع الإمداد، وضرورة أن يكون الجندي خفيف الحركة لا يثقله الطعام الكثير المتنوع، ومما قاله لا تحتفل في مد سماط بل كل واحد من أصحابك يفطر على قطعة لحم[2].

أنشأ قطز جهاز استخباراتي واستطلاعي لمعرفة تحركات العدو، واشرف عليه مباشرة، وتوصل من خلال هذا الجهاز إلى معرفة وجهة سير الجيش المغولي بمجرد خروجه من معسكراته وقد اتخذ كافة التدابير الوقائية. إن معظم العناصر المكونة لهذا الجهاز هم من أهل بلاد الشام المعادين للمغول، وكان له بصمة واضحة وأساسية فيما حققه للمماليك من إنجازات عسكرية في عين جالوت وغيرها[3].

وضع قطز خطة عسكرية محكمة، ونفذ خدعة أثناء تقدم الجيش المغولي قبيل بدء المعركة والذي وقع في الفخ حينما اصطدم الحرس المتقدم بدوريات الإستطلاع التي كانت أمام الجيش المملوكي، بقيادة الظاهر بيبرس[4].

دلت الحروب التي خاضها قطز ضد المغول على أنه قائد حربي من الطراز الأول، فهو خفيف الحركة على حصانه، وكان منظماً قاد الكتلة الرئيسية من الجيش في معركة عين جالوت، منظم الميمنة والميسرة والقلب، وأناط مسؤولية كل جناح بقائد شجاع، ونسق الصفوف في عدة تراتيب، وجعل الميمنة تتقدم بالإحاطة، والميسرة بالإلتفاف والقلب بالتقدم البطيء الزاحف، كما بث الحرس المتحرك على الجوانب والكمائن في المواقع التي لا يتوقعها العدو مما جعله يتمكن من عدده، ويقضي عليه بعد أن استدرجه للوقوع في النقطة المميتة التي وقع فيها عدد كبير من قتلى المغول[5]، وبذلك فإن معركة عين جالوت تعتبر من الناحية العسكرية نموذجاً لكمين كبير يقوم به جيش ضد جيش آخر[6].

وفي يوم ٣٠ رمضان سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م، وصل المظفر قطز إلى دمشق، ودخلها وكان قد استتب الأمن بسرعة عجيبة، وقام قطز بعزل ابن الزكي قاضي دمشق الذي عينه المغول الذي كان

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٣٦١.
(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٧، ص٧٨.
(3) العسلي، المظفر قطز ومعركة عين جالوت، ص ١٦٧ -١٦٨.
(4) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص ٥١٦.
(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٧، ص ٧٩.
(6) العسلي، المظفر قطز ومعركة عين جالوت، ص ١٢٣- ١٢٥.

موالياً لهم وعين مكانه نجم الدين أبا بكر بن صدر الدين بن سني الدولة. لم يضيع قطز وقتاً بل أرسل مقدمة جيشه بقيادة بيبرس لتتبع الفارين من المغول وتطهير مدن الشام الأخرى من الحاميات المغولية[١].

وطارد المغول في أعالي بلاد الشام حتى لحق بهم إلى حمص، ولما بلغ هولاكو هزيمة جيشه ومقتل نائبه كتبغا عظم عليه، فإنه لم يهزم له عسكر قبل ذلك ورحل من يومه[٢].

٢- جبهة المغول في عهد السلطان الظاهر بيبرس:

ثارت ثائرة المغول بعد هزيمتهم في معركة عين جالوت، وأرادوا الانتقام من الدولة الناشئة والنيل من مماليكها بكل الوسائل والطرق، وازداد الموقف خطورة عندما ارتبطت سياسة مغول فارس العدائية بسياسة الفرنجة في بلاد الشام والأرمن وكيليكيا.

أدرك بيبرس هذا الخطر، فأمر بتحصين الثغور مع المغول، واتخذ بعض الترتيبات بهدف إعاقة تحركاتهم العسكرية، فعمد إلى إفساد الطرق والوديان بما فيها من الأعشاب[٣].

ظهر أثر الترابط بين المغول وحلفائه واضحاً عندما انتهز أباقا خان فرصة انهماك المماليك بقتال الفرنجة، فأغار على مناطق الحدود سنة ٦٦٥هـ./١٢٦٦م، وهاجم مدينة الرحبة في الوقت الذي كان فيه بيبرس يهاجم بجيشه مدينة صفد[٤].

ورغم هذا العداء حاول أباقا خان مصالحة بيبرس، ففي سنة ٦٦٧هـ /١٢٦٩م، وصله كتاب من الزعيم المغولي تضمن تهديداً وترغيباً في الصلح، ومما جاء فيه «فأنت لو صعدت السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً»،[5] لكن هذه اللهجة لم تعجب بيبرس حيث رد على الرسول المغولي بقوله «اعلمه أني وراءه بالمطالبة، ولا أزال انتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من البلاد الحليفة وسائر أقطار الأرض»[٦]. وهكذا فكان لا مفر من الحرب.

أ- معركة البيرة[٧]:

نزلت القوات المغولية البيرة سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م بهدف الإستيلاء عليها، وحاصروها حصاراً مركزاً ونصبو حولها ثلاثة وعشرين منجنيقاً، واتخذوا كافة الإحتياطات لمنع الجيش المملوكي

---

(1) السرجاني: راغب، قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، مؤسسة أقرأ، المملكة العربية السعودية، طبعة أولى، ٢٠٠٦، ص ٣٤٠.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، ص ٥١٨.

(3) جرار: مأمون مزيز، الغزو المغولي، دار البشير، عمان، طبعة أولى، ١٩٨٤م، ص ٩٥.

(4) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج ٢، ص ٧.

(5) المقريزي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٦.

(6) العيني، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٠ -٤٣.

(7) بلد بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٥٢٦.

من الوصول إليها عبر الفرات، ووصلت أخبار تلك الجموع إلى بيبرس، فجهز جيشاً ونقل مراكب الصيادين أتى بها من حمص على ظهور الجمال لعبور الفرات، واستطاع بيبرس وجنوده عبور النهر والإنتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها في الأراضي العراقية عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م[1].

ب- معركة إبلستين[٢]:

وفي سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٧م، إجتمع المغول وسلاجقة الروم بالقرب من نهر جيحون، وكان عددهم أحد عشر ألفاً بقيادة «تتارون» المغولي، فانبرى الجيش المملوكي بقيادة بيبرس لهذا الجمع واستطاع أن يهزمهم مجتمعين في صحراء بلستي وهوني، فكان تمركز الجيش المغولي في الصحراء على أرض منبسطة ومكشوفة، حينما هاجمه الجيش المملوكي بهجوم صاعق من الجبل، مستخدماً عنصر المفاجأة والظهور الفوري واستطاع بيبرس بخفة حركته والإندفاع الفوري أن يهاجم جوانب خصمه وجبهته ونزل الجيش المغولي وقاتل أفراده راجلين، إلا أن السرعة في القتال من جانب الجيش المملوكي حسمت المعركة، وانهزم المغول والسلاجقة وولوا الأدبار، وتبعهم الجيش المملوكي يحصدهم حصداً[٣].

٣- جبهة المغول في عهد أسرة قلاوون:

وردت الأخبار سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م بزحف المغول على بلاد الشام، وقد انقسموا إلى ثلاث فرق واحدة سارت من جهة بلاد الروم، وأخرى سارت من جهة الشرق، وثالثة يقودها منكوشهر بن هولاكو، فتهيأ قلاوون لمواجهتهم، وقد دخل المغول حينها إلى حلب فنهبوا وقتلوا وحرقوا المساجد ودور السلطنة ورحلوا عنها، وما لبث قلاوون أن خرج بنفسه من القاهرة لصد المغول وطردهم ووصل إلى غزة لكنه عاد بعد أن بلغه خبر رجوعهم[٤].

ولم تمضي أحداث الغزوة المغولية السابقة حتى زحفوا من جديد إلى دمشق سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، فكانت حشودهم كبيرة، وقرر حينها قلاوون بعد استشارة أمرائه مواجهتهم في مرج حمص في الأرض الممتدة بين ضريح خالد بن الوليد في حمص وبين الرستن، وكانت معركة عنيفة صمد فيها المماليك، وقد عمل قلاوون على توزيع الكمائن في طريق اتجاه المغول التي أدت إلى انتصار الجيش المملوكي انتصاراً ساحقاً[5].

---

(1) المقريزي، السلوك، لمعرفة دول الملوك، ج ٢ـ ص ٩٠ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة، ج ٧، ص ١٥٨.

(2) مدينة مشهورة ببلاد الروم، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٧٥.

(3) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج٧، ص ١٦٨.

(4) المقريزي، السلوك لمعرفة دون الملوك، ج ٢، ص ١٣٥ – ١٣٦.

(5) كرد علي، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ١٩٨٣، ج ٢، ص ١١٨.

تشبه هذه المعركة في تكتيكها القتالي معركة عين جالوت التي استخدمت فيها القوات المملوكية الإحاطة والإلتفاف، واستطاعت أن تبيد القوات المغولية في منطقة الإبادة، كما قضت على ما تبقى من ملوك المغول الهاربين بالمطاردة والكمائن[١].

أ- تحرير ثغر (الكختا):

لم يأخذ قلاوون المغول ولم يطمئن إلى جانبهم، ولهذا تطلع نحو القلاع والثغور التي هي في أطراف دولته ليفتحها حتى تصبح له بمثابة مراكز ترصد تحركات العدو، فالتفت إلى ثغر الكختا سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م، وهي على مرتفع صخري شاهق لا يلحقه رام، وإذا رمى من تحته لا يصل سهمه إلا إلى بعض الصخر، وهو في سائر جوانبه كذلك. وهذا الثغر يقع في الشمال الغربي من حلب[٢]، وله من الأهمية ما جعل قلاوون يبذل الوعود الجميلة لمن بداخله كي يسلموه، وكان له ذلك.

ب- تحرير قلعة قطينا:

تشكل هذه القلعة خطراً كبيراً على حصن كركر[٣]، والتي هي بيد المغول بواسطة نوابهم عليها، تطلع قلاوون بعد انتصاره في موقعه حمص إلى جعلها تحت سيطرتها فبدأ بحصارها ومضايقتها حتى سيطر عليها سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م، بعد أن تخلى المغول عن مساعدتها[٤].

ج- الإغارة على بلاد سيس[٥]:

لم ينس قلاوون وقوف الأرمن إلى جانب المغول في حملتهم الأولى والثانية وإحراقهم لجامع حلب[٦] والدور السلطانية فيها، ففي سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م، كتب إلى نائب حلب يأمره بأن يقوم بهجوم على بلاد سيس، ولم يكتف بذلك بل أرسل له جيشاً من مصر والشام، فتوجهوا جميعاً وأغاروا حتى بلغوا مدينة أياس[٧]، فقتلوا من أهلها الكثير ونهبوها وعادوا إلى باب اسكندرونه فلقيهم جماعة من الأرمن فاشتبكوا معهم وهزموهم، وعاد الجيش المملوكي غانماً منتصراً[٨]. وكذلك غزا جيش قلاوون ماردين وسنجار والموصل[٩].

---

(1) حطيط: أحمد، حروب المغول، دار الفكر اللبناني، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٤م، ص ٦٩.

(2) القلقشندي، صبح الأعشر في صناعة الإنشا، ج ٤، ص ١٣٤.

(3) حصن كركر يقع في أقصى الشمال من بلاد الشام ويقع بالقرب من ثغر الكختا من شرقيها القلقشندي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٣٤.

(4) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ج ١، ص ٣٠.

(5) بلاد سيس: بلد هو اليوم أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرطوس، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص ٢٩٧.

(6) ابن الفرات، تاريخه، ج ٧، ص ٢٧٦.

(7) أياس، قلعة من بلاد الأرمن على جبل مطل على البحر الرومي، القلقشندي، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٤٠.

(8) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ج ١، ص ٣١.

(9) القلقشندي، المصدر السابق، ج٨، ص ٢٢٧.

د- تحرير قلعة الروم:

أما في عهد الأشرف خليل بن قلاوون فقد عمل على تحرير قلعة الروم الواقعة غربي الفرات[1]، وكان سكان هذه القلعة من النصارى الذي شاركوا المغول بهجماتهم ضد المسلمين، نصب عليها الأشرف خليل عشرين منجنيقاً واستمر حصاره لها ثلاث وثلاثين يوماً، وفتحها عنوة وأطلق عليها اسم قلعة المسلمين، وعاد إلى دمشق بالأسرى المكبلين بالأغلال ومن ثم عاد إلى مصر[2].

توجه الأشرف خليل أيضاً للإقتصاص من الأرمن عبر انتزاع «بهنسا» منهم، فلما علم الأرمن بنية الاشرف خليل، أرسلوا له الرسول يرجون منه عدم مهاجمة مملكتهم، فتم الإتفاق على تنازل الأرمن عن بهنسا ومرعش وتل حمدون في مقابل عزوف الأشرف خليل عن مهاجمتهم، فأصبحت تلك المناطق في حوزة المسلمين بغير قتال وجددوا الولاء والطاعة للمماليك، وأرسلوا للأشرف خليل الجزية[3].

هـ - معركة وادي خزاندار:

وفي عهد الناصر محمد سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩، وردت أنباء عن زحف مغولي من حلب على بلاد الشام بقيادة غازان سلطان مغول فارس، وإن طلائع المغول قد وصلت إلى البيرة. وصل الناصر محمد إلى دمشق قادماً من القاهرة على رأس جيشه، ثم تابع مسيره إلى حمص، فيما كان الجيش المغولي يحتشد عند سلمية ناحية حماة، التقى الجيشان في مجمّع المرج المعروف بإسم وادي الخزندار، وقد كانت عدة الجيش المملوكي نحو ٢٠ ألف فارس، وكان جيش غازان نحو ١٠٠ ألف، يضم قوات متحالفة من مملكة كيليكية الأرمنية.

عند بداية المعركة ابتهج الناصر محمد عندما تمكنت ميسرة المسلمين من صدمة ميمنة غازان والتي فقد فيها المغول نحو خمسة آلاف، وكاد غازان أن يولي الأدبار فاستدعي قبجق نائب دمشق فشجعه ونظم صفوفه، وحمل بعدها غازان حملة واحدة على الجيش المملوكي فهزمه وراح يرمي السهام على أقفيتهم، ولما رأى الناصر ما حل بجيشه، بكى وقال مبتهلاً: «يا رب لا تجعلني كعباً نحساً على المسلمين» ولما عاد بقية الجيش المملوكي إلى حمص، صرخ بهم أهلها، الله الله في المسلمين ثم توجهوا إلى دمشق[4].

تعود أسباب تلك الهزيمة التي مني بها الجيش المملوكي إلى تفوق المغول عدداً وعدة وبالإضافة إلى سوء التدابير الذي رافق الحملة وافتقار الجيش المملوكي للإعداد النفسي، وإلى فشل

---

(1) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٩٠.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٢٣٤.

(3) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص ٤١٦.

(4) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٣١٩ – ٣٢٠ ابن أياس بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٤، ص ٤٧.

الخطة العسكرية التي وضعها قادة المماليك، القائمة على ضرب الجناحين وإخراجهما من ساحة القتال ثم ضرب القلب. إضافة إلى أن الحملة التي انطلقت من مصر لمواجهة المغول بقيادة الناصر محمد تعرضت وهي في طريقها عند تل العجول للمؤامرة في صفوفها من قبل المغول الأويراتية[١] الذي وفدوا إلى مصر وأقامو فيها في عهد السلطان المخلوع كتبغا. وعند قرتيه وهي بلدة قرب بيت جبرين من نواحي فلسطين تعرض الجيش المملوكي لسيل عارم أتلف وأضاع الكثير من منقولات وأثقال العسكر، وافتقر عدة منهم لذهاب جمالهم وأثقالهم فتشأموا به وتطيروا من ذلك، وعقب هذا السيل خرج جراد سد الأفق بحيث حجز الأبصار عن السماء فزاد تشاؤمهم وخوفهم من ذلك أيضاً[٢].

و- معركة عرض[٣]:

وعلى إثر ما أصاب تلك الحملة من هزيمة في وادي خزاندار، عاد الناصر محمد إلى القاهرة وعمل فور عودته إلى إعادة تنظيم الجيش وتجهيزه للأخذ بالثأر من المغول، حيث استدعى صناع السلاح وجمعت الأموال والخيل والرماح والسيوف من كل أرجاء مصر، وخصص للجنود العائدين نفقة وأموال كثيرة أصلحوا بها أموالهم وحددوا عدتهم وخيولهم ونودي بحضور الأجناد ووزعوا على الأمراء[٤].

فكان من ثمرة هذا التحضير أن انتصر المماليك في معركة «عرض» شعبان ٧٠٢هـ/ نيسان ١٣٠٣م. حينما قام غازان بغزو بلاد الشام للمرة الثانية بقيادة قائده قطلوشاه على رأس ثمانين ألف جندي، وفي مواجهة أحد أمراء الناصر محمد الأمير بيبرس الجاشنكير إلا أن الهزيمة التي مني بها الجيش المغولي في «عرض» كانت على أيدي اسندمر كرجي نائب طرابلس حين أخذ المغول على حين غرة ففتك بهم وأسرماية وثمانين مغولي، وقام بتحرير ستة آلاف من التركمان كانوا قد وقعوا في قبضة المغول[5].

ي- معركة شقحب:

لم تكن معركة عُرض سوى مقدمة صغيرة عما سيلاقيه المغول في شقحب[٦]. ففي يوم السبت ٢ رمضان ٧٠٢هـ./٢٠ نيسان ١٣٠٣م، اجتمع الجيشان الشامي والمصري قبل أن يدركهما الجيش المغولي بساعات، وقد اختار المماليك أرض المعركة في شقحب، ولا تقل هذه المعركة عن سابقتها وقد استخدم فيها أسلوب الدفاع المتحرك، وهو المشابه من حيث تطبقيه لمعركة عين جالوت، وقد عمل

(1) الأويرانية: هم التتر الوافدون إلى مصر وبلاد الشام في العهد المملوكي، الذين غدوا مع مر السنين من جملة جيش الدولة المملوكية. حلاق، المعجم الجامع، ص ١٤٤.

(2) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢، ص ٣١٨.

(3) عُرْض: بلدة في الشام من أعمال حلب، تقع بين تدمر والرصافة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ١٠٣.

(4) الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ج٢، ص ١٨١.

(5) ابن تغزي بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٨، ص ١٥٧-١٥٨.

(6) شقحب: تقع قرب جبل غباغب، وهي قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٤، ص ١٨٤.

الناصر محمد على تقسيم جيشه بما يتناسب مع واقع المعركة وحجم الجيش المغولي، وبفضل صمود وثبات الجيش المملوكي في هذه المعركة وعلى مختلف الأجنحة انكسر المغول كسره شنيعة وقتل منهم خلقاً كثيراً لا سيّما وأن الجيش المصري بقيادة السلطان الناصر محمد قد فاجئ المغول بحضوره في ميدان المعركة والذي كان لها تأثيراً كبيراً على معنويات الجيش المملوكي. ومما يذكر في هذه المعركة أن الشيخ تقي الدين بن تيمية قد افتى بالفطر مدة القتال وأفطر هو أيضاً[١].

جاءت أثار الهزيمة مفجعة على غازان ومغول فارس، وقد أصيب غازان بالذهول وأجرى التحقيقات والمحاكمات وفرض العقوبات على كبار أمرائه وقادة جيشه وكاد أن يقتل قطلوشاه لكنه عاد وعفى عنه، وطرده من مجلسه ونفاه إلى جيلان[٢]. ولم يصمد غازان طويلاً بعد تلك الهزيمة الساحقة حيث مات مكموداً سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م بعد أن حكم مغول فارس (الإيلخانات) ثماني سنين وعشرة أشهر[٣].

المبحث الثالث: مواجهة المغول في عصر دولة المماليك الثانية (البرجية-الجراكسة)[٤]:

كان المغول في حالة من الضعف نتيجة ما تعرضوا له من الضربات على أيدي سلاطين دولة المماليك الأولى، حتى خيل للمشرق العربي الإسلامي وكأنه تخلص من خطرهم سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، ومع نشأة دولة المماليك الثانية وفي عهد أول سلاطينها الظاهر برقوق سنة ٧٨٤-٨٠١هـ/١٣٨٢-١٣٩٨) ظهر الخطر المغولي من جديد بقيادة تيمورلنك الذي أرسل كتاباً إلى الظاهر برقوق يطلب فيه إقامة علاقة صداقة بينهما، لكن السلطان المملوكي استخف بالقائد المغولي ورد عليه بإعدام رسله، فما كان من القائد المغولي إلا أن اجتاح بغداد سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٣م واحتل العراق والرها، ومن ثم أرسل كتاباً آخر إلى الظاهر برقوق مملوء بالتهديد والوعيد، فرد عليه الظاهر برقوق في كتاب مماثل وأخذ يستعد لمواجهة تيمورلنك في البيرة، حيث أحرز عليه انتصاراً في معركة غير فاصلة، أضطر على أثرها تيمورلنك للإنسحاب إلى سمرقند نتيجة اضطرابات داخل دولته[٥].

---

(1) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي، البداية النهائية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، طبقة أولى، ١٩٨٨م، ج ١٤، ص٢٩-٣٠ ابن أياس، بدائع الزهور ج ٤، ص ٤٧.

(2) الصياد: فؤاد عبد المعطي، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو)، مركز الوثائق للدراسات الإنسانية، جامعة الكويت، ١٩٨٧، ص ٣٠٧.

(3) مهدي: شفيق، مماليك مصر والشام، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ١٠٤.

(4) هم من طائفتي الأرمن والجركس وسموا بالبرجية لأنه تم إسكا م في أبراج القلعة، وقد بلغ عدد أفراد هذه الفرقة حوالي ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك في اية عهد السلطان قلاوون، في عهد ابنه الأشرف خليل عمل على تكميل عد ا عشرة آلاف مملوك.
المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ٣٧٤.

(5) حمود: سوزي، الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك، ص ١٠٠-١٠١.

خلف الظاهر برقوق أبنه الناصر فرج في فترة حكمه الأولى (٨٠١-٨٠٨هـ/١٣٩٨-١٤٠٥م) وفي عهده تحرك الخطر المغولي من جديد، فاحتل تيمورلنك مدينة بغداد وفر حاكمها أحمد ابن اويس[١].

زحف تيمورلنك نحو بلاد الشام كما فعل هولاكو قبل أكثر من قرن ونيف، فاحتل عينتاب[٢]، وكذلك حلب التي استبحيت أربعة أيام، قتل فيها حوالي العشرين ألفاً، ولاقت حماه ذات المصير [٣].

أمام كل هذا والناصر فرج لم يحرك ساكن، سوى أنه خرج بحملة من القاهرة إلى غزة وتوجه إلى دمشق إلا أنه سرعان ما عاد إليها خوفاً من انقلاب على سلطته من قبل بعض الأمراء الذين انسحبوا من جيشه وعادوا إلى القاهرة، الأمر الذي سهل على تيمورلنك أن يتوجه إلى دمشق سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م ويستولي عليها بالحيلة والخداع بعد أن عجز عن فتحها أمام صمود الجيش والأهالي، وقد استبيحت دمشق عقب ذلك مدة تسعة عشر يوماً، ذاقت خلالها الناس ألوان العذاب، ورحل عنها بعد أن أقام على دمشق ثمانين يوماً وقد احترقت بكاملها[٤].

انتهى الخطر المغولي على المشرق العربي الإسلامي بوفاة تيمورلنك سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م، الذي عاث في الأرض فساداً وطغياناً، وكان مما بلغه الناصر فرج بن برقوق من الضعف والتخاذل أنه قام بإصدار عملة مصر تحمل إسم تيمورلنك، وقد حاول تيمورلنك أن يتابع زحفه نحو مصر، لكن وفاته أنقذت مصر من هلاك محتم[٥].

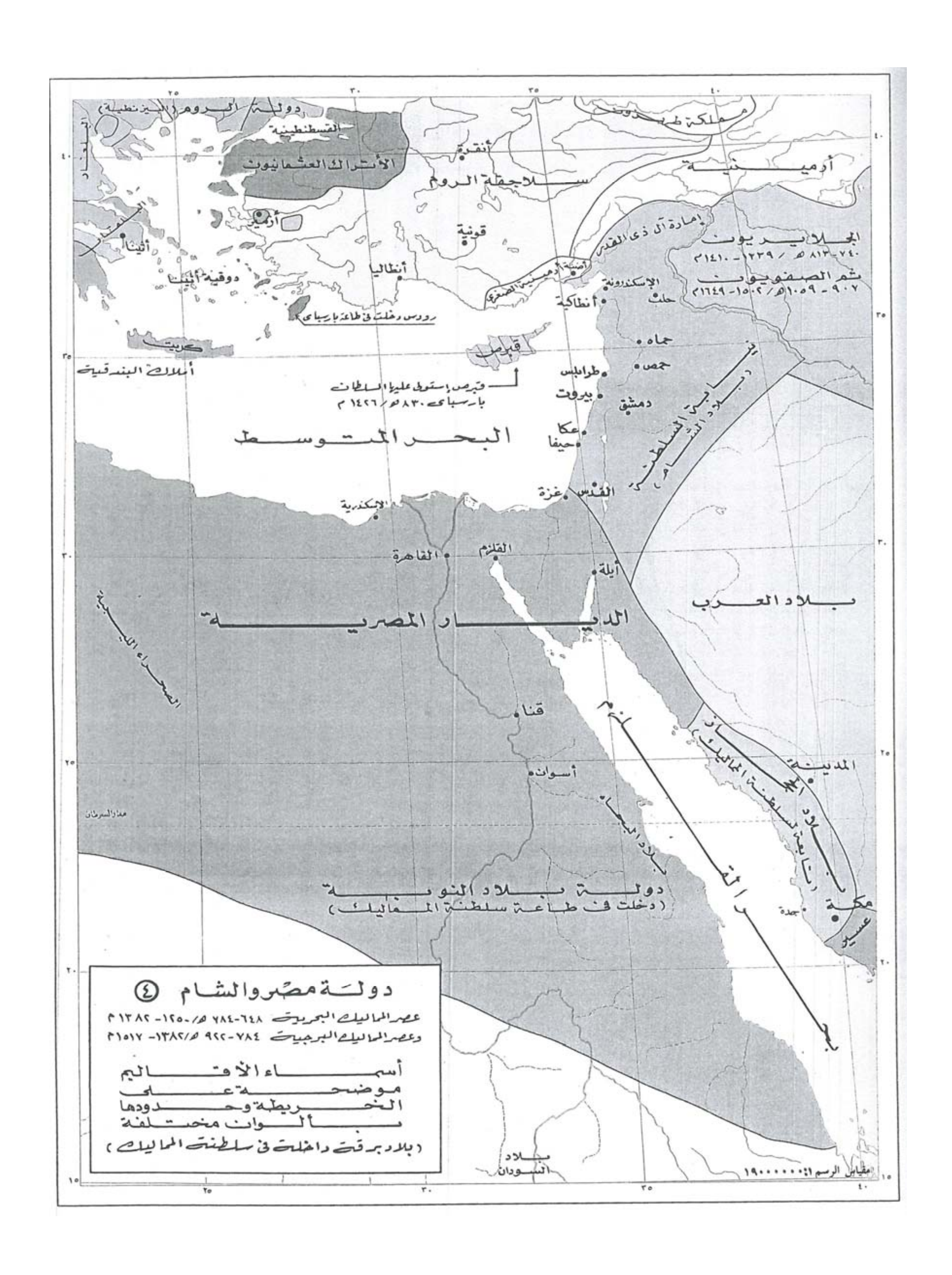
١- المماليك الجراكسة يحررون قبرص ويغزون رودس:

بالرغم مما أصاب دولة المماليك الثانية، مع بداية نشأتها من عثرات واهتزازات كادت أن تؤدي بها على يد تيمورلنك وجيشه، انتقلت فيها تلك الدولة من مرحلة الدفاع إلى الهجوم، فقد تمكن السلطان الأشرف برسباي من تحرير جزيرة قبرص سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م بأسطول مملوكي انطلق من بيروت وهو مكون من أربعين من القطع البحرية، حيث تمكنت هذه الحملة سنة ٨٢٨هـ/١٤٢٥م من هزيمة الجيش القبرصي المؤلف من سبعماية فارس وثمانية الألف من المشاة، وأسرت سبعماية جندي، لتعود بعد عام أي في سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م وتحرر الجزيرة بالكامل وتأسر ملكها جانوس ومعه ألوف الأسرى[٦].

---

(1) المقريزي، الموعظة والإعتبار بذكر الخطط والأثار، ج٣، ص٢٣٠.
(2) ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٢، ص ٢١٨.
(3) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج١٢، ص ٢٥.
(4) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٢٤٥-٢٤٦.
(5) شبارو، السلاطين في المشرق العربي، ص ٩٩-١٠٠.
(6) شبارو، المرجع نفسه، ص ١٠٤.

خارطة لدولة المماليك في أقصى اتساع لها، وسيطرتها على جزيرتي قبرص ورودس[1]



(1) مؤنس: حسين، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، طبعة أولى، ١٩٨٧م، ص ٣٠٥.

أما في عهد السلطان جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ/ ١٤٣٨-١٤٥٣م) فقد أرسل عدة حملات لغزو جزيرة رودس في الفترة (٨٤٣-٨٤٧هـ/١٤٤٠-١٤٤٤)، ومن بينها حملة سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٣ـ انطلاقاً من دمياط لكنها لم تحقق هدفها على غرار ما حصل مع قبرص[١].

٢- الحرب المماوكية العثمانية:

كانت أولى المواجهات بين المماليك والعثمانيين عندما هاجمت القوات العثمانية منطقة قيليقية سنة ٨٩١-٨٩٧هـ/١٤٨٦-١٤٩١م)، وتمكن المماليك من هزيمة العثمانيين ثلاث مرات، وانتهى الأمر بتوقيع إتفاقية سلام بينهما بالتاريخ عينه، لتعود السيادة المماوكية على قيليقية[٢].

ما كانت تلك المواجهة بين المماليك والعثمانيين إلا بمثابة جس نبض، واختبار قوى لكلا الدولتين، حيث كانت دولة المماليك الثانية التي نشأت سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م تسير نحو التفكك والإنهيار في أواخر القرن التاسع للهجرة الخامس عشر للميلاد، بالمقابل كانت دولة العثمانيين تتعاظم قوتها شيئاً فشيئاً وتتوجه بقواها التوسعية نحو بلاد الشام ومصر تقضي على الدولة المماوكية الثانية من خلال معركتي مرج دابق والريدانية.

أ- معركة مرج دابق:

لما آلت السلطنة إلى الأشرف قانصو الغوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م)، استطاع أن يمكن سلطته من خلال قضائه على الفتن والثورات في عهده، وفي نفس الوقت إزداد النفوذ العثماني عبر تنفيذ خطة من قبل السلطان سليم الأول بنشر معلومات عن نيته مهاجمة الدولة الصفوية براً وبحراً، بينما هو في الواقع يستعد لمواجهة المماليك. أدرك السلطان قانصو الغوري ذلك عندما تحرك الجيش العثماني نحو مرج دابق[٣]، وتكشفت نية العثمانيين حيال ذلك الأمر، وظهر له أيضاً أي للسلطان قانصو الغوري أن معظم أمراء الجيش الذي أرسله إلى حلب لمتابعة الأحداث كانوا عملاء للعثمانيين، أمثال خايربك نائب حلب، وجان بردي الغزالي نائب حماه[٤].

في مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م نشبت تلك المعركة بين العثمانيين والمماليك استطاع خلالها المماليك وفي بداية المعركة من قتل حوالي عشرة آلاف رجل من فرسان العثمانيين، وفجأة تغيير سير المعركة لصالح السلطان سليم الأول عندما استخدم جيشه المدفعية على نطاق واسع[٥]، بالإضافة إلى الفوضى في صفوف الجيش المماوكي التي كان قد أحدثها أمرائه العملاء.

---

(1) شبارو، السلاطين في المشرق العربي، ص ١٠٣-١٠٤.

(2) شبارو، المرجع نفسه، ص ١١١.

(3) شبارو، المرجع نفسه، ص ١١٤، ١١٥.

(4) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٥، ص ١٦٠ كرد علي، خطط الشام، ج٢، ص ٢٠٩.

(5) ابن أياس، المصدر نفسه، ج ٥، ص ٦٩.

أما السلطان قانصوه الغوري فقد مات كمداً وحزناً على ما أصاب جيشه، ولم يعثر على جثته[1].

ب- معركة الريدانية وسقوط دولة المماليك الثانية:

تسلم الأشرف أبو النصر طومان باي السلطنة وهو ابن شقيقة قانصوه الغوري وأخذ يستعد لمواجهة العثمانيين، بعد أن وصل السلطان سليم الأول وبصحبته الخليفة العباسي المتوكل إلى دلتا النيل، الأمر الذي دفع طومان باي إلى سحب قواته إلى داخل القاهرة بالقرب من الريدانية الضاحية الشمالية للقاهرة ومعه حوالي أربعين ألفاً بينهم عشرون ألف فارس مملوكي، وعلى غرار الخطة العسكرية التي وضعها العثمانيون في مرج دابق لمواجهة المماليك، حاول طومان باي تطبيقها في الريدانية عبر تحضير واشتراك أكبر عدد من المدافع وحملة البنادق، ووضع سلسلة من العربات والحواجز لتقف سداً منيعاً أمام تقدم جيش السلطان سليم لكن الجيش المملوكي كان يفتقد إلى التماسك والإنضباط أمام جيش يفوقه عدداً وعدة وخبرة في استعمال المدافع واعتماده أيضاً على خيانة الأمراء. بدأت معركة الريدانية سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م واستمرت ثلاثة أيام لتتحول إلى حرب شوارع، ورغم البطولة التي أبداها طومان باي في مواجهة العثمانيين إلا أنه لم يستطع إيقاف إصرار السلطان سليم على اقتحام القاهرة واستباحتها وقتل حوالي خمسين ألفاً من أهلها في مذبحة رهيبة، كما اعدم بصورة علنية ثمانماية فارس مملوكي، وليتم بعدها إعدام طومان باي شنقاً تحت قنطرة باب زويلة في القاهرة، بمقتله انتهت دولة المماليك الثانية[2].

٣- الأسباب التي أسهمت في سقوط دولة المماليك:

أسباب كثيرة كان سبباً في سقوط دولة المماليك، منها اعتماد المماليك على الجلبان الذين قل تدريبهم كما قلت العناية بتربيتهم في الطباق، بحيث جيء بهم كبار السن، كما كان للأنانية الشخصية التي أصابت المماليك والتي لم تقف عند حد، ذلك أن بعضهم لم يأبه للمواقف المصيرية للدولة، وظل يسير في السبيل الذي يحقق له طموحاته الوصولية، وليس أدل على ذلك من خيانة كل من خايربك وجان بردي الغزالي وغيرهم ممن تآمروا مع العثمانيين ضد السلطان قانصوه الغوري، وتقاعس المماليك عن مؤازرة السلطان طومان باي حينما كان يواجه العثمانيين في مصر. ومن الأسباب الرئيسية التي عجلت بسقوط دولة المماليك أيضاً هي عزوف المماليك عن استعمال الوسائل القتالية الحديثة بخاصة استعمال البارود على نطاق واسع سواء أكان في البنادق أو المدافع بالرغم من معرفتهم بأنواع هذا السلاح قبل العثمانيين والذين كانوا قد استخدموه في أولى معاركهم مع الصليبيين في معركة المنصورة. إلا أن المماليك كانوا يعتمدون على الفروسية أي سلاح الخيالة في عملية تغيير سير المعارك لصالحهم، غير أن هذا النوع من الخطط وأساليب القتال عند المماليك كانت قد سقطت في مواجهة العثمانيين في مراج دابق والريدانية بعد استعمال السلطان سليم للمدافع والبنادق التي أدت إلى

(1) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ٥، ص ٧٠ و١٥٢ كرد على، خط الشام، ج٢، ص ٢٠٩.

(2) شبارو، السلاطين في المشرق العربي، ص ١١٩-١٢١.

هزيمتهم في بلاد الشام أولاً ومصر ثانية. ومن الأسباب أيضاً اكتشاف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح، ووصولهم بحراً إلى الهند ومن ثم قضائهم على التجارة المملوكية في الشرق الأقصى بعد أن سدوا منافذ المحيط الهندي والخليج العربي بأساطيلهم، وأيضاً محاولة كل من العثمانيين والصفويين والمماليك السيطرة على العالم الإسلامي، وبخاصة بعد أن توقف العثمانيون عن غزو أوروبا، فقضوا على الصفويين في موقعه جالديران سنة ٩٢١هـ/١٥١٥م، ثم على المماليك في مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، وفي الريدانية سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م[١]. بالعودة إلى خيانة كل من خايربك نائب حلب، وجان بردى الغزالي نائب حماه، فإن الكثير من جندهما كانوا غير راغبين في الحرب ضد الجيش العثماني الذي فتح القسطنطينية[٢]، مما يدال على أن كبار أمرائهم فضلوا الخيانة بهدف مصالح شخصية، في حين تقاعس الجند عن القتال بدافع الغيرة وعدم المواجهة مع جيش يشاركهم العقيدة والمذهب. كما لا ننسى من الأسباب التي ساهمت في سقوط دولة المماليك، هي العنصرية والفوقية التي مارسها المماليك على السكان العرب الأصليين في مصر، بالإضافة إلى احتكارهم القيادة والناصب العسكرية والجندية بشكل عام بشخصهم دون غيرهم من الفئات الأخرى. كما إن إبدال القوانين المستوحاة من الشريعة الإسلامية بقوانين المغول التي كان قد وضعها جنكيز خان (قانون الياسة) بحيث أنهم حرفوها إلى (سياسة)، فقدوا بعملهم هذا أمور العدل والقضاء في حكمهم وأحكامهم وكانت سبباً في إنهيار دولتهم.

---

(1) ضومط، الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري) ص ١٤.

(2) شبارو، السلاطين في المشرق العربي، ص ١١٧.

استنتاجات:

قدر لدولة المماليك أن تولد في ميادين القتال، كما أنها لم تتوان أساساً في الدفاع عن عقيدة كانوا قد نشأوا عليها منذ صباهم وصوناً لمصالحهم ووجودهم، إذ لا كيان للمماليك إلا في مصر وفي ما عداها يعودون عبيداً كما بدأوا ولا سبيل إلى الدفاع عن وجودهم إلا بالحرب والإقدام.

فرض واقع الحال على الدولة الناشئة مسؤولية الدفاع عن الأمة الإسلامية التي كانت على وشك السقوط نتيجة للحملات الصليبية التي أنهكتها، وللغزو المغولي الذي كاد ينهي وجودها ويطمس حضارتها بعد سقوط معظم الدولة الإسلامية الآسيوية، ومن ثم سقوط بغداد عاصمة الخلافة وبلاد الشام أيضاً.

جاءت معركة عين جالوت لتكون نقطة تحوّل في مصير المنطقة ككل، فقد أوقفت المد المغولي الذي كان من المتوقع أن يغير وجه بلاد الشام الإسلامي، وبالتالي أصبح للمسلمين دولة قوية تفرض إرادتها على الفرنجة الأعداء التقليديين لهم.

نال المظفر قطز شرف الدفاع عن الأمة الإسلامية وأصبح له الحق هو وجيشه تزعم القوة الإسلامية الأساسية في المشرق العربي، ومتابعة مهمة الأيوبيين في إخراج الفرنجة من البلاد بعد كسر شوكة المغول، وعلى خطاه تابع الظاهر بيبرس مهمة مواجهة عدوين قويين كانا يهددان دولة الإسلام من جهة الشرق ومن جهة الغرب في آنٍ معاً، فقد كان يلجأ إلى عقد التحالفات السياسية لمواجهة خصومه في أوقات الحرب إذ أن تدبيره السياسي والعسكري سهلاً له مهمة النجاح غالباً على الساحتين الإفرنجية المغولية. وكذلك قلاوون لم يجزع للخطر المغولي المتجدد على بلاد الشام من جهة الشرق فإذا بالسلطان يراقب كافة التطورات في هذه البلاد فيزحف حين تسنح له الفرصة وفعلاً قام بواجبه فواجه المغول بحنكة وقوة وتغلب عليهم في معركة حمص المشهورة سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، ثم لم ينس الفرنجة القابعين داخل دولته وأطماعهم التي مازالت تحركهم في سبيل حماية مصالحهم التي حققوها في بلاد الشام، فعندما انتهى من المغول تفرغ لهم وحاربهم أخذ قلاعهم الواحدة تلو الأخرى مثل حصن مرقب وطرابلس وغيرها.

وبعد استعادة عكا من قبل المماليك يكون الأشرف خليل قد أنهى عملية تقويض الحكم الإفرنجي الذي كان قد بدأها عماد الدين زنكي وابنه نور الدين زنكي، وتابعها الناصر صلاح الدين الأيوبي، وأكملها الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون، لأن بسقوط تلك المدينة أخذت بقية المدن الأفرنجية الأخرى على الساحل الشامي بالسقوط، كما لا ننسى جهاد الأشرف خليل ضد الأرمن حلفاء المغول وما انتزعه منهم من مدن مثل بهنسا ومرعش وتل حمدون.

أما في عهد الناصر محمد فقد ذاق فيها مرارة الهزيمة وحلاوة النصر في معاركه الضارية ضد القوات المغولية بزعامة غازان خان بما يمثله من مغول فارس مصدر التهديد الأول والمباشر لدولة المماليك، كما لا يمكننا تجاهل احتمال عودة الخطر الإفرنجي إلى الشرق من جديد. فقد كان الناصر محمد قوياً في حجم تجهيزات جيوشه ومدى اتساع حملاته وفي قوة حكمه.

وفي عهد السلطان برقوق، أحد السلاطين الأوائل للدولة المملوكية الثانية، استطاع أن يعيد بغداد إلى حاضرة الدولة بعد انتزاعها من أيدي المغول بالقوة وتعيين أحمد بن أويس نائباً عليها من قبله. إلا أن الضعف والخذلان تمثلا بابنه الناصر فرج بن برقوق عندما فضل حماية سلطانه على مواجهة المغول الذين استباحوا بلاد الشام وحلب وغيرها.

لقد كانت وفاة تيمورلنك سبباً نوعاً ما في إطالة عمر دولة المماليك الثانية، وعقب ذلك استطاعت في عهد السلطان برسباي من تحرير قبرص وغزو رودس، إلا أن هذه الصحوة المتأخرة لها لم تعد تجدي نفعاً عند ظهور العملاق العثماني الآتي من شمال سوريا ليسقط بلاد الشام بعد معركة مرج دابق، ومصر بعد معركة الريدانية.

الخاتمة

في عهد الدولة العباسية وبتفويض منها، انفرد المسلمون من غير العرب كالأكراد والأتراك والجراكسة وغيرهم، في الاستحواذ على السلاطين السياسية والعسكرية، وحصرها فيما بينهم في إدارة المشرق العربي الإسلامي، وذلك يعود إلى ضعف الدولة العباسية التي نشأت في كنفها تلك الدويلات وحظيت برعايتها وتأييدها. ومرد ذلك أيضاً إلى اعتماد الدولة العباسية على تلك العناصر في بناء قواها العسكرية، مضعفة بذلك العنصر العربي، ومسؤولة في أبعاده عن تلك المناصب، وخوفاً منه عليها في الاستئثار بالسلطة. والأمر عينه فعلته تلك العناصر حينما استأثرت بالحكم فعملت على إبعاد العرب عن المواقع والمناصب الهامة في معظم الدويلات التي قامت في خلافة العباسيين بحجة أنهم لم يأمنوا جانبهم أو يثقوا بهم.

احتفظ العرب لأنفسهم بمنصب الخلافة منذ تأسيسها وطوال فترة حكم العناصر الإسلامية، فحافظوا على هويتها العربية متخذين منها هالة دينية يتفاخرون بها، ظناً منهم أي العباسيين أنها وحدها تكفي في مواجهة الأعداء أو أن تصون دولتهم، متناسين في ذلك أن النبي (ﷺ) كان يعد الجيوش ويشارك في الغزوات ويجاهد الكفار، ويدعو الله تعالى أن ينصره ليثبت له دينه في الأرض. وإذا ما توقفنا عند مثال لأحد المؤرخين حينما يتحدث عن الرابطة الدينية من أنها هي التي تجمع وتفرق في آن معاً، نرى أن الدين هو الذي جمع النبي (ﷺ) وبلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، بالرغم من أنهم مختلفون في الأوطان واللغات والأعراق والعادات والتقاليد، وفي الوقت نفسه الدين هو الذي فرق بين النبي (ﷺ) وأبو سفيان وأبو جهل وأبو لهب الذين كانوا على الكفر، علماً أنهم من ذات القبيلة، ولغتهم واحدة، ومن عرق واحد، ولهم نفس العادات والتقاليد.

لهذا لم يكن الجهاد حكراً على العرب وحدهم في مواجهة الأخطار التي تعرضت لها المنطقة على أيدي المغول والصليبيين، ومن غير الجائز الوقوف عند تلك المعضلة لبناء جيش عربي بقيادة عربية ويقوم بمهام التصدي والدفاع عن كرامة وهيبة الأمة الإسلامية التي أخذت دولها تتساقط الواحدة تلو الأخرى أمام المغول، ابتدأ من خوارزم مروراً ببغداد وبلاد الشام ووصولاً إلى أرض فلسطين عند الحدود المصرية، هذا فضلاً عن الوجود الصليبي الذي كان جاثماً على أرض بلاد الشام منذ سنة (٤٩٢هـ/١٠٩٩م)، والذي كان عيناً للمغول على المسلمين عرباً وأكراداً وأتراكاً وجراكسة. ويفهم من ذلك كله أن الحرب كانت حرباً دينية خالصة وليست حرباً قومية، فكان من الطبيعي والحالة هذه أن ينهض من الأمة من هو قادر على إعادة الاعتبار للمسلمين وحضارتهم وأن يعيد للخلافة مكانتها ولو صورياً بعدما تم القضاء عليها في بغداد (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) في عهد الخليفة المستعصم.

استماتت العناصر الإسلامية، وتسابقت على الجهاد والاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ورفع راية الدين، ولا يمكن نكران دورها الجهادي الذي قامت به لفترة طويلة من الزمن ابتدأ من معركة حطين (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، حينما انتصر الجيش الأيوبي بقيادة الناصر صلاح الدين على الصليبيين بعد توحيده لمصر وبلاد الشام، وكذلك معركة المنصورة التي انتصر فيها الجيش الأيوبي أيضاً على الحملة الصليبية السابعة، والتي لمع فيها نجم المماليك العسكري، لينتقل فيها المماليك من مقاتلين في صفوف الجيش الأيوبي إلى أسياد لدولة خاصة بهم وتحمل اسمهم سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) ولتبدأ معهم مسيرة جهاد طويلة يتمكنون خلالها من هزيمة المغول في عين جالوت سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، ويعملون على إجلاء الصليبيين عن بلاد الشام كآخر معقل لهم في عكا سنة (٦٩١هـ/١٢٩١م).

ومع وصول المماليك إلى سدة الحكم في مصر وبلاد الشام، فإنه لا يمكن إغفال غايتهم وطموحاتهم في الوصول إلى السلطة، كغيرهم ممن سبقهم من الدول الأخرى، والتي ربما اتخذوا من الإسلام سبيلاً لتلك الغاية. إلا أن أعمالهم وبطولاتهم في ميادين القتال تظهر صدق التزامهم وإخلاصهم للعقيدة التي تربوا عليها ويتفانون في سبيلها.

وإذا ما أمعنا النظر في واقع المنطقة الجغرافي وأهميتها الإستراتيجية، نرى أن المحتل لبلاد الشام لا يستقر حاله وثبات وضعه العسكري ما لم يحتل مصر أيضاً، وهذا ما يفسر توجه الحملة الصليبية السابعة نحو مصر، بحيث أنهم يرون فيها عمقاً استراتيجياً يضمن لهم وجودهم وبقائهم في بلاد الشام، والعكس صحيح أيضاً لتلك المعادلة. وكذلك الأمر أيضاً بالنسبة للمدافعين عن منطقة المشرق العربي الإسلامي إذ يتطلب الأمر توحيد مصر وبلاد الشام ليتسنى مواجهة الأعداد المحتلين وتحقيق النصر.

من هنا تكمن الأهمية الإستراتيجية لهذه المنطقة، أي أن مصر وبلاد الشام هما كجناحي الطائر بالنسبة لفلسطين الذي لا يستطيع أن يحلق دونهما معاً. وقد أدرك عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين محمود أهمية هذا الأمر لمواجهة الإفرنج الذين بدأت حملاتهم على المنطقة منذ سنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م)، إلا أن تلك الوحدة لم تتحقق إلا في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي استطاع من خلالها الإنتصار على الصليبيين في معركة حطين وقطف ثمار ذلك الإنتصار وحده، وعمل بذلك على تكريس سلطنته على مصر وبلاد الشام.

لم يتمكن صلاح الدين من إجلاء الصليبيين عن المشرق العربي الإسلامي بالرغم من أنه انتصر عليهم في ذروة قوتهم. واستمرت حركة الجهاد ضد الصليبيين مع قيام دولة المماليك التي أدركت بدورها أهمية الوحدة بين مصر والشام، وعلى غرار ما فعله صلاح الدين الأيوبي أدرك المظفر قطز أول سلاطين دولة المماليك أهمية الوحدة بين مصر والشام والعمل على مواجهة خطر

المغول خارج الديار المصرية وذلك للحفاظ على كيان الدولة الناشئة وكونها الأمل الوحيد والأخير للمسلمين في المشرق العربي.

لقد وضع المماليك أنفسهم في مقدمة الصراع، وفي وضع لا يحسدون عليه لما سيحملونه على كاهلهم من المسؤوليات والتحديات الجسام، إذ أن ذلك لم يكن بخيارهم اختيار المواجهة، إنما فرضت عليهم خاصة وأن الدفاع عن قيام تلك الدولة يعنيهم بالدرجة الأولى. فقد قررت معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) مصير المغول، بقدر ما قررت مستقبل العرب المسلمين ومستقبلهم فوق أرضهم، وبقدر ما قررت أيضاً مصير الإمارات التي أقامها الإفرنج على ساحل بلاد الشام، نتيجة تحطيم أسطورة المغول على أيديهم كقوة لا تقهر، وذلك بفضل تنظيمهم وقدراتهم العسكرية التي فاجأوا فيها أعدائهم بحيث أن مصر عشية تلك المواجهة كانت قد تحولت إلى شبه مؤسسة عسكرية نتيجة للأخطار التي حاقت بدولة المماليك بصفة خاصة. والدولة الإسلامية بصفة عامة.

وفي هذا الإطار برز الجيش المملوكي كمنقذ للإسلام والمسلمين في تلك المرحلة العصيبة التي مر بها العالم العربي والإسلامي، واستطاع ذلك الجيش بمهارة قاداته، وبفضل تنظيمه العسكري وتدريباته القاسية، وتشكيلاته وتكتيكاته الحربية والقتالية أن يصبح رقماً صعباً في المعادلة السياسية والعسكرية في منطقة المشرق العربي، لما سيتبعه من تطورات ميدانية بعد هزيمة المغول على أرض فلسطين والتي تبنى فيها الجيش المملوكي إستراتيجية الهجوم لاغياً من قاموسه مبدأ التحصن والدفاع والذي أثمر في عمله هذا القضاء على الوجود الصليبي في المنطقة نهائياً.

لقد كان المماليك خير خلف لخير سلف حينما استلموا زمام المبادرة، وأثبتوا للعالم الإسلامي أنهم تلقفوا المهمة الصعبة على عاتقهم من باب التكليف وليس من باب التشريف، وقد تجلى ذلك في أعمالهم العسكرية وبطولاتهم الحربية التي ترجمت بالانتصار على عدوين من أخطر ما تعرض له العالم العربي والإسلامي في تاريخه، والذي يمكن أن يطلق على هؤلاء المماليك بحق اسم «داوية الإسلام»[1] على غرار طائفة الداوية عند الإفرنج، وكان فرسانها معرفون بالشجاعة والإقدام.

لقد كان في ظهور دولة المماليك في مصر، أنها قامت على أساس من الدعائم الشرعية إستندت إلى منطق القوة وتحقيق النصر على أعداء الدولة الإسلامية، كما أن التدريب القتالي والتربية والنشأة المملوكية كانت من أعظم النظم العسكرية لإنشاء جيل محارب تستطيع الدولة أن تعتمد عليه في تحقيق أهدافها الإستراتيجية وحماية مصالحها من التدخل الأجنبي.

وبما أن منطقة المشرق العربي هي محط إهتمام وإطماع المعتدين على مر التاريخ وحتى يومنا هذا، فإنه يمكن التفكير في تطوير نظم التعليم العسكري ومراحله بأسلوب مشابه لأسلوب التعليم

(1) حمود: سوزي، الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك، ص ٧٠.

والتدريب في عصر دولة المماليك وإن اختلف طبقاً للظروف الاجتماعية، بحيث تبدأ الدراسة من سن مبكرة في مراكز تعليم وتدريب عسكرية تكون فيها الدراسة لمراحل التعليم المختلفة بجانب التدريب العسكري لينشأ فيها الشاب حياة عسكرية بجانب دراسته للعلوم الأخرى، حيث يتخرج وهو مقاتل على مستوى علمي عالي، وبهذا يكون الأساس في إستراتيجية الردع للدولة، وهي إستراتيجية خلق قوة يهابها العدو. ثم أن التكتيك والشؤون الإدارية سواء أكانت من تشكيلات عسكرية للقوات أم إمداد هذه التشكيلات بالشؤون الإدارية قبل المعركة أو أثنائها كانت تنطبق على أحدث نظريات مازالت تستخدم في وقتنا الحاضر وأن اختلفت الوسائل والمعدات، علماً أن هذه التشكيلات هي ابتكار وتصميم مملوكي قائمة على أسس علمية سليمة(١).

بعد قرنين ونصف تقريباً من الحكم والسلطان سقطت دولة المماليك على أيدي العثمانيين الذين دخلوا بلاد الشام ومصر سنة (٩٢٢-٩٢٣هـ/١٥١٦-١٥١٧م)، وقضوا على دولة المماليك والخلافة العباسية في آنٍ معاً، ونقلوا هذه الأخيرة معهم إلى استانبول واحتكروها لأنفسهم حتى سنة ١٩٢٤م تاريخ سقوط الخلافة العثمانية. وقد كان أجدر بالدولة العثمانية في ذلك التاريخ أن تواصل زحفها نحو أوروبا وأن تمارس ضغوطاً على الأوروبيين لمنع سقوط غرناطة إحدى ممالك المسلمين في الأندلس بدلاً من التوجه نحو المشرق العربي وخوضها حرباً كانت دموية بحق حماتها وأهلها الذين يشاركونهم العقيدة والمذهب، مما يدلل في ذلك على أن معظم العناصر الإسلامية وبخاصة العثمانيين كانوا يسعون وراء السلطة والنفوذ كمن سبقهم من المماليك والأيوبيين والزنكيين دون أدنى شك في ذلك.

(1) فهيم، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، ص ١٩٦ -١٩٧.

الفهـــارس

أولاً: فهرس الأعلام

ثانياً: فهرس الأماكن

ثالثاً: فهرس المصطلحات

رابعاً: فهرس الخرائط

خامساً: فهرس النماذج وأنواع التعبيات والتشكيلات القتالية المملوكية

سادساً: فهرس الرنوك المملوكية

سابعاً: فهرس الصور وأنواع الأسلحة المملوكية

أولاً: فهرس الأعلام:

ثانياً: فهرس الأماكن:

ثالثاً: فهرس المصطلحات:

رابعًا: فهرس الخرائط:

خامساً: فهرس النماذج وأنواع التعبيات والتشكيلات القتالية المملوكية:

سادساً: فهرس الرنوك المملوكية:

سابعًا: فهرس الصور وأنواع الأسلحة المملوكية:

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

ثانياً: المراجع العربية

ثالثاً: المصادر والمراجع المعربة

رابعاً: الأطاريح الجامعية

خامساً: المراجع الأجنبية

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

القرآن الكريم.

١- ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م)

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

حققه نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

٢- ابن آجا: محمد بن محمود الحلبي (ت ٨٨١هـ/١٤٧٧م)

- العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك (رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدودار)

حققه محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، طبعة أولى، ١٩٨٦م.

٣- ابن أياس: زين العابدين محمد بن أحمد بن أياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)

- بدائع الزهور في وقائع الدهور.

حققه وكتب له المقدمة والفهارس محمد مصطفى، دار النشر فرانز شتاينر – فيسبادن، طبعة أولى (الجزء الأول – القسم الأول)، ١٩٧٥م.

ونسخة ثانية لنفس المحقق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، طبعة ثانية، ١٩٨٢-١٩٨٤م.

٤- ابن ايبك الدواداري: أبو بكر عبد الله (ت ٧٣٦هـ/١٣٣٦م)

- الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر.

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ١٩٦٠م.

- الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرح هارمان، القاهرة، ١٩٧١م.

٥- ابن بطوطة: شمس الدين أبي عبد الله محمد عبد الله اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)

- رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).

قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية (سلسلة التراث)، الرباط، ١٩٩٧م.

٦- **ابن تغري بردي:** يوسف عبد الله الظاهري الحنفي أبو المحاسن جمال الدين (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي

حققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين، وقدم له سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دون تاريخ.

- النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، (د.ت).

٧- **ابن جبير:** محمد بن أحمد بن الجبير الكناني الأندلسي (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م).

- تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار.

دار مصر للطباعة، ١٩٥٥م.

٨- **ابن حجر العسقلاني:** ابن الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م)

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.

حققه وراقبه محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد، الهند، ١٩٧٢م.

٩- **ابن خلدون:** عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

- تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر وأيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٧١م.

- مقدمة ابن خلدون.

دار القلم، بيروت، ١٩٨٤م.

١٠- **ابن سيدة:** أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م)

- المخصص.

حققه خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٦م.

١١- **ابن شامه:** شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٧م)

- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية.

تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٧م.

١٢- ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي بن أحمد (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)

- مفاكهة الخلان في حوادث الزمان.

تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٨م.

١٣- ابن عبد الظاهر: محي الدين عبد الله بن رشيد بن عبد الظاهر (ت٦٩٢هـ/١٢٩٦م)

- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور.

تحقيق مراد كامل، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، طبعة أولى، ١٩٦١م.

- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر.

تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، طبعة ثانية، ١٩٧٦م.

١٤- ابن العماد الحنبلي: عبد الحي بن أحمد بن محمد أبو الفلاح (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب.

حققه محمود الأرناؤوط، وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط.

دار ابن كثير، دمشق – بيروت، طبعة أولى، ١٩٨٦م.

١٥- ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٦هـ/١٤٠٤م)

- تاريخ ابن الفرات (تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات)

مطبعة حداد، البصرة، ١٩٦٧م.

والمجلدات ٧و٨و٩، ج١وج٢ الجامعة الأميركية والمطبعة الأميركية، بيروت، ١٩٣٨ - ١٩٤٢.

١٦- ابن الصقاعي: فضل الله ابن ابي الفخر (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م)

- تالي كتاب وفيات الأعيان.

المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية والمطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٧٠م.

١٧- ابن قتيبة الدينوري: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٨٦هـ/٨٨٩م)

- عيون الأخبار (الحرب والفروسية)

منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٧م.

١٨- ابن القيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن شمس الدين (ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م)

- الفروسية

حققه مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان، دار الأندلس، السعودية، طبعة أولى، ١٩٩٣م.

١٩- **ابن لاجين الطرابلسي:** محمد بن عبد الله الحسامي الطرابلسي، المعروف بالرماح، أحد العارفين بفنون الفروسية من أهل طرابلس الشام (ت ٧٣٨هـ/١٣٣٨م).

- الفروسية برسم الجهاد (وما أعد الله للمجاهدين من العباد) تحقيق عارف أحمد عبد الغني، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق طبعة أولى، ١٩٩٥م.

٢٠- **ابن ماجه:** أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (٢٧٣هـ/٨٨٦م)

- سنن ابن ماجه

تحقيق شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد – محمد كامل قره بللي – عبد اللطيف حرزالله، دار الرسالة العالمية، طبعة أولى، ٢٠٠٩م.

٢١- **ابن مماتي:** الوزير الأسعد شرف الدين أبو المكارم أبن أبي سعيد (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)

- قوانين الدواوين.

مطبعة إدارة الوطن، ١٨٨١م.

٢٢- **ابن النحاس:** أحمد بن إبراهيم الدمشقي الدمياطي (ت ٨١٤هـ/١٤١١م)

- مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق.

هذبة وانتقاه صلاح عبد الفتاح الخالدي، ١٩٩٩.

٢٣- **ابن واصل:** جمال الدين محمد بن سالم الشافعي (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.

مطبعة الكتب المصرية، ١٩٧٢م.

٢٤- **ابن الوردي:** زين الدين عمر بن محمد ابن أبي الفوارس (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

- تاريخ أبن الوردي.

دار الكتب العلمية، بيرو، ١٩٩٦م.

٢٥- **أبو الفداء:** السلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)

- تاريخ أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر).

المطبعة الحسينية المصرية، طبعة أولى، دون تاريخ.

٢٦- **أبو البقاء:** عبد الله بن محمد البدري المصري (ت٨٥٠هـ/١٤٤٦م)

- نزهة الأنام في محاسن الشام.

المطبعة السلفية، مصر، ١٩٢٢م.

٢٧- الإسحاقي: محمد عبد المعطي أبي الفتح عبد الغني بن علي (ت١٠٣٢هـ/١٦٢٢م)

- أخبار الأول فيمن تعرف في مصر من أرباب الدول.

المطبعة الأزهرية المصرية، مصر، ١٨٩٣م.

٢٨- البغدادي: عبد اللطيف ويعرف بإبن اللباد وبإبن نقطة والمطحن (ت٦٢٩هـ/١٢٣١م)

- الإفادة والإعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر مطبعة خالد بن الوليد، دمشق، ١٩٨٣م.

٢٩- الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب.

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، طبعة أولى ١٩٦٥م.

٣٠- الجويني: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد (المتوفى نحو ٦٨٣هـ/١٢٨٤م)

- تاريخ فاتح العالم.

نقلة إلى العربية محمد التونجي، دار الملاح للطباعة والنشر والتوزيع، حلب، ١٩٨٥م.

٣١- الحلبي: جلال الدين النوري المعروف تاج الملوك الحلبي (ت ٥٧٩هـ/١١٨٢م)

- تحفة الظرفاء في مناقب الملوك والخلفاء.

مطبعة جامعة كالفورنيا بيركلي، لوس أنجلوس، ١٩٤٢م.

٣٢- الرماح: نجم الدين حسن (ت ٦٩٤هـ/١٢٩٤م)

- الفروسية والمناصب الحربية.

تحقيق أحمد يوسف الحسن، منشورات جامعة حلب ومعهد التراث العلمي العربي، ١٩٩٨م.

٣٣- الزبيدي: محمد بن محمد الحسيني أبو الغيض (ت١٢٠٥هـ/١٧٩٠م)

- تاج العروس من جواهر القاموس.

تحقيق مجموعة من المحقيقين، دار الهداية، دون تاريخ.

٣٤- الزردكاش: أبن ارنبغا (ت ٨٦٧هـ/١٤٦٣م)

- الأنيق في المناجيق.

تحقيق إحسان الهندي، منشورات جامعة حلب، ١٩٨٥م.

٣٥- **السبكي:** تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)

- طبقات الشافعية الكبرى.

تحقيق محمود محمد الطناجي وعبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة ثانية، ١٩٩٢م.

٣٦- **السخاوي:** شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م).

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع.

منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.

٣٧- **السيوطي:** جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة.

حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، طبعة أولى، ١٩٦٧م.

٣٨- **شيخ الربوة:** شمس الدين أبو عبد الله محمد الأنصاري المعروف بشيخ الربوة، (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م)

- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر.

مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية بمدينة بطرسبورغ، ١٨٦٥م.

٣٩- **الشهابي:** الأمير حيدر محمد.

- تاريخ الأمير حيدر أحمد الشهابي والغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان).

مطبعة السلام، مصر، ١٩٠٠م.

٤٠- **الصفدي:** صلاح الدين خليل ايبك (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م)

- أمراء دمشق في الإسلام.

مطبوعات المجمع العلمي العربي ومطبعة الترقي، دمشق، ١٩٥٥م.

- الوافي بالوفيات.

تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م.

٤١- **الصيرفي:** الخطيب الجوهري علي بن داود (ت ٩٠٠ه /١٤٩٤م)

- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان.

مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٧٠م.

٤٢- **الطبراني:** سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي أبو القاسم (ت٣٦٠هـ/٩٧٠م)

- المعجم الكبير.

تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة بن تيمية، القاهرة، طبعة ثانية، (د.ت).

٤٣- **الطرسوسي:** مرضي بن علي بن مرضي (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م)

- تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسوأ ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداد.

تحقيق كلود كاهين، بيروت، ١٩٤٨م.

٤٤- **الظاهري:** غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت٨٧٣هـ/١٤٦٨م)

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك.

اعتنى به وصححه بولس راويس، طبع بمدينة باريس في مطبعة الجمهورية، ١٨٩٤م.

٤٥- **العباس الصفدي:** الحسن بن أبي محمد عبد الله الهاشمي (ت ٧١٧هـ/١٣١٧م)

- نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك.

تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، طبعة أولى، ٢٠٠٣.

٤٦- **العسقلاني:** شافع بن علي الكاتب المصري (ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م)

- الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور.

تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٨م.

٤٧- **العيني:** أبو محمد بن موسى بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان.

تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧-١٩٩٢م.

٤٨- **القرماني:** أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م)

- أخبار الدول وآثار الأول.

مطبعة دار السداد، بغداد، ١٨٦٥م.

٤٩- **القلقشندي:** أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الغزاري (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا.

تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧م.

٥٠- **الكتبي:** محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)
- فوات الوفيات.
مطبعة السعادة ومكتبة النهضة المصرية، مصر، ١٩٥١م.
٥١- **مجهول:**
- خزانة السلاح
تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٧٨م.
٥٢- **المقريزي:** أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس الحسيني العبيدي تقي الدين (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)
- السلوك لمعرفة دول الملوك.
تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٧م.
- المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار.
دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٧م.
٥٣- **المنصوري:** ركن الدين بيبرس المنصوري الناصري الخطائي الدوادار المصري (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م)
- التحفة المملوكية في الدولة التركية (تاريخ المماليك البحرية في الفترة ٦٤٨ -٧١١هـ)
نشره وقدم له ووضع فهارسه عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة طبعة أولى، ١٩٨٧م. .
- مختار الأخبار (تاريخ الدولة الإيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ)
تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، طبعة أولى، ١٩٩٣م.
٥٤- **الناصري:** محمد بن منكلي (ت ٧٧٨هـ/١٣٧٦م)
- الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب.
دراسة وتحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتاب والوثائق القومية – مركز تحقيق التراث، القاهرة، ٢٠٠٠م.
٥٥- **النسوي:** محمد بن أحمد بن علي
- سيرة جلال الدين منكبرتي.
تحقيق حافظ حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٣م.

٥٦- **النعيمي:** عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م)

- الدارس في تاريخ المدارس.

حققه إبراهيم شمس الدين، ودار الكتب العلمية، طبعة أولى، ١٩٩٠م.

٥٧- **النويري الإسكندراني:** محمد بن قاسم بن محمد النويري المالكي (ت ٧٧٥هـ/١٣٧٣م)

- الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقتضية في وقعة الإسكندرية.

تحقيق عزيز سوريال عطية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن، الهند، ١٩٧٠م.

٥٨- **النويري:** أحمد بن عبد الوهاب بن محمد (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)

- نهاية الأرب في فنون الأدب.

دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة طبعة أولى، ٢٠٠٢م.

٥٩- **الهمذاني:** رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م)

- جامع التواريخ.

دار إحياء الكتب العربية، مصر، ١٩٦٠م.

٦٠- **اليونيني:** شهاب الدين قطب الدين أبو الفتح (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)

- ذيل مرآة الزمان.

عناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢م.

٦١- **ياقوت الحموي:** شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م).

- معجم البلدان.

دار صادر، بيروت، طبعة ثانية، ١٩٩٥م.

ثانياً: المراجع العربية:

١- **الإسكندراني:** عمر الميجر أ.ج. سفير.ج

- تاريخ مصر إلى الفتح العثماني.

مطبعة المعارف بشارع الفجالة، مصر، طبعة سادسة، ١٩٢٣م.

٢- **الألوسي:** محمد شكري

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب.

المطبعة الرحمانية، القاهرة، طبعة ثانية، ١٩٢٤م.

٣- **الباشا:** حسن عبد الرحمن فهمي ومجموعة من المؤلفين، عبد الرؤوف علي يوسف وحسين عبد الرحيم عليوي، ومحمد مصطفى نجيب.

- القاهرة تاريخها، فنونها، آثارها.

مطابع الأهرام التجارية، ١٩٧٠م.

٤- **البلعوط:** محمد عبد الستار وعبد الرحمن خالد سليم.

- الأسلحة الإسلامية (السيوف والدروع)

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٩٩٠م.

٥- **الجليلي:** محمود، المكاييل والأوزان والنقود العربية، دار الغرب الإسلامي، طبعة أولى، بيروت، ٢٠٠٥م.

٦- **السرجاني:** راغب

- قصة التتار من البداية إلى عين جالوت.

مؤسسة إقرأ، المملكة العربية السعودية، طبعة أولى، ٢٠٠٦م.

٧- **الشرقاوي:** عبد الله

- تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة السلاطين.

المطبعة الأزهرية المصرية، طبعة أولى، ١٨٩٣م.

٨- **الشيال:** جمال الدين

- تاريخ مصر الإسلامية.

دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٧م.

٩- **الصلابي:** عي محمد محمد
- السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، مصر، طبعة أولى، ٢٠٠٩م.
- المغول (التتار) بين الانتشار والانكسار، الأندلس الجديدة، مصر، طبعة أولى، ٢٠٠٩م.

١٠- **الصياد:** فؤاد عبد المعطي
- الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين (أسرة هولاكو).
مركز الوثائق للدراسات الإنسانية، جامعة الكويت، ١٩٨٧م.

١١- **الطباخ:** محمد بن راغب بن هاشم الحلبي.
- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء.
المطبعة العلمية، حلب، طبعة أولى، ١٩٢٤م.

١٢- **العبادي:** أحمد مختار.
- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام.
مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، دون تاريخ.

١٣- **العبادي وسالم:** أحمد مختار وعبد العزيز.
- تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام.
مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣م.

١٤- **العريني:** السيد الباز.
- المماليك
دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٧م.
- المغول.
دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م.

١٥- **العسلي:** بسام.
- الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة.
دار النفائس، بيروت، طبعة خامسة، ١٩٩٢م.

١٦- **العلبي:** أكرم حسن.
- معارك المغول الكبرى في بلاد الشام.
دار المأمون للتراث، دمشق، طبعة أولى، ١٩٨٨م.

١٧- الغزاوي: عباس.

- تاريخ العراق بين إحتلالين.

مطبعة بغداد، ١٩٣٥م.

١٨- القنوجي: صديق بن حسن.

- أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أهل العلوم.

تحقق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م.

١٩- المفتي: شوكت.

- أباطرة وأبطال في تاريخ القوقاس.

مكتبة الأندلس، القدس طبعة أولى، ١٩٦٢م.

٢٠- اليوزبكي: توفيق.

- تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المملوكي.

مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٧٥م.

٢١- أسعد: إبراهيم.

- ماركو بولو من قصص الرحالة والمستكشفين.

دار المعارف، مصر، ١٩٥٨م.

٢٢- بيشوف: تيورد الجرماني.

- تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء. ترجمة وتحقيق الدكتور شوقي شعت والأستاذ فالح بكور، دمشق، ١٩٩٢م.

المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩٨٠م.

٢٣- جرار: مأمون فريز.

- الغزو المغولي.

دار البشير، عمان، طبعة أولى، ١٩٨٤م.

٢٤- جمعة: علي محمد.

- المكاييل والموازين الشرعية.

القدس للإعلان والنشر والتسويق، القاهرة، ٢٠٠١م.

٢٥- **حطيط:** أحمد.

- حروب المغول

دار الفكر اللبناني، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٤م.

٢٦- **حلاق:** حسان وعباس صباغ.

- المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية.

دار العلم للملايين، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٩م.

٢٧- **حمدي:** حافظ.

- الدولة الخوارزمية والمغول.

دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٩م.

٢٨- **حمزة:** عبد اللطيف

- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول مطبعة أحمد علي مخيمر، مصر، طبعة ثانية، ١٩٦٨.

٢٩- **حمود:** سوزي

- الفاطميون والزنكيون والأيوبيون والمماليك.

دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠١٠م.

٣٠- **خطاب:** محمد شيت.

- العسكرية الإسلامية.

كتاب الأمة، سلسلة تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في قطر، ١٩٨٢م.

٣١- **زكي:** عبد الرحمن.

- الجيش المصري الإسلامي من عين جالوت إلى رشيد

مطبعة الكيلاني، ١٩٧٠م.

٣٢- **زيادة:** نقولا.

- دمشق في عصر المماليك.

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت ونيويورك، ١٩٦٦م.

٣٣- **زيدان:** جرجي.
- تاريخ التمدن الإسلامي.
دار الهلال، طبعة رابعة، ١٩٣٥م.
٣٤- **سرور:** محمد جمال الدين.
- الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره.
دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٣٨م.
٣٥- **سليم:** محمود رزق.
- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي.
مكتبة الآداب ودار الحمامي للطابعة، مصر، ١٩٦٥م.
٣٦- **سمكوغ:** أمين.
- مدخل إلى تاريخ الشراكسة.
دار دمشق، دمشق، طبعة أولى، ١٩٨٤م.
٣٧- **شبارو:** عصام.
- السلاطين في المشرق العربي. (المماليك)
دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م.
٣٨- **ضومط:** أنطوان.
- الدولة المملوكية (التاريخ السياسي والإقتصادي والعسكري).
دار الحداثة، بيروت، طبعة أولى، ١٩٨٠م.
٣٩- **طرخان:** إبراهيم علي.
- مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة.
مطبعة لجنة التأليف والنشر، مصر، ١٩٦٠م.
٤٠- **طقوش:** محمد سهيل.
- تاريخ المماليك في مصر والشام.
دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٧م.
- تاريخ الحروب الصليبية وحروب الفرنجة في المشرق، (٤٨٩-٦٩٠هـ/١٢٩١م).
دار النفائس، بيروت، طبعة أولى، ٢٠١١م.

٤١- **عاشور:** سعيد عبد الفتاح.

- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك.

دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٢م.

٤٢- **عبد العزيز:** فهمي عبد السلام.

- تاريخ الدولة المغولية في إيران.

القاهرة، ١٩٨١.

٤٣- **عدوان:** أحمد محمد.

- العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي.

عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٥م.

٤٤- **علي يوسف:** نبيل.

- موسوعة التحفة المعدنية (مصر منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر المملوكي).

دار الفكر العربي، طبعة أولى، ٢٠١٠م.

٤٥- **عيسى:** أحمد.

- تاريخ البيمارستانات في الإسلام

المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٣٩م.

٤٦- **فهيم:** محمود نديم أحمد.

- الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري.

الهيئة المصرية العامة للكتاب – أكاديمية ناصر العسكرية، القاهرة ١٩٨٣م.

٤٧- **كرد علي:** محمد عبد الرزاق.

- الإسلام والحضارة العربية.

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، طبعة ثانية، ١٩٥٢م.

- خطط الشام.

مكتبة النوري، دمشق، ١٩٨٣م.

٤٨- **ماجد:** عبد المنعم.

- تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى.

مكتبة الإنجلو، القاهرة، ١٩٦٣م.

٤٩- ماهر: سعاد.

- البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية.

دار الكتاب ووزارة الثقافة العربية للطباعة والنشر، الجيزة، ١٩٦٧م.

٥٠- مبارك: علي.

- الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة.

مطبعة دار الكتب، مصر، ١٩٦٩م.

٥١- مهدي: شفيق.

- مماليك مصر والشام.

الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٨م.

٥٢- مؤنس: حسين.

- أطلس تاريخ الإسلام.

الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، طبعة أولى، ١٩٨٧م.

٥٣- ياسين: عبد الناصر.

- الأسلحة عبر العصور الإسلامية.

دار القاهرة، القاهرة، طبعة أولى، ٢٠٠٦م.

ثالثاً: المصادر والمراجع المعربة:

١- بولياك: أ،ن.

- الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان.

منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، نقله إلى العربية عاطف كرم، مطابع نصار، بيروت، ١٩٤٩م.

٢- تسيترشتين: ك.ف.

- تاريخ سلاطين المماليك في أعوام (٦٩٠- ٧٤١هـ)

بريل، لندن، ١٩١٩م.

٣- **رنيسمان:** ستفن

- تاريخ الحروب الصليبية.

نقله إلى العربية السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٧م.

٤- **ريسلر:** جاك، س

- الحضارة العربية.

ترجمة غنيم عبدون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دون تاريخ.

٥- **شبولر:** برتولد

- العالم الإسلامي في العصر المغولي.

نقله إلى العربية خالد أسعد عيسى، راجعه سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، طبعة أولى، ١٩٨٢م.

٦- **فالتر:** هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة عن الألمانية كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، طبعة أولى، ١٩٧٠م.

٧- **لوبون:** غوستان

- حضارة العرب.

نقله إلى العربية عماد زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، طبعة رابعة، ١٩٦٤م.

٨- **ماير:** ل،أ

- الملابس المملوكية.

ترجمة صالح الشيتي، الهيئة المصرية العامة لكتاب، القاهرة، ١٩٥٢م.

٩- **متز:** آدم

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري.

نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، طبعة ثالثة، ١٩٥٧م.

١٠- **ميلي:** الدو

- العلم عند العرب وأثره على تطور العلم العالمي.

نقله إلى العربية عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، مطابع دار العلم، القاهرة، طبعة أولى، ١٩٦٢م.

١١- هل: ي

- الحضارة العربية.

ترجمة إبراهيم أحمد العدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٦م.

رابعاً: الأطاريح الجامعية:

*** قندولي:** داود.

- الدور العسكري للقادة الخمسة الكبار من سلاطين دولة المماليك الأولى في مواجهة الفرنجة والمغول. أطروحة دكتوراه.

جامعة بيروت العربية، بيروت، ٢٠١١م.

*** وتر:** محمد ضاهر.

- معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م. أطروحة دكتوراه.

الجامعة اليسوعية، بيروت، ١٩٨٩م.

خامساً: المراجع الأجنبية:

1- **Dozy, R:** Supplement Aux Dictionaires Arabes librairies de Liban, Beyrouth, 1968.

2- **Gaudefroy,** Domombyne (1862-1957): La Syries à l'epoque des mamluks librairie orientoliste, pairs, 1923.

3- **Lane – Poole:** A history of Egypt in the Middle Ages, Frank Gass Company Ltd. Fourth edition 1968.

4- **Laoust, Henri:** Les Government de Domas sous les Mamluks et les Premiers Ottomans.

5- **M. Michaud:** Histories des croisades, Paris, 1828.

6- **Rachid,** AL – Din: the successors of Genghis Khan, translated from the persion, by john andrew Beyle. New York and London Colombia university press, 1971.

7- **Rey, E:** Les colonies franques des syrié aux XII^{me} et XIII^{me} siécles libraries des archives nationals et de la Société de l'École des chartes, Paris, 1883.

فهرس الموضوعات

التنظيمات العسكرية والفن الحربي عند المماليك

(٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)